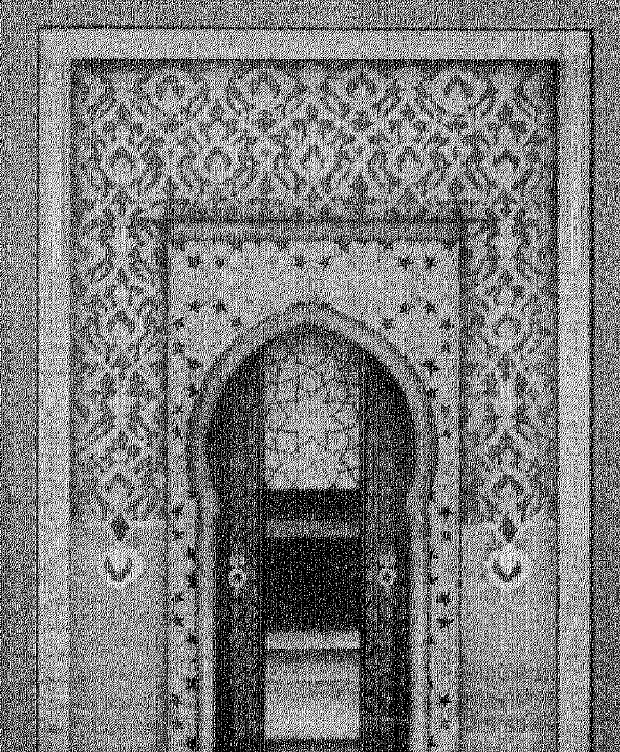
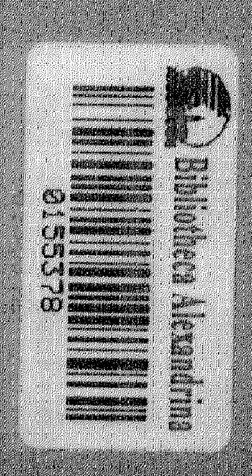
الأستاذ نجيب زبيب

الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس

تقديم سعادة المستشار

احمد ابن سودة





دار الأمير

دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

مؤسسة تعنى بالنتاج الفكري وشؤونه وتواكب نشاطه وتطوره.

العنوان: بيروت ص. ب ٥٥٥١/ ١١٣

هاتف: ٦٠١٠٢٠/ ٨٢٣٥١٢ مقسم ٥١٩

فاكس: ٦٠١٠٠٥ بيروت

٤٦٢٥٨٤٨/ ٣٥٧ قبرص

الموسوعة العامة
لتــاريخ

المغرب و الأندلس

الأستاذ نجيب زبيب

الموسوعة العامة لتاريخ

المغرب و الاندلس

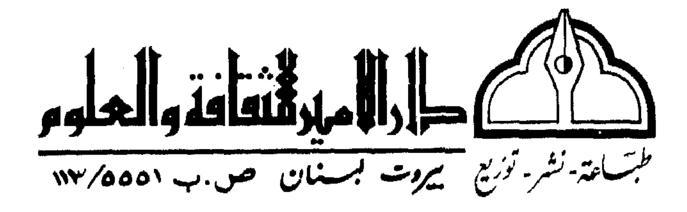
تقديم سعادة المستشار

احمد إبن سودة

الجزء الأول

دار الامير

الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م





جلالة الملك الحسن الثاني

إهداء

إليك يا أخي المغربي أقدّم أسمى آيات الاعجاب والتقدير واضعاً بين يديك صفحات مشرقة من تاريخ بلدك المجيد في ماضيه وحاضره تاركاً المستقبل لك أنت لتخطّه بنفسك وبالشكل الذي ترتضيه بما يتناسب مع طموحاتك وتطلعاتك نحو غدٍ أفضل على هدى من دينك واعتزازٍ بقوميتك وأمجادك.

هذه الصفحات المجيدة كتبها آباؤك وأجدادك منذ أن كانوا فوق أرضهم الطيبة لتزداد إيماناً على إيمان بالمعجزات التي حققوها والحضارات التي بنوها والبطولات التي سطّروها راجياً من الله العليّ القدير أن أكون قد نقلتها إليك بأمانة وصدق وهو الموفّق والمسدّد.

نجيب زبيب

المؤلف في سطور

نجيب محمود زبيب

ـ مواليد النميرية ـ لبنان الجنوبي.
ـ دراسات عليا في الأدب وتاريخ الفكر الاسباني المعاصر ـ مدريد.
ـ دراسات عليا في الجعفرافيا ـ مدريد.
ـ أستاذ الأدب والتاريخ الإسلامي في ثانوية جابر بن حيَّان، تطوان المغرب سابقاً.
ـ له تآليف عديدة باللغتين العربية والاسبانية منها:
١ ـ المحيط الكوني وأسراره.
٢ ـ موسوعة تراجم العظماء ١/ ٧.
٣ ـ تعلَّم الأسبانيَّة عبر الرحلة والكلمة (باللغتين الاسبانية والعربية).
٤ ـ قاموس عربي اسباني.
٥ ـ قاموس اسباني عربي.
٦ ـ دولة التشيّع في بلاد المغرب.
٧ ـ الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ١/ ٥.

مقدمة الناشر

عندما وقع نظري على الاستاذ المؤرخ نجيب زبيب للمرة الأولى، أخذني شعور غريب، فشعرت وكأني أقلب أعماق التاريخ في بريق عينيه، وعندما صافحته كأني أصافح العصور الأولى في احساسي الأول وما أن شددت على راحته حتى وكأني ألملم احداث التاريخ لأستقرّ في القرن العشرين، عندها قلت: إن هناك تاريخاً حياً لكن في هيئة رجال. وتجاذبنا أطراف الحديث، فكان الكلام معه صعباً، لا لضعفٍ منّي ولكن حياءً وخجلاً، فأنت أمام مجمع تاريخي لكن في هيئة البشر، فإذا قاطعته فإنك لا تفلح وإذا أنصت ساق لك الأحداث من البدء والأسباب الى النهاية والاعقاب فما حاجة المداخلة والسؤال شرط أن تصبر إلى نهاية حديثه، وكم هو شيّق ولا يخلو من أدب ونكتة.

لذا يصعب الكلام مع نجيب زبيب لكن ولا أقول مادحاً يحلو له الاستماع، تحدثك عيناه قبل لسانه، ومعها دلائل الصدق، تخاطبك تقلصات وجهه وجبينه قبل فمه، ومعها عين الحجة، وما يرفعه أكثر تواضعه المتأصل في أعماقه وطيبة ما وجدت أنبل منها.

نجيب زبيب عَالمٌ ينبئك أخلاق العلماء، وسعة صدورهم. . نجيب زبيب وإن لم ينصفه لبنان الآن فهو من رجالاته، نجيب زبيب وإن لم يكن ذا جاه وسلطان لكنه ذو علم وعنفوان، وحسبه ما سلف من سيرة أقرانه في التاريخ ويبقى الغنى بالعقل والفقر وبالجهل والميراث بالأدب.

وأنا ما أردت من هذا التعريف تعريف نجيب زبيب، فمؤلفاته باللغتين العربية والاسبانية دليل ساطع على علمه وغزارة انتاجه، ولكني أردت أن أقول: «هكذا عرفت نجيب زبيب» وهكذا ستعرفونه من خلال قراءتكم للموسوعة الكاملة لتاريخ المغرب والأندلس المتفرّدة بموضوعها والمتميّزة بأسلوبها.

ونحن إذ نضع هذه الموسوعة بين أيدي القراء والباحثين والتي نعتبرها شرفاً للدار وإنجازاً عملياً وعلمياً، لا نخوض بترجمة للموسوعة فقد وفّاها سعادة الاستاذ الأديب السيد أحمد بن سودة مستشار جلالة الملك الحسن الثاني حقها في التقديم والتعريف، وهنا أنتهزها فرصة لتقديم الشكر لسعادته على تفضله بتقديمه للموسوعة حيث ان العلم عند أهله معروف، والمعروف عند أهله مصون.

وأخيراً نسأل المولى أن يديم العافية على مؤلفها الاستاذ المؤرخ نجيب زبيب ويمد في عمره لخدمة هذه الأمة والله ولي التوفيق.

محمد حسين بزي

دار الأمير للثقافة والعلوم

بيروت ١/٦/١٩٩٤

فاتحة، وتحية، واعتراف

بقلم: مستشار صاحب الجلالة
أحمد ابن ســودة

عندما توصلت بكتاب الأخ الكريم الأستاذ نجيب زبيب يخبرني فيه بالكتاب الذي ألفه عن المغرب، ورغبته في أن أكتب مقدمة له، شعرت بسعادة غامرة، أولاً لأنه يتعلق بتاريخ بلدي المغرب، وثانياً لأن صدوره في هذه الظروف التي يجتازها العالم العربي، يستجيب لحاجة ماسة أعتبر التجاوب معها مسؤولية كل مثقَّف عربي، ألا وهي التعريف بالتاريخ المجيد للأمة العربية استنهاضاً لهممها التي تعرضت لأقسى النكسات، وإذكاءً لمشاعر عزتها وكرامتها لتتصدى لأهوال التحديات المحدقة بها من كل صوب، والمزروعة في داخلها من كل حدب، لتستجمع شتات قوتها، وتنهض من كبوتها، وتستأنف سيرها على هدى من تاريخها، واصلة ما انقطع من وشائج بينه وبين حاضرها.

ولقد كان ظني دائماً، وأنا أرى ما آلت إليه أحوال أمتنا العربية، من تنافر، وتخاصم، وحيرة، وفتنة، أن أخبث مؤامرة حيكت، ولا زالت

تحاك، ضد هذه الأمة، تتمثل في عملية إلغاء إن لم يكن إعدام ذاكرتها التاريخية.

وليس عصياً على الباحث المتقصي، ولا على المتأمل فيما جرت به الأحداث والوقائع على امتداد عقود هذا القرن، أن يلاحظ ظاهرة جديرة بالتحليل والدراسة والتأمل، ظاهرة الانتكاسة التي تعرضت لها النهضة العربية، هذه النهضة التي انطلقت في موجات متعاقبة بداية من نهاية القرن الماضي والتي اعتمد روادها ومحركوها على أسس وثوابت واضحة تدعو إلى إحياء تراث الماضي المجيد لتأصيله وتنقيته من عناصر الضعف والسلبيَّة، والانطلاق منه لاكتساب مقومات الانبعاث والتجديد واللحاق بركب التقدم العلمي والحضاري.

إن أولئك الرواد أدركوا أن قوة الغرب لا تكمن في تفوقه الحضاري، ولكن تكمن في الثورة العلمية التي استمد شعلتها من وهج الحضارة الإسلامية، فتوقفنا فيما هو استمر وتراجعنا في الوقت الذي تقدم، فلا بدَّ إذن، لمواجهته والحد من أطماعه من الاعتماد على احياء روحنا الحضارية، واكتساب المعرفة الجديدة من غير تفريط في مقوماتنا.

وهكذا بدأت النهضة العربية بالعودة الى النبع، أي الى الماضي المجيد، لا من أجل التغنّي به، بل من أجل استلهامه والتسلح بقوته. فكانت الدعوة السلفية عنواناً لهذه النهضة. وكانت حركة التنوير الأدبي والعلمي سمتها، والنظام السياسي والبناء الاقتصادي عمدتها.

ولكن ماذا حدث؟ . . .

وقع إجهاض لهذه النهضة ومقاومة لتيارها، وتضافرت جهود المتآمرين من المستعمرين ومن تيارات داخلية لإيقاف مسيرة هذه النهضة، والتشويش

على أهدافها ومراميها.

وكان ما كان من أحداث أدخلت الأمة العربية منذ حوالي نصف قرن في متاهات البحث عن سراب: انقلابات، نعرات طائفية وشعوبية، اديولوجيات دخيلة. وتوقفت مسيرة النهضة، بل أقول تم الاجهاز على رموزها وديناميكيتها، وكانت الحصيلة سلسلة متلاحقة من الانتكاسات والهزائم والمعارك الجانبية وإهدار الطاقات.

والآن، أرى أننا في نقطة السؤال أو التساؤل: من أين نبدأ؟

أن استحضار التاريخ المجيد لهذه الأمة، يشكل في نظري انطلاقة من الانطلاقات التي تشكل مجتمعةً، ومتناسقةً، أرضيةً لاكتشاف الطريق الصحيح.

ومن هنا أرى قيمة وأهمية الكتاب الذي ألفه الأستاذ نجيب زبيب، فمن خلال قراءتي للمقدمة التي كتبها المؤلف لكتابه، تيقنت أنه تعامل مع المادة التي عكف على جمعها، واستيعابها، واستقرائها، تعامُلَ المؤرخ المتمكن من جهة، وتعامل الشغوف المحب، وتعامل المحرّض والمستنهض للهمم، وكأني به يريد أن يقدم من خلال كتابه رسالة جلية واضحة، وهي: هذا هو تاريخنا، تاريخ أمة مجيدة عظيمة، فتذكروا، واسترجعوا واستنهضوا، وانظروا خلفكم لتتبيّنوا الطريق أمامكم.

ولقد علمت من مقدمة المؤلف أنه عاش فترة في المغرب، وعلمت من أصدقاء حدّثوني عنه أنه كان أستاذاً في مدينة تطوان، تلك الحاضرة العلمية والجهاديّة، وأنه كان مثال العربي المؤمن، والمسلم القوي بإيمانه ودينه، ولا زال له ذكر في هذه المدينة، كما لا زال له تلاميذ يعترون به ويشيدون بفضله.

وهو يعترف في مقدمته بما تركه المغرب من هوى عميق في قلبه وما رسمَ من ذكريات عزيزة في نفسه، وهو بمؤلفه هذا يريد أن يردّ التحيَّة للمغرب بأحسن منها، وتلك من شيم وقيم العروبة الأصيلة. وكتابه بحق تحية جميلة.

إن تاريخ المغرب هو موضوع هذا الكتاب، وهذا التاريخ ان كان جزءاً من تاريخ الأمة العربية وحضارتها وأمجادها، فهو تاريخ فريد ومتفرد، له طابعه الخاص، وهذا ما يدعوني إلى القول بأن هذا التاريخ لم تنصفه أقلام المؤرخين من إخواننا في المشرق العربي، وأقصد ما كتب عنه فيما علمت وقرأت ليس بالقدر الذي كتبه المغاربة عن تاريخ المشرق، وهذه ملاحظة لا تصدر منّي عن عتاب بقدر ما أريد من ورائها أن أقول: أنه آن الأوان لوضع حدّ لتلك القطيعة التي كان لعامل الجغرافيا جزء كبير في امتدادها عبر الزمان، خاصة وأن عصرنا الحالي، هو عصر الاتصال والإعلان وثورتهماالتي جعلت من الكرة الأرضية كرة صغيرةً من زجاج.

لقد كتب المغاربة كثيراً عن المشرق لأنه كان مزارهم في رحلات الحج وفي رحلات العلم، والعكس لم يكن موجوداً. وكُتُبُ الرحَّالين المغاربة تعتبر ذخيرةً فريدةً زاخرةً بتاريخ المشرق عبر العصور. وأنا إذ أدعو بهذه المناسبة المؤرخين والباحثين العرب لتقصّي صفحات مجهولة من تاريخ بلدانهم في مخطوطات الرحَّالين المغاربة، أدعوهم إلى ردّ التحيّة بأحسن منها، أي إلى إيلاء جزء من جهدهم لتاريخ المغرب، تعميقاً لأواصر المعرفة، وتأصيلاً لوشائج القربى، ولاكتشاف حقيقة ما يمثله المغرب من ثقل وأهمية فيما نحن مشتركون في الإيمان به لإقامة صرح علاقات عربية جديدة قوامها التعاون عن طريق التعارف، والتضامن عن طريق التآلف، لنبدأ من جديد بداية ثابتة سليمة.

فتحيّة لهذا الكتاب ولصاحبه .

للكتاب الذي جاء في وقته ليسد بعض الفراغ ، وليعرف بتاريخ المغرب وأدواره وملاحمه وأمجاده ، وهي كلها جزء من لحمة التاريخ العربي الاسلامي المجيد .

ولا شك أن الكتاب سيستقبل بالحفاوة التي يستحقها وهو أهل لها .

وان كان المؤلف شرقياً فقد استطاع المغرب أن يلبسه جلاَّبته البهية ، وكما قال في مقدمة كتابه «فقد احتضنتني أرضه ، ورونني مياهه ، وأظلتني سماؤه ، وعشت فيه سنواتٍ طيبة مباركة يوم كنت عضواً في بعثة لبنان التعليمية إليه» .

مستشار صاحب الجلالة

أحمد ابن سودة

له في القلب هوى لا يعرف الحدود ، وله في النفس عاطفة جامحة وذكرى طيِّبة تتمرّد على النسيان ، فقد احتضنتني أرضه وروتني مياهه وأظلّتني سماؤه وعشت فيه سنوات طيبة خيّرة مباركة يوم كنت عضواً في بعثة لبنان التعليمية إليه . سنوات لا زلت أحسبها من أسعد سنوات العمر وأجملها وأحلاها . كما لا يزال لي فيه أكثر من بيت وأكثر من صديق .

ثانيهما : يقيني بأنَّ تاريخ المغرب وحتَّى هذه الساعة لم يكتب بعد بشكله الكامل الصحيح. فقد تبيَّن لي خلال البحث أنَّ هناك جوانب كثيرة من هذا التاريخ لا تزال مطموسة وهي بحاجة لأن توضع في دائرة الضوء الكاشف بروحٍ موضوعيَّة صرفة والتزام خلقيٍّ تام ومنهج علمي خالص بعيدٍ عن جموح العاطفة وشطحات الخيال. إنَّ موضوعاً كهذا له من جلالة القدر والعظمة والأهميَّة التاريخية البالغة لجدير بأن يخرج إلى النور وقد كُتِبَ بصدق وأمانة وأن تتاح له الإمكانات وتتهيّأ له الفرص ويُعَدّ إعداداً جيداً مدروساً وبشكل متكامل متناسق ، ليرى العالم كُلُّه ما هو المغرب ؟ وأي شعب هو شعبه ؟ وأي أرض هي أرضه ؟ وأي تاريخ مجيد وأي دورٍ ريادي عظيم كان له منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا مروراً بالفتح الإسلامي له حيث كان ولم يزل القلعة الكبيرة القوية الصامدة للدفاع عن العروبة والإسلام . ويجد فيه أبناؤنا عزّة الانتماء إليه وشرف الدفاع عنه .

لقد حمل المغرب مشاعل الحضارة بيديه الاثنتين طيلة القرون الوسطى بعد أن امتزجت الحضارة العربية بالحضارة الكنعانية البربرية في مطلع القرن السابع الميلادي ، فما إن فتح العرب المسلمون المغرب الكبير بقيادة البطل العربي العملاق عقبة بن نافع حتى انتشرت الدعوة الإسلامية السمحاء في ربوعه الفساح ، ولم يمضِ قرن واحد من الزمن حتى استجاب المغاربة الأبرار في غالبيتهم العظمى لتعاليم الرسالة السماوية الجديدة

فانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً في جميع بلدان المغرب الكبير من الحدود المصرية إلى المحيط الأطلسي . وكان إدريس الأول المنحدر من سبط الرسول (ص) نجل الإمام علي بن أبي طالب[1] أول من وضع الأسس والمداميك لاستقلال المغرب بانفصاله عن الدولة العباسية سنة ١٧٢ للهجرة بعد أن قَدُمَ إليه وحيداً حاملاً إليه الإسلام الحق كما أخذه عن جدّه الرسول وأبيه الإمام ، بعيداً عن التحريف والتشويه منزّهاً عن الأهواء والغايات والمطامع ، متمثلاً بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلّكم تفلحون** ﴾[2] .

لهذا رأيناه قد سلك في نشره وتعليمه أرقى السُّبُل وأقومها وأكثرها ديموقراطيّة ، سبيل المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة ومقارعة الحجّة بالحجّة ، فما دام الهدف حقاً طاهراً مقدساً فالوسيلة الموصلة إليه يجب أن تكون طاهرة مقدسة ولهذا رأينا أيضاً أن الحكم كان عنده وسيلة لا غاية . ففتح البلاد ونشر الإسلام فيها ، ولم يكن في حكمه مذهبياً متعصباً ولا متزمّتاً متقوقعاً مما دفع إسحاق بن عبد الحميد الأوربي زعيم قبيلة أوربة وأمير قومه[3] يومذاك لأن يقول : « الحمد لله الذي أتى به وشرّفنا بجواره فهو سيدنا ونحن عبيد نموت بين يديه . وأقبل عليه هو وقومه وسائر قبائل البربر من أوربة إلى زناته إلى صنهاجة ومكناسة وغمارة وغيرها . فأطاعوه

---

(١) هو تحديداً إدريس بن عبد بن الحسن بن الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب كما عرّف نفسه في الفقرة التاسعة من خطبته إلى الشعب المغربي يوم قدومه عليه وكان قد فر من موقعة فخ قرب مكة بعد فشلها والتجأ إلى هناك فأسس دولة الأدارسة العلوية التي لا يزال أبناؤها يتوارثون الملك حتى اليوم.
راجع كتابنا «دولة التشيّع في بلاد المغرب ص ٩٩ و ١٠٩».

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٣) يقول السيد محمد علي دبُّوز في كتابه تاريخ المغرب الكبير ص ٤٨١ : أن إسحق بن عبد الحميد هذا كان من الخوارج الواصلية . .

وعظموه وقدموه على أنفسهم وأقاموا معه مغتبطين بطاعته ومتشرّفين بخدمته طول حياته[1] .

وكانت قبائل صنهاجة في جنوب المغرب من أشد القبائل البربرية الكنعانية تمسّكاً بالدين الإسلامي الحنيف واعتناقاً له .

فقد ذادت عنه وحمته ودافعت عنه وظلّت متمسكة به على مرّ العصور والأزمان ، وما زادتها الشدائد وتقلبات الحكام إلا تشبّثاً وانعطافاً نحو أئمته الصادقين وسلاطينه الأتقياء الورعين لدرجة أن رجال هذه القبيلة أصبحوا فيما بعد الفاتحين العرب الأوائل ، يحملون العقيدة الإسلامية ويبشرون بها في الأندلس وفي افريقيا الغربية وافريقيا الوسطى وغير ذلك من البلاد وقد جمعوا بين فضيلتي الجهاد ونشر الإسلام في مهمة واحدة .

والدين الإسلامي ما دخل السنغال وكل السودان القديم وما صار يدعى اليوم بمالي والنيجر وغانة وغينيا وتشاد وغيرها إلا بواسطة قبائل صنهاجة وفي مقدمتها قبيلة لمتونة العظيمة ثم قبيلة مصمودة فأي عمل أعظم مما عملوا وأي جهد يزيد عمّا بذلوا . فهم دعاة الإسلام وحماته ورباطه وسيوفه الصارمة المسلولة منذ أن اعتنقوا الإسلام وإلى يومنا هذا ، وما عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر اللمثوني وأخوه أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وأبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور وغيرهم إلا رموز خالدة أبد الدهر ، ولآلىء تتوج جبين التاريخ العربي والإسلامي على السواء . هؤلاء الرجال العظام الذين أصبح المغرب في عهدهم امبراطورية كبيرة وواسعة مترامية الأطراف بعد أن مدّوا حدود الدولة المغربية إلى نهري النيجر والسنغال وإلى غانة ومالي وغيرها

---

(١) راجع البيان المغرب لابن عذاري المراكشي، ص ١/ ٨٣ وكل كتب التاريخ الأخرى.

من البلاد .

ولو قيض للمغرب أن يحتفظ بحضارته الزاهرة التي جعلت منه وطناً للإشعاع في القرون الوسطى المظلمة بما كان سيرافق تلك الحضارة من تفجير للمواهب وتدفق لينابيع الخلق والإبداع والابتكار والتطوير للعلوم والفنون لتحول مجرى التاريخ ، ولتغيرت سيرته ، ولكان المغاربة والعرب من ورائهم في بلاد المشرق قد أصبحوا في المكانة العظمى التي يتمتع بها الغربيون في هذا العصر .

ولو سأل سائل عن تاريخ الجهاد المغربي لتحيّر كيف يجيب ومن أين يبدأ لأنه لا يعرف ذلك الجهاد العنيد المستمر الذي يمتد من قبل معركة « زاما »[1] إلى ثورة التحرير المغربية العارمة والمظفّرة التي تقرر بها عودة المغفور له الملك محمد الخامس من منفاه وتقرّر معها بالتالي استقلال المغرب وتحريره من الحماية الفرنسيَّة إلى المسيرة الخضراء[2] التي قادها الملك الحسن الثاني والتي اجتاحت الحدود واخترقت الصحراء . أي حوالي ٢٥ قرناً من الكفاح المستمر وهي أطول ثورة في تاريخ الثورات في العالم .

إذن فتاريخ المغرب هو تاريخ النضال الطويل من أجل الاستقلال والحرية . وهو تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية وتاريخ العرب والحضارة العربية وهو إلى ذلك تاريخ الإنسان والإنسانية بالمعنى الأوسع والأشمل لأن معظم الشعوب القديمة منها والحديثة منذ أيام الرومان

---

(١) زاما: هي المعركة التي خسر فيها هنيبال القرطاجي أمام جيوش روما وتقع بالقرب من تونس اليوم.

(٢) المسيرة الخضراء: حصلت من ٦ إلى ٩/١١/٧٥، وقد قادها الملك الحسن الثاني لاسترداد الصحراء المغربية وقد اشترك فيها أكثر من ٣٥٠٠٠٠ مغربي.

واليونان والبيزنطيين والقوط والصقليين والأتراك والإسبان والبرتغاليين والفرنسيين والأميركان إلى آخر السلسلة .

كل هؤلاء طمعوا في أرضه وحاولوا استعمارها والتسلّط عليها ونهب خيراتها وثرواتها وكان من الطبيعي أن يهب المغاربة لدفع الظلم والدفاع عن الأرض ورفع الحيف عنهم لهذا كان تاريخهم تاريخ النضال المستمر والتضحية المتجددة . ونحن عندما نقدم على نشر هذه الصفحات البطولية العملاقة التي سطرها المغاربة الأبرار في تاريخ الإنسانية وتعريف الناس بها نكون قد قمنا بإسهام متواضع جداً في تقديم الشكر الجميل لهذا البلد الطيّب المعطاء الذي أعطى وما زال يعطي في الوقت الذي تخلف فيه كثيرون عن العطاء .

وإن المؤرخ لتستبد به العصبيّة أحياناً عندما يرى أن نسبة مئوية مرتفعة من أبناء العروبة وقعوا ضحايا التاريخ المزور والمزيّف وأنهم لا يعلمون بأن الصحراء التي يسميها البعض « الصحراء الإسبانية » أو « الصحراء الغربية » أو « صحراء البوليساريو » هي صحراء مغربية صرفة وأن موريتانيا نفسها هي أرض مغربية أيضاً مثل مراكش وفاس ومكناس وطنجة وتطوان .

أليس هذا جهلاً فاضحاً من شعوب لا تزال تتخبط بما يقدم لها أو يُملى عليها من النظريات والإيديولوجيات الباطلة والعلوم المزيّفة والتواريخ المشوّهة والمحورة والسياسيات الاستعمارية المبطنة ؟ . .

لهذا قمت بوضع هذا الكتاب عن تاريخ المغرب من عصور ما قبل التاريخ إلى حدود العام ١٩٦١ أي حتى تاريخ تسلّم الملك الحسن الثاني مقاليد الحكم بعد وفاة والده المغفور له الملك محمد الخامس . ولا أدّعي بأنني اخترعت هذا التاريخ أو ألّفته من الذاكرة فهذه أمور ليست بمقدور أحد

من البشر أن يقوم بها حتى ولا بإمكان العقول الآلية الإلكترونية التي تبث فيها المعلومات .

لقد كان تاريخ المغرب كتاريخ البلدان العربية الأخرى مبعثراً في دروب التاريخ وأزقته المعتمة ، وزواياه المهجورة في مئات من المجلدات والكتب التاريخية العربية وغير العربية والمترجمة . وكان عملي منحصراً في التقاط اللآلىء من بُسُط المؤرخين والمؤلفين وجمعها وترتيبها وتنفيذها وصوغها على مثال مستقيم لتكون عقداً فريداً وكتاباً لم يسبقني إليه الأوائل وسيكون نبراساً للأواخر ومفتاحاً لكل أبواب تاريخ المغرب العريق بأمجاده والعريق بإيمانه بوطنيته وبعقيدته الإسلامية والعريق أيضاً بعروبته وكنعانيته .

وحسب الناس أن يعرفوا أن أمّ الخليفة العباسي الثاني ، أبي جعفر المنصور كانت بربرية كنعانية وهذا يعني أنها الجدّة العليا لكل خلفاء بني العباس ومنهم المهدي وهارون الرشيد والمأمون[1] . وأن أمّ عبد الرحمن الداخل الأموي حفيد هشام بن عبد الملك بن مروان ومؤسس الدولة الأموية في الأندلس وباني أمجادها هي أيضاً بربرية كنعانية وهذا يعني أيضاً أنها الجدّة العليا لكل خلفاء بني أمية في الأندلس[2] . وسيكتشف القرّاء الكرام

---

(١) يقال أن اسمها كان سلامة ويقال أنها كانت نفزيّة أو صنهاجية . ويقال أيضاً أنها لمّا حملت بالمنصور رأت في نومها أنها ولدت أسداً أقعى وزأر وضرب بذنبه فأقبلت إليه الأسود من كل ناحية فكلما انتهى إليه أسد منها سجد له .
(راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي ص ٢٠ ومروج الذهب ص ٣/ ٢٩٥) .

(٢) يقال أن اسمها راح أو رواح وأنها كانت من سبي المغرب من قبيلة نفزاوة البربرية .
راجع البيان المغرب، ص ٢/ ٤٧ لابن عذاري المراكشي .
وكانوا يقولون: ملك الدنيا ابنا بربريتين يعنون (المنصور وعبد الرحمن الداخل) .
راجع فوات الوفيات ٢/ ٢٩٧ .

أن الكثيرات من الأمّهات البربريات الكنعانيات كنّ يلقبن بأمهات الملوك الشرفاء ابتداء من أسرة الأدارسة إلى الأسرة العلوية الملكية القائمة حالياً . أما أمّهات الخلفاء العباسيين فكان معظمهنّ فارسيات وتركيات ومن الجواري التي اشترين من أسواق النخاسة .

إن اندماج العنصرين الزكيين العربي والبربري الكنعاني وانصهارهما في بوتقة القومية الوطنية المغربية نتج عنه عنصر عربي كنعاني مصفّى ومطهّر من العناصر التركية والمغولية والسلجوقية والشركسيّة والعثمانية والكردية والصليبية الجامعة لسبع دول أوروبية حاربت جميعها في لبنان وسوريا وفلسطين ومصر باسم الحروب الصليبية .

فإلى إخوتي وأحبائي أبناء المغرب العربي الكبير وإلى كافة المسلمين والعرب في مختلف ديار العروبة وأمصارها وعلى طول امتدادها أقدم هذه الموسوعة راجياً أن يجدوا فيهاما أردته لهم من فائدة في المضمون وصدق في الأداء وجرأة في إظهار الحقائق والله الموفّق والمسدد .

وقد قسمت هذه الموسوعة إلى خمسة أجزاء راعيت في سَرْدِها الوضوح والشُّمول وفي تقسيمها وحدة الموضوع والحقبة التاريخية التي جرى فيها فكانت كما يلي :

ـ الجزء الأول ويبدأ بعرض جيولوجي لتكوين الأرض وذكر الأزمنة الجيولوجية والعصور التي مرّت عليها وبروز الشمال الأفريقي ونشوء الحياة فيه . ثم يتناول العرض التاريخي بدءاً من تاريخ الكنعانيين والحضارة الغسولية وقدومهم إلى الشمال الأفريقي وشبه الجزيرة الإيبيرية ومعظم مناطق أوروبة المعروفة وبنائهم المستعمرات فيها وقدوم أنسبائهم الفينيقيين وعظمة قرطاجة وحروبها مع رومة ويتابع الجزء الأول سرده للأحداث

فيعرض للتوسع الروماني حتى يصل إلى الفاندال في شبه جزيرة إيبيريه وتغلب البيزنطيين عليهم .

ـ الجزء الثاني ويعرض للفتح العربي للشمال الإفريقي وحكم الولاة فيه وفتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير ثم يعرض لعهد الأدارسة والأغالبة وقيام دولة الشيعة في المغرب[1] ثم ينتقل إلى حكم الطوائف في الأندلس والحضارة العربية التي قامت فيها وانتقالها الى أوروبة ودخول المرابطين إلى الأندلس ومعركة الزلاقة والعقاب وينتهي مع نهاية عهد الموحدين وقيام عهد الدويلات في المغرب .

ـ الجزء الثالث من هذه الموسوعة يبدأ بالحروب الصليبية في المشرق ورد الفعل الإسلامي عليها بإطلاق دعوات الجهاد لدفع الغزو الصليبي والدفاع عن المقدسات ونشوء الدولة الأيوبية ومعركة حطّين وتحرير القدس، ثم يعرض لعهد المرينيين والحفصيين والوطاسيين والسعديين وسقوط القسطنطينية ثم يتكلم عن مظاهر الفكر الأندلسي في الأدب وتاريخه والشعر وفنونه والطب والفلسفة والتصوُّف وحركة البناء والعمران وغير ذلك من الفنون حتى يصل الى سقوط دولة الأندلس الكبرى مع كل ما رافق ذلك من أحداث .

ـ الجزء الرابع من هذه الموسوعة يبدأ بمقدمتين عن وضع المغرب أثر محاولات العثمانيين الفاشلة في ضمّه وإلحاقه بالإمبراطورية العثمانية وبدء حكم الدولة العلوية له حتى ظهور محمد الخامس وقيادته للشعب المغربي حتى التحرير . كذلك يعرض هذا الجزء لمساحة المغرب وسكانه وطرق القبائل والقوافل القديمة ثم يتناول أسرة الشرفاء العلوية ويتكلم عن سلاطينها ومعاهدات الحماية وعن الثورة الجزائرية العملاقة التي قادها

(١) راجع كتابنا «دولة التشيع في بلاد المغرب دار الأمير بيروت.

الزعيم عبد القادر الجزائري وتكالب الغرب عليه وعن التدخل الفرنسي والإسباني السافر والثورات المغربية المتلاحقة في الأطلس الأوسط وزيان ووادي ورغة ووزان وجبال الريف وثورة المناضل البطل الأمير عبد الكريم الخطابي ويعرض كذلك للطرق الصوفية وظهور الحركة الاستقلالية .

ـ الجزء الخامس والأخير من هذه الموسوعة يتناول عهدين كبيرين دخل فيهما المغرب في طور الاستقلال والحرية والأمن والاستقرار والازدهار والتطور .

عهد الملك الراحل محمد الخامس :

يبدأ هذا الجزء من الموسوعة منذ تاريخ وفاة السلطان يوسف بن الحسن الأول والد الملك محمد الخامس سنة ١٩٢٧ مع نبذة عن حياته في طفولته الأولى ولمحة عن الوضع الدولي آنذاك قبل تسلّمه الملك وكيف تم اختياره بالإجماع من قبل الوزراء وعلماء جامعة القرويين وقضاة الشرع والأشراف من الأسرة العلوية المالكة وإضفاء الشرعية عليه .

ثم يتناول هذا الجزء مطامع الغرب في أرضه ودفاعه المستميت عنها ، ويتناول كذلك :

الظهير البربري ـ عهد الماريشال ليوتي ـ نزول الحلفاء في المغرب ـ مجزرة الدار البيضاء ـ عهد الجنرال جوان الأسود وتفاقم الأزمة بين الملك وهذا الجنرال ـ ومؤامرة الجلاوي والكتاني ومؤامرة خلع الملك وثورة الشعب المغربي بسببها ثم عودته من منفاه ـ ثم اختطاف زعماء الجزائر الخمسة والمصادمات بين الأحزاب المغربية وقضية طنجة حتى يصل إلى تشكيل الحكومة المغربية الخامسة ووفاة الملك محمد الخامس .

وينتهي هذا الجزء بالكلام على بدايات **عهد الملك الحسن الثاني**

وتسلّمه العرش بعد وفاة أبيه[1] .

وقد ذيّلته بملاحق تاريخية خاصة ووثائق نادرة بلغ عددها سبعاً وعشرين ملحقاً وقد تضمّنت ما يلي :

ـ الاتفاق الفرنسي ـ الإنكليزي والتصريحات الخاصة بمصر والمغرب عام ١٩٠٤ والمواد السريّة التي أُضيفت إليه .

ـ الاتفاق الفرنسي ـ الإسباني المعلن في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٠٤ والمواد السريّة التي أُضيفت إليه .

ـ إتفاقية الجزيرة الخضراء الموقعة بتاريخ ٧ نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٦ في أهم بنودها .

ـ معاهدة الحماية الفرنسية في المملكة الشريفيّة الموقع عليها في فاس في ٣٠ آذار (مارس) ١٩١٢ .

ـ قرار الأمم المتحدة المتعلق بالمغرب الصادر بتاريخ ١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٢ .

ـ قرار الأمم المتحدة المتعلق بالمغرب الصادر بتاريخ ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢ .

ـ بيان سيل ـ سان ـ كلود المشترك المعلن بتاريخ ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة١٩٥٥ .

ـ نداء سان ـ جرمان ـ أن لي المعلن بتاريخ ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٥ .

---

(١) لقد شاهدت بأم العين إذ كنت هناك بهذه المناسبة فرحة الشعب المغربي في مختلف مدنه وقراه وكان أروعها ما أقيم في المشور السعيد في الرباط .

ـ أول خطاب للملك محمد الخامس بعد عودته من فرنسا بتاريخ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٥ .

ـ خطاب العرش الذي ألقي بالرباط بتاريخ ١٨ تشرين بتاريخ ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٥ .

ـ النص التاريخي المشترك بإعلان استقلال المغرب بتاريخ ٢ آذار (مارس) سنة ١٩٥٦ والبروتوكول المرفق.

ـ الخطاب الذي ألقي بالرباط بمناسبة استقلال المغرب في ٧ آذار (مارس) ١٩٥٦ .

ـ التصريح المشترك المغربي ـ الاسباني الذي ألقي بتاريخ ٧ نيسان (ابريل) سنة ١٩٥٦ والبروتوكول الاضافي المرفق.

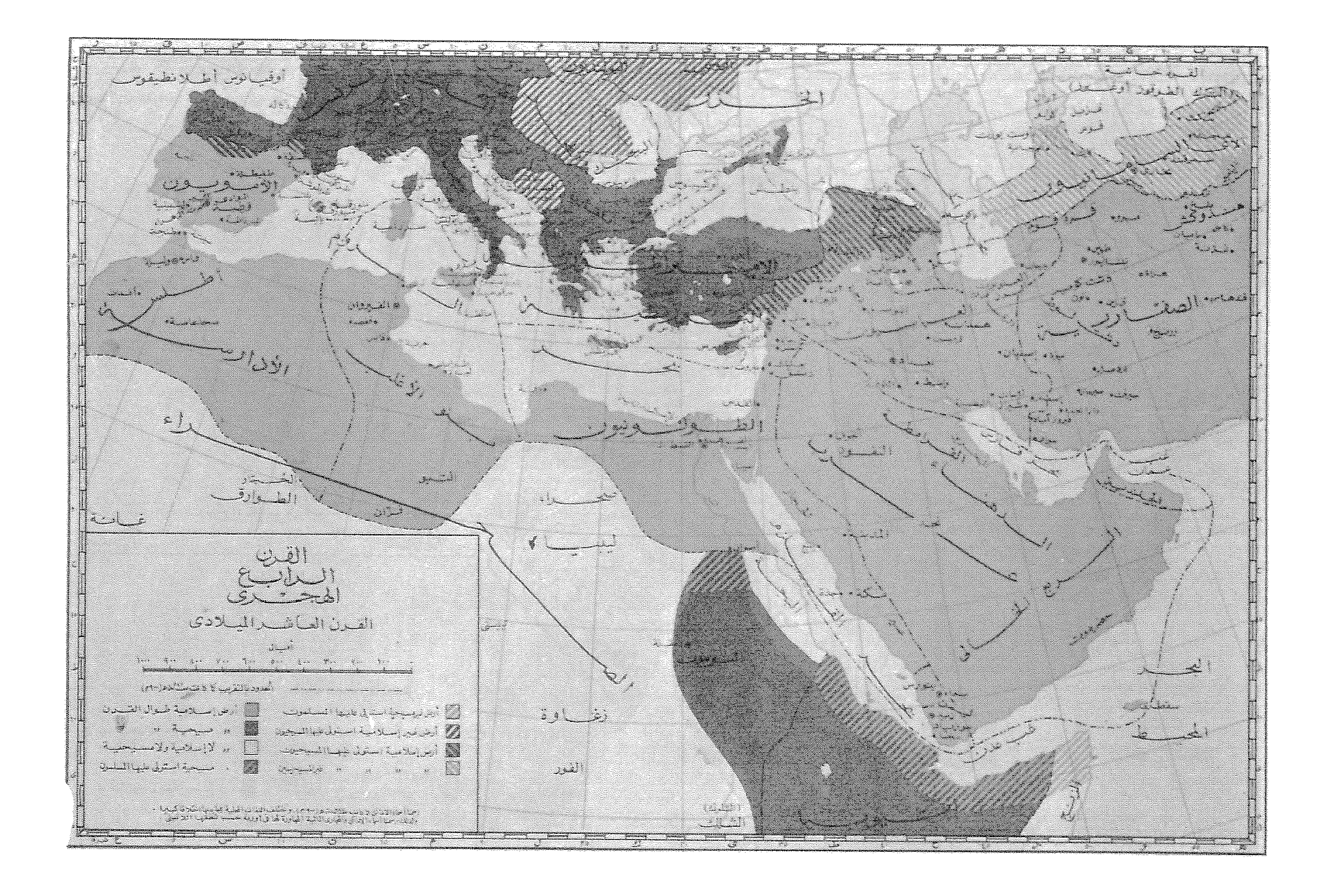
ـ نص الاتفاق على التمثيل الدبلوماسي المغربي ـ الفرنسي المعقود بتاريخ ٢٨ أيار (مايو) ١٩٥٦ .

ـ الخطاب الذي ألقي يوم ذكرى عيد ثورة الملك والشعب بتاريخ ٢٠ آب (غشت) سنة ١٩٥٦ وغير ذلك من الوثائق والتصريحات التاريخية النادرة.

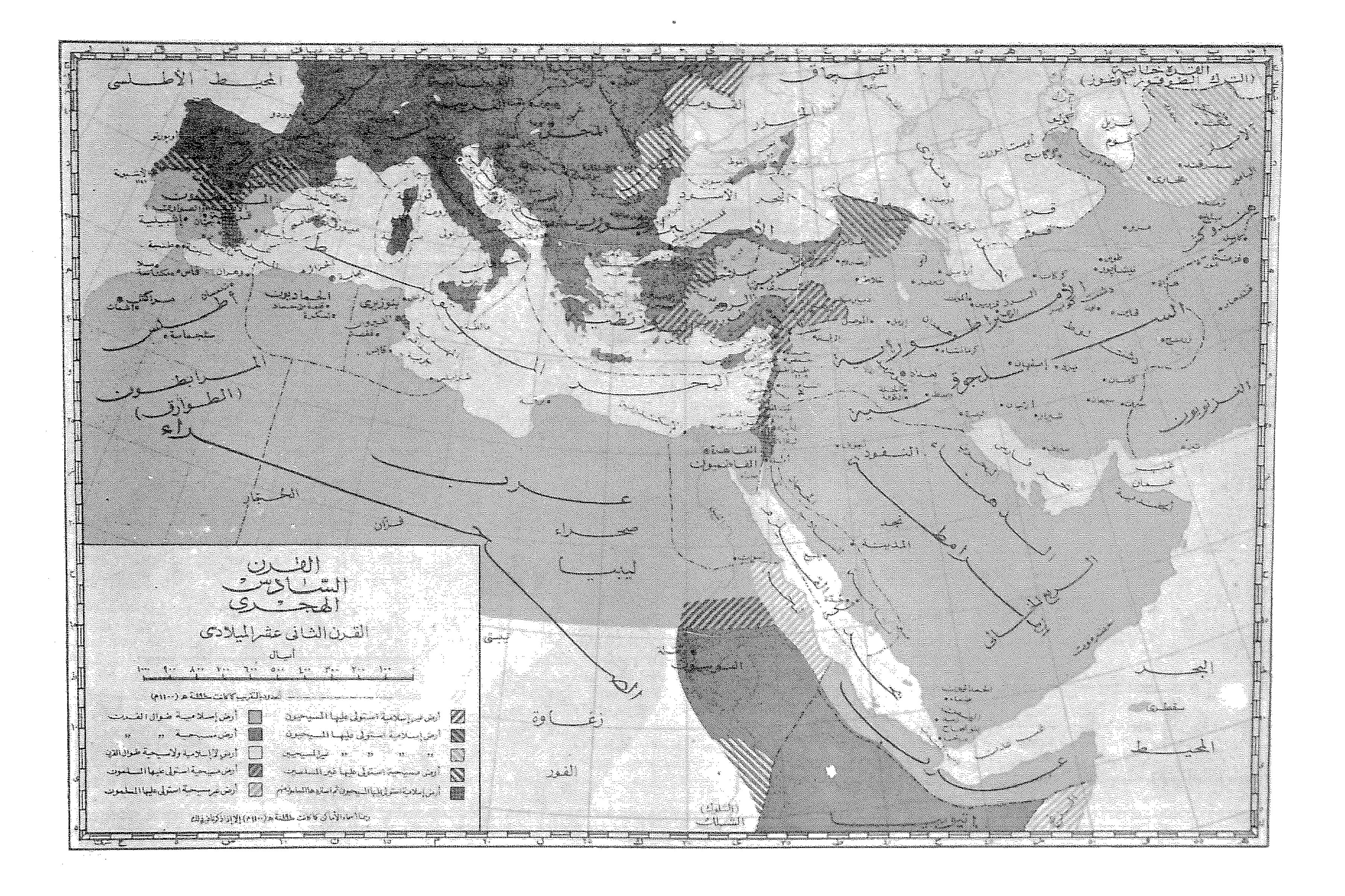
وإني أخيراً أتقدم بخالص شكري وامتناني إلى فارس الكلمة ورجل الأدب والسياسة الاستاذ احمد بن سودة مستشار صاحب الجلالة الحسن الثاني ملك المغرب على تفضُّله بكتابة مقدمة هذه الموسوعة التي زادتها رونقاً واشراقاً. والى جميع الاخوة المغاربة العاملين في سفارة المملكة المغربية في بيروت الذين قدموا لي كل ما احتاج اليه من وثائق ومصادر ونشرات والى كل من مدَّ لي يد العون والمساعدة عند كتابة هذه الموسوعة

سواء في ذلك من أمدُّوني بالمصادر أو سهَّلوا لي سبيل الحصول عليها؛ أو أولئك الذين قاموا بإسداء بعض الملاحظات والمعلومات القيِّمة؛ أو من قرأت لهم أو استقيت منهم. وإني لشاكر لهم ومعترف بفضلهم وأخصّهم بالذكر السيد صبحي سعيد في موضوع فتح القسطنطينية والسيد محمد عبدالله عنان في موضوع سقوط الأندلس حيث كانت مراجعهما مفيدة جداً. فلجميع من ذكرت أكرر شكري وامتناني والله تعالى الموفق وهو يهدي سواء السبيل.

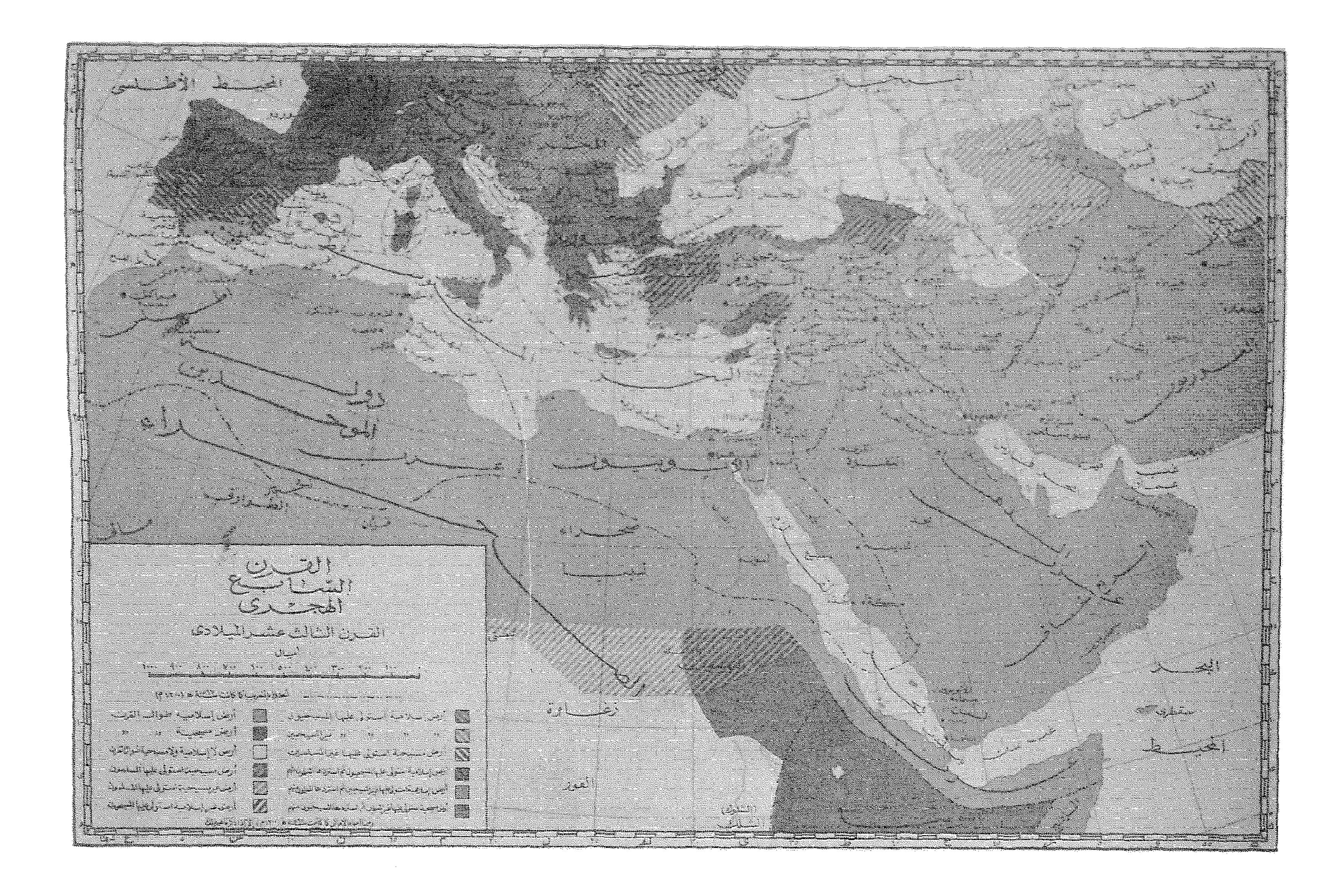
نجيب زبيب
في ١٩٩٤/٥/٢٥
بيروت ـ لبنان

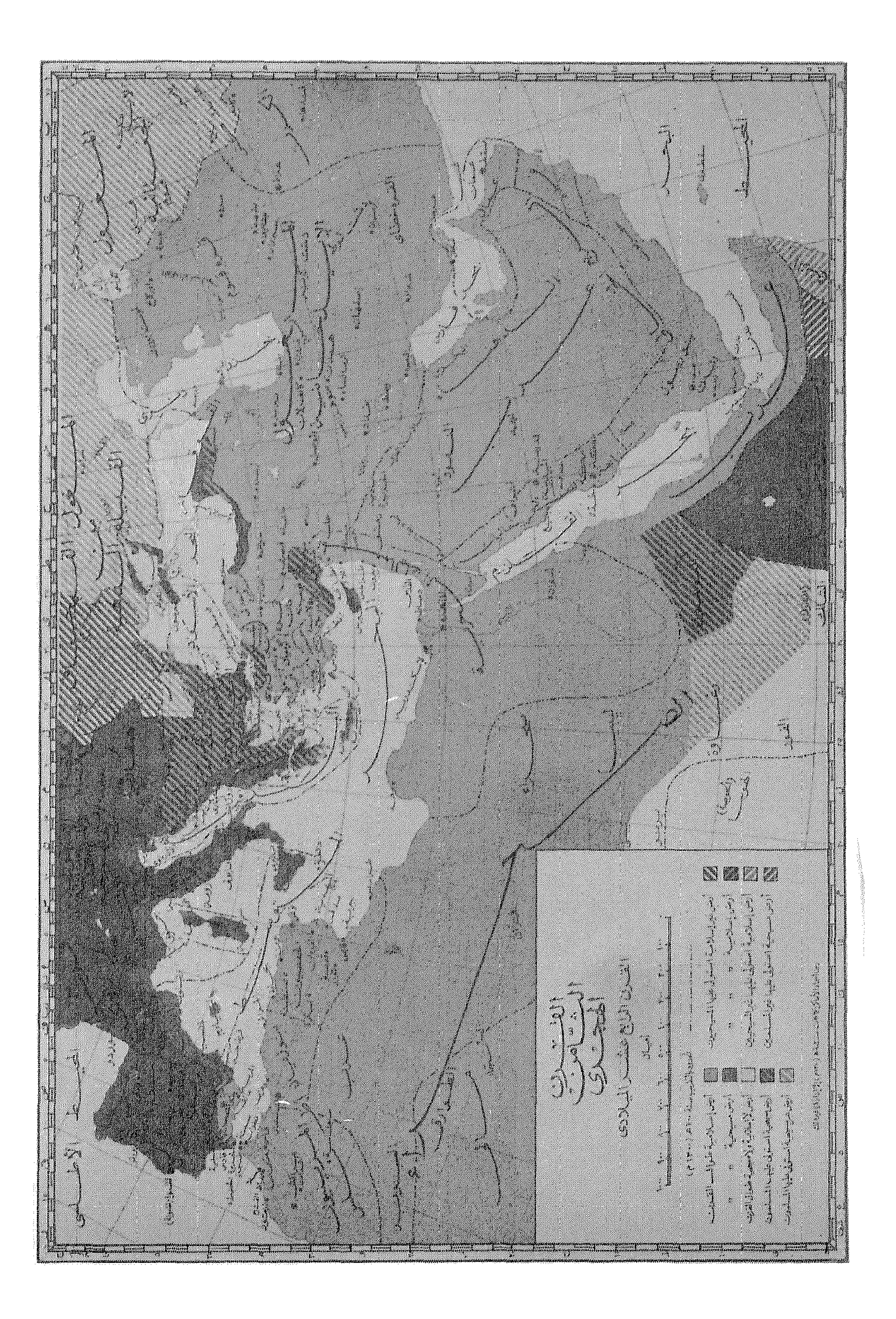


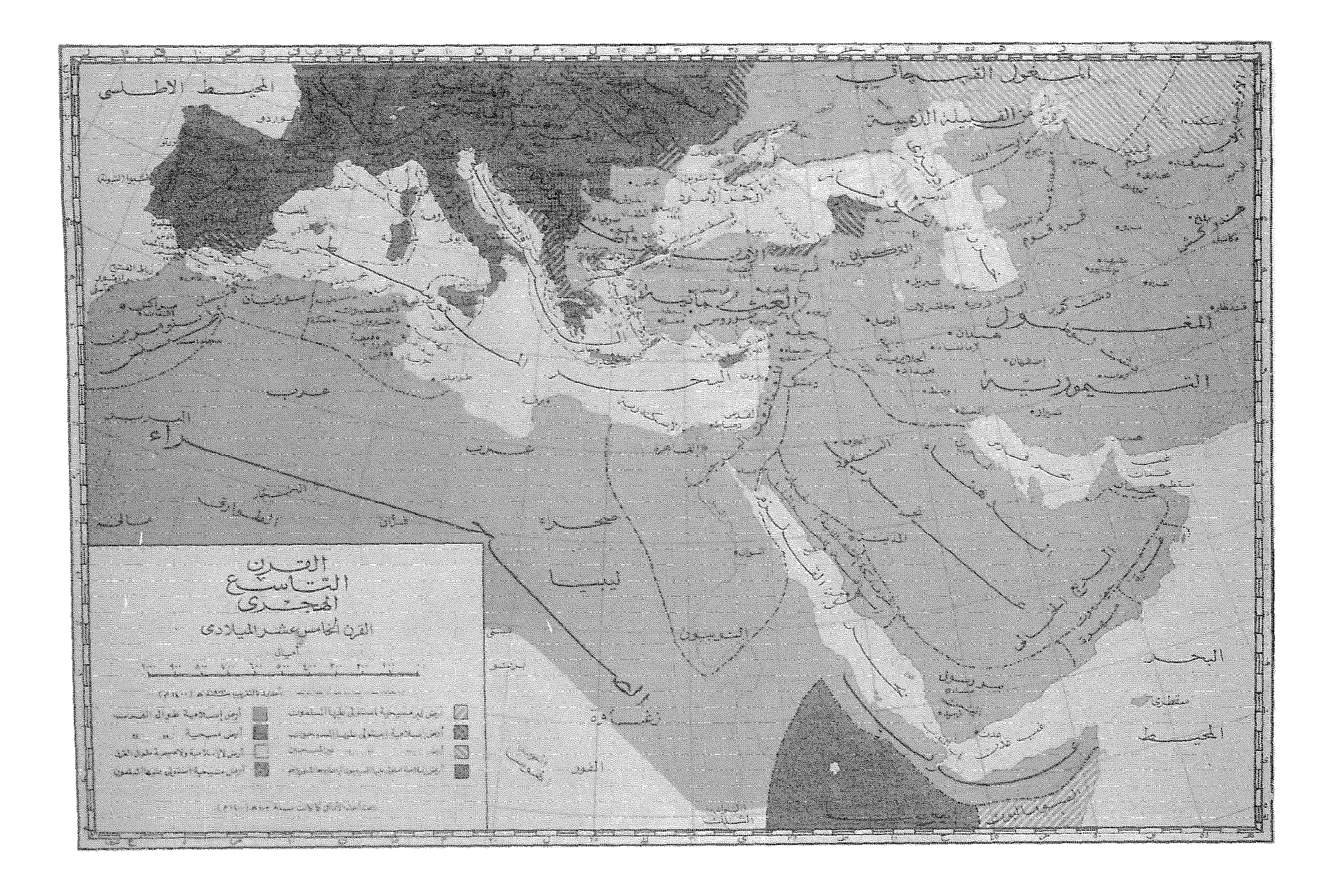
القرن
الرابع
الهجرى
القرن العاشر الميلادى
أوقيانوس أطلانطيقوس
الأمويون
أطلس
الأدارسة
الطوارق
غانة
صحراء
ليبيا
زغاوة
القور
الطولونيون
الصفارية
المحيط



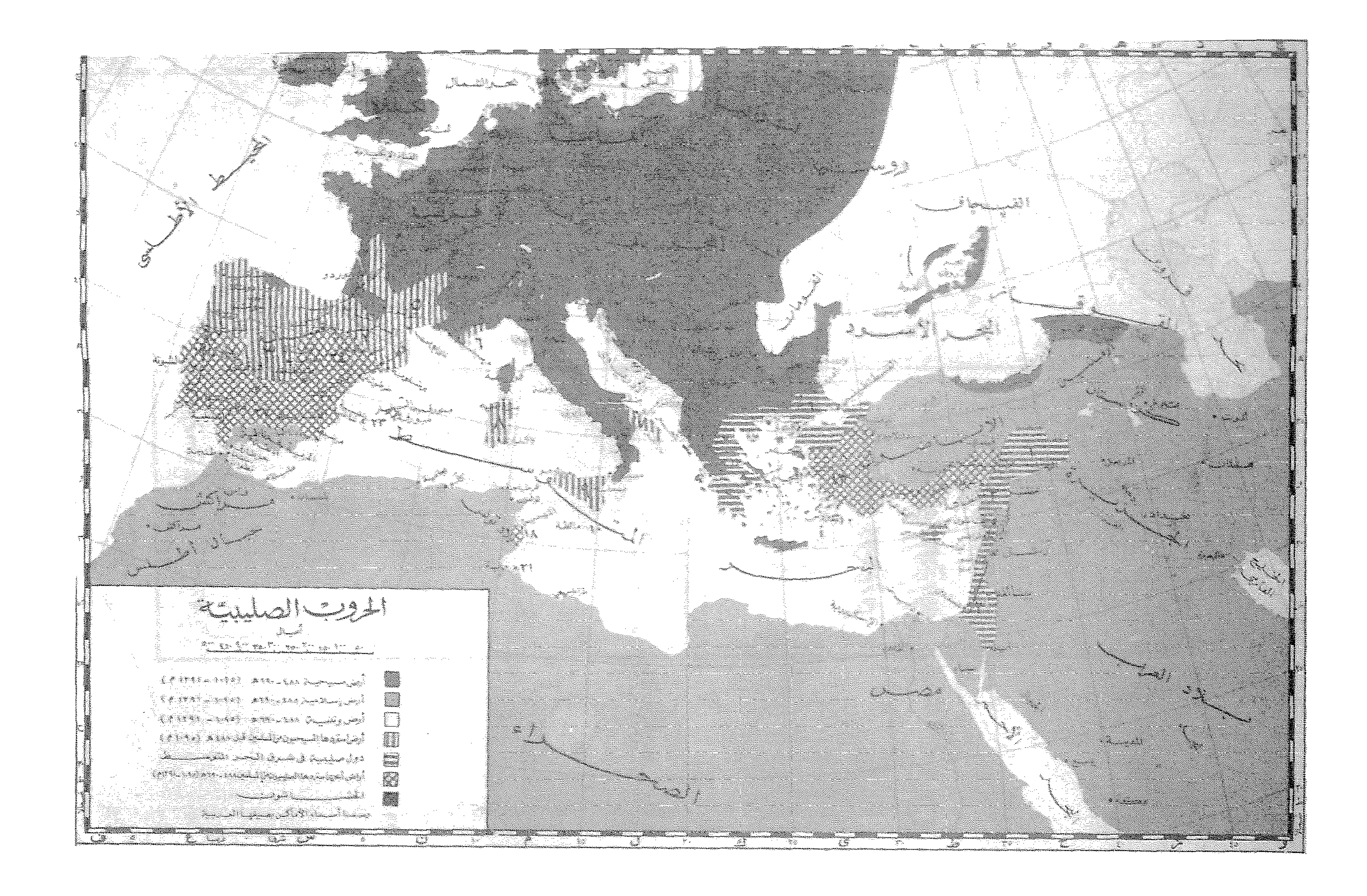
القرن
السادس
الهجرى
القرن الثانى عشر الميلادى
أميال
أرض إسلامية طوال القرن
أرض مسيحية « «
أرض لا إسلامية ولا مسيحية طوال القرن
أرض مسيحية استولى عليها المسلمون
أرض غير مسيحية استولى عليها المسلمون
أرض غير إسلامية استولى عليها المسيحيون
أرض إسلامية استولى عليها المسيحيون
المحيط الأطلسى
القبجاق
المرابطون
(الطوارق)
صحراء
ليبيا
المدينة
نجد
زغاوة
الفور
البحر
المحيط


المحيط الأطلنطي
القرن
السابع
الهجرى
القرن الثالث عشر الميلادى




القرن
التاسع
الهجرى
القرن الخامس عشر الميلادى
المحيط الاطلسى
العثمانية
المغول
التيمورية
ليبيا
البحر
المحيط
سقطرى





الحروب الصليبية
المحيط الأطلسي
البحر الأسود
القبجاق
مصر
الصحراء


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
صفحات مصورة
من حياة المؤلف
في المغرب



المؤلف في الزي المغربي

المؤلف بين السفير الاسباني والملحق الثقافي في دار القنصلية الاسبانية في مدينة تطوان في جمع من الاستاتذة العرب والاسبان.

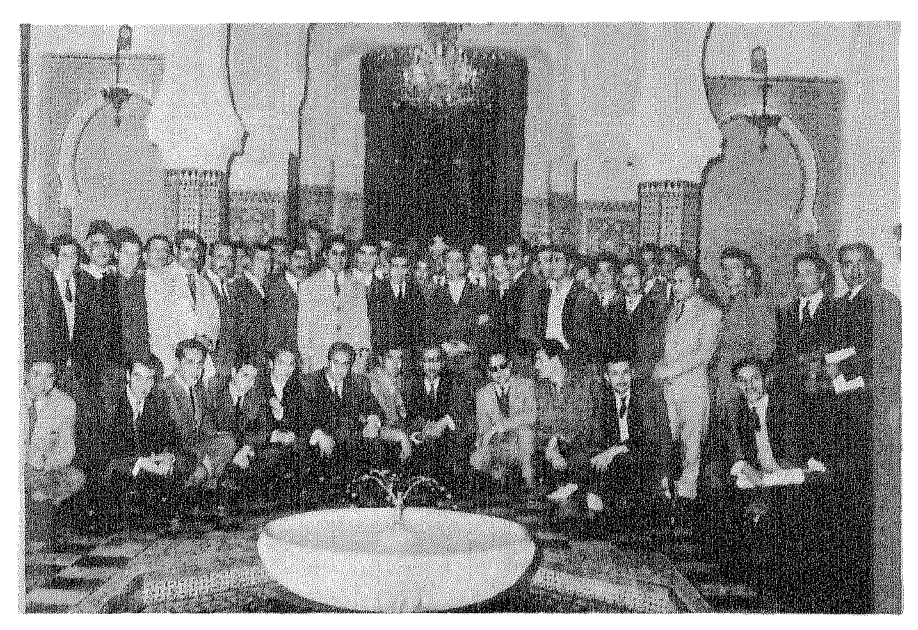


المؤلف مع بعض رجال الفكر
والسياسة في المغرب
لدى خروجه من احدى
المحاضرات

مؤلف الموسوعة
في قصر المحافظة
في مدينة تطوان



المؤلف مع الأستاذ الكبير السيد أحمد بن سودة بعد محاضرة له في تطوان.



المؤلف بين بعض رجال الفكر في المغرب وقد ظهر أمامه الاستاذ عبد الرحيم بوعبيد كما ظهر الدكتور محمد المجذوب الى أقصى اليمين في الصورة

الفصل الأول

التطور الجيولوجي للأرض

لقد أثبت العلماء أن عمر الأرض يساوي نصف عمر الشمس تقريباً أي حوالي البليونين وربع البليون من السنين أو ما يزيد على ذلك[1] . مرّت خلالها بأزمنة جيولوجية مختلفة تعرضت فيها لتغيرات بالغة حتى وصلت إلى شكلها الحاضر .

ينقسم الزمن الجيولوجي كما هو معروف إلى خمسة أزمنة عظمى بقطع النظر عن الزمن الذي بدأت تتكون فيه الأرض . كما يقسم الزمن إلى عصور والعصور إلى أدوار واتّبعت في ذلك طرق التحديد الذريّة التي تعتمد على تحديد الزمن الذي تتحول فيه مادة معينة إلى مادة أخرى كما يتحول الأورانيوم مثلاً إلى رصاصٍ والهيليوم والبوتاس إلى أرغون .

(١) CARL SAGAN- COSMOS P11.

والأزمنة الجيولوجية العظمى هي :

١ ـ زمن الحياة البدائية .
٢ ـ زمن الحياة الأولية .
٣ ـ زمن الحياة القديمة .
٤ ـ زمن الحياة الوسطى .
٥ ـ زمن الحياة الحديثة .

وقد دلّت المشاهدات والأبحاث الكثيرة المتنوعة على أن كل حقبة تتميّز بمرحلة جديدة من مراحل تطوّر الحياة وبتغيّر جذري في تركيب القشرة الأرضية وبانقراض واسع النطاق لمعظم أصناف الحياة التي كانت تعيش خلاله .

وتتوالى الدورات الجيولوجية وتتعاقب خلال الزمن الجيولوجي الواحد وتتألف كل منها من سلسلة من الحركات والإلتواءات والتكسرات تأتي إثرها حقب واسعة من الانجراف والتحات والتعرية بسبب التآكل المستمر الناتج عن التفاعل الدائم بين العناصر الثلاثة المكوّنة للأرض وهي : العنصر الغازي أو الهوائي ATMOSPHERE والعنصر السائل أو المائي HYDROSPHERE والعنصر الصلب أو الصخري LITHOSPHERE .

هذا التآكل يساعد على تغيير أشكال الأرض ومعالمها الخارجية ويخلق على سطحها عدم التوازن الدائم .

الفصل الثاني

الأزمنة الجيولوجية

ثم تختتم تلك الحقبة بحقبة أخرى بانية للجبال . هذا ويقدر الزمن الذي انقضى منذ تكوّن أقدم الصخور المعروفة بما لا يقل عن ألف وخمسمائة مليون سنة .

الأزمنة الجيولوجية

أولاً : الزمن القديم PRECAMBRIEN :

وقد امتد هذا الزمن مسافة طويلة ، منذ بدء تكوين القشرة الأرضية زمن ولادتها وحتى حوالي ٦٥٠ مليون سنة ولا وجود للدفائن Fossiles فيه في الطبقات الصخرية والتي تعود لهذه الفترة من عمر الأرض . وهناك احتمال بأن الحياة لم تبدأ فعلياً إلا في أواخر هذا الزمن . يعزّز هذا الاحتمال ما اكتشف من دفائن تعود لبعض أنواع من الخلايا الحيّة والتي تدعى (

EDIACATIEN) في منطقة غرينفيل GREENVILLE وقد أثبتت بعد تحليلها أنها تعود إلى حوالي ۷۰۰ مليون سنة .

ثانياً : الزمن الجيولوجي الأول PRIMAIRE أو زمن الحياة الأولية وقد استمر كما يقدر العلماء حوالي ٥٠٠ مليون سنة وقد بدأ مع ظهور دفائن قابلة لتعيين هويتها وانتهى بظهور الجبال الهرسينيّة التي ينتشر قسم منها في غربي أوروبا وشرقي أميركا وشمالي إفريقيا[١] حيث برزت سلسلة جبال انتي أطلس القديمة التكوين والتي توجد في الجنوب الغربي للمملكة المغربية وأعلى قممها قمّة سيروروا ٣٣٠٤ م .

في هذا الزمن تجمّعت الرواسب في ألوهاد البحرية ثم تكوّنت سلاسل الجبال الهيرونيّة والكاليدونيّة والهرسينيّة وكانت هناك قارة ضخمة جنوبية هي الغوندوانا ومن بقاياها معظم أراضي إفريقيا وأميركا الجنوبية وأوستراليا ومدغشقر والجزيرة العربية والدكن الهندي وقارة القطب الجنوبي[٢] .

كما تكون بحر التتيس TETHYS الذي ظهرت فيه أشكال من الحياة الحيوانية على شكل أسماك وبعض أشكال من النبات على شكل طحالب وبعض النباتات في البر .

ثالثاً : الزمن الجيولوجي الثاني SECONDAIRE أو زمن الحياة القديمة استمرَّ هذا الزمن حوالي ١٦٠ مليون سنة وقد شهد تجمّعاً واسعاً للرواسب فارتفع قسم منها مشكلاً جبال الجورا في فرنسا وظهرت القارة السيبيرية وبلاد الصين كما شهد هذا الزمن تشققاً هائلاً في قارة غوندوانا الضخمة وذلك نتيجة للحركات الداخلية التي تعرض لها جوف الأرض

---

(١) راجع الموسوعة العربية الميسرة.

(٢) راجع كتاب التاريخ مركز البحوث والإنماء، ص ١/ ٤٢ بيروت ـ الكتاب الوطني.

وقشرتها تكون على أثره المحيط الهندي كما تكون المحيط الأطلسي الذي فصل إفريقيا عن أميركا وهذا ما سمّاه العلماء بزحف القارات الذي بنتيجته حصل هذا البعد بين القارات فيما بعد وأننا لنلاحظ بسهولة الشبه التام بين خليج غينيا في غربي إفريقيا ورأس سان روك في شرقي أميركا الجنوبية . وقد تميّز هذا الزمن بظهور الأصداف والزواحف البحرية والبرية والطيور وبعض الحيوانات الثديية الضخمة

رابعاً : الزمن الجيولوجي الثالث TERTIAIRE أو زمن الحياة الوسطى وقد دام هذا الزمن حوالي ٦٥ مليون سنة . وقد تميّز هذا الدور بعنف الحركات الداخلية التي أصابت الكرة الأرضية إذ حدثت فيها زلازل عنيفة وتفجرت فيها البراكين فأحدثت فيها تكسرات هائلة وصدوعاً عميقة سمّيت بالأخدود الإفريقيRIFT وقد ارتفعت فيها سلاسل جبلية إلتوائية حديثة التكوين هي جبال أطلس في الشمال الإفريقي والممتدة من تونس في الشرق إلى المغرب في الغرب وهي تتألف من سلسلتين متوازيتين تتّجهان من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي وهما :

ـ سلسلة شمالية مؤلفة من أطلس التل والريف وتمتد من طنجة إلى بنزرت وهي سلسلة متماسكة تتخللها بعض السهول .

ـ سلسلة جنوبية تتألف من جبال الأطلس الصحراوي والأطلس العليا وفيها قمة طوبقال ٤١٦٥ م .

كما تميز هذا الزمن بكثرة الرواسب وقد برزت فيه مكان بحر التيتس سلاسل جبال الألب وهمالايا والجبال الغربية في أميركا . كذلك فقد تشققت فيه إفريقيا الشرقية وانفصلت أوروبا عن أميركا الشمالية وظهرت جميع أنواع الحيوانات المجترة الحالية والأصداف وجميع أنواع النباتات

واختفت الزواحف الكبيرة .

خامساً : الزمن الجيولوجي الرابع Quaternaire أو زمن الحياة الحديثة وقد بدأ هذا الزمن الأخير منذ ١,٥ مليون سنة تقريباً وربما أكثر ولم ينته بعد ونتيجة للانصدامات التي حدثت في هذا الزمن وطغيان البحر على اليابسة تكوّنت بعض الخلجان الواسعة كخليج تونس وقابس وحمامات وعنّابة وسكيكدة . كما تكوّنت بعض الرؤوس والشطوط وفي هذا الزمن أخذت البحار والقارات نوعاً ما أشكالها الحالية وصار للمغرب وحدة مناخية متكاملة ذات تضاريس ألبية التكوين تشبه تضاريس أوروبا الجنوبية .

الموجات الجليدية

حدثت في هذا الزمن أربع موجات جليدية في النصف الشمالي من الكرة الأرضية حدّدت نوع النبات والحيوان كما حددت أمكنة تواجد الإنسان وطرق عيشه . وقد نشأت تلك الموجات الجليدية بسبب نقصان ثاني أوكسيد الكربون في الهواء[1] . وقد تخللتها فترات مطيرة حارّة وقد تميّز هذا الزمن بظهور الإنسان وتطوره خلاله في حياته وطرق عيشه وطبيعة تفكيره وصناعاته بعد أن تراجعت الموجات الجليدية وانحسرت وأصبح المناخ ملائماً لحياته .

---

(١) تحدد النظرية الجيولوجية القائمة الآن تاريخ عصر الجليد الأول بسنة ٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد والمرحلة الأولى التي توسطت عصرين جليديين بسنة تقع بين ٤٧٥٠٠٠ و ٤٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد. وعصر الجليد الثاني بسنة ٤٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد وامرحلة الثانية التي توسطت عصرين جليديين بسنة بين ٣٧٥,٠٠٠ و ١٧٥,٠٠٠ قبل الميلاد. والمرحلة الثالثة التي توسطت عصرين جليديين بسنة تقع ١٥٠,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ قبل الميلاد. ونحن الآن في مرحلة أعقبت عصراً جليدياً لم يحسب تاريخ نهايته حساباً دقيقاً. (قصة الحضارة، ص ١/ ١٥٦).

الفصل الثالث

ظهور الإنسان على الأرض

يتضح لنا ممّا تقدم أن ولادة الإنسان على هذه الأرض قد تأخّرت كثيراً فهي لم تبدأ قبل نهاية الربع الأول من الزمن الجيولوجي الرابع أي منذ حوالي المليون وربع المليون من السنين أو ما يزيد على ذلك بقليل وهذه الحياة الطويلة للإنسان على سطح هذه الكرة تقسم إلى حقبتين رئيسيتين يفصل بينهما عصر اختراع الكتابة في الألف الرابع قبل الميلاد .

- الحقبة الأولى وتشمل عصور ما قبل التاريخ .
- الحقبة الثانية وتشمل العصور التاريخية .

وإذا كان عمر الحقبة الثانية لا يساوي شيئاً إذا ما قيس بعمر الحقبة الأولى فإن ما حصل من تطور في حياة الإنسان في الحقبة الأولى لا يساوي شيئاً يذكر إذا ما قيس بالتطور المذهل والتقدم العجيب الذي حققه الإنسان

في الحقبة الثانية .

ففي مدى أقل من خمسة وخمسين قرناً فقط مضت على اختراع الكتابة تمكن الإنسان من أن يتَفَلَّت من قبضة جاذبية الأرض ويفك ارتباطه بها ويصعد عمودياً في أغوار الفضاء فحط على سطح القمر واستكشف كواكب النظام الشمسي كلها وهو الآن يضع رجله بثبات وجرأة على عتبة العوالم العليا الغارقة في البعد خلف نظامنا الشمسي الكبير[1] .

عصور ما قبل التاريخ

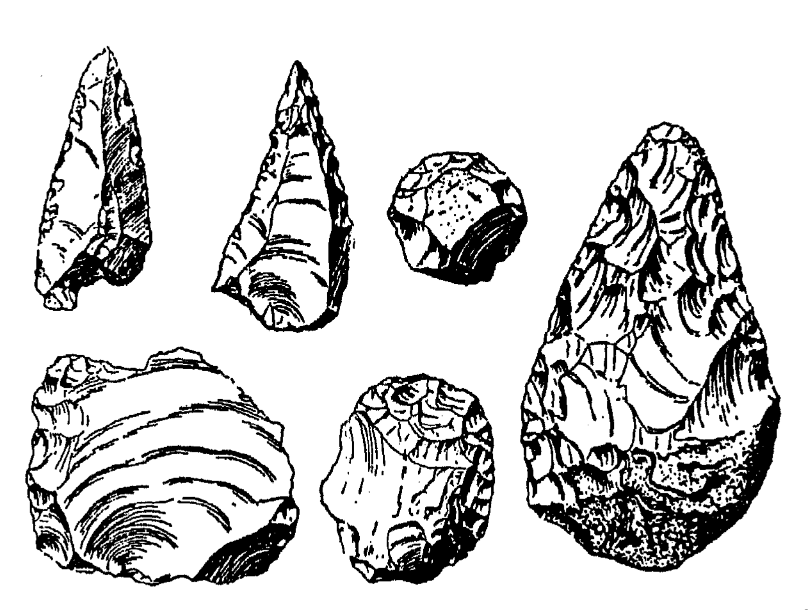
إنها العصور الممتدة خلف عصر الكتابة والضاربة في مجاهل الزمن حتى تصل إلى بداية الإنسان الأولى حيث كان يعيش ذلك الإنسان حياة غارقة في البدائية لم يخرج فيها من طور التوحّش إلا بعد أن هام في قفار الهمجية مئات الألوف من السنين. وكانت بلاده في ذلك الوقت غير بلاده اليوم. فغاباتها كانت وارفة الظلال حافلة بشتّى أنواع الحيوانات التي تشاهد أنسالها اليوم في الأصقاع الحارة من قارة أفريقيا والهند كالظباء وفرس النهر والكركدن والأفيال وقطعان الجواميس الكبيرة والخيول والطيور والبرمائيات وغيرها. إن حياته تلك ، لم يترك الإنسان فيها أثراً مكتوباً لذلك عمد إلى الحجر فأودعه كل إحساساته وشعوره وعاداته وفنّه ليحكي لنا فيه من خلال ذلك تاريخ وجوده . والحجر قاسٍ صلب يستعصي على التلف ويتمرّد على الفساد ولهذا فقد استمر إلى اليوم وسيستمر إلى ما شاء الله ولهذا السبب سمّيت تلك العصور بالعصور الحجرية وقد قسمها العلماء إلى ثلاثة .

- **العصر الحجري القديم أو العصر الإباليوليتي EPALEOLITIQUE** وقد امتد منذ ظهور الإنسان إلى نحو ٣٠ ألف سنة مضت وقد عاش الإنسان فيه في

---

(١)راجع كتابنا المحيط الكوني واسراره، منشورات دار الأمير ـ بيروت.

آسيا وأوروبا وأفريقيا متنقلاً في المغاور والكهوف وتطورت حياته وطرق معيشته ببطءٍ شديد وأصبح فيه قادراً على الوقوف على رجليه كما أنه أخذ يستعمل فيه يديه وكانت قامته قصيرة وتغيّر شكل جمجمته كما يستفاد من القواقع البشرية التي وجدت في نياندرتال بالقرب من دسلدورف بألمانيا وقد تعرّف إنسان ذلك الزمن على الصيد والقنص مستعيناً بالقرون والعظام والحجارة الصوانية غير المصقولة ، ومن الحيوانات المعروفة آنذاك الخنزير والوعل والغزال والبقر والكلاب كما أنه اكتشف النار فاستفاد منها كثيراً وعرف مع نهايته بعض أشكال الحياة الاجتماعية .



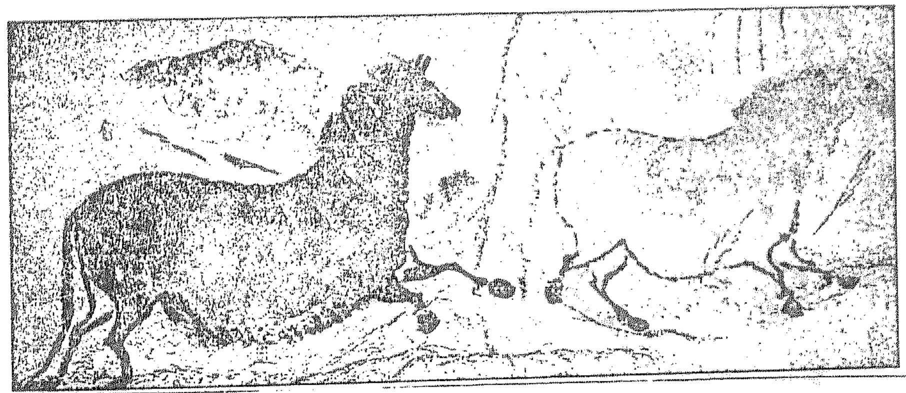
أشكال من الآلات الحجرية التي استعملها الإنسان القديم

٢ ـ العصر الحجري المتوسط أو الميزوليتي MESOLITHIQUE وقد امتد أكثر من ستّة آلاف سنة بدءاً من الألف الثاني عشر قبل الميلاد أخذ الإنسان في هذا العصر من الإكثار من موارد طعامه بتدجين الحيوانات وتربيتها فأصبح راعياً ينتقل من مكان لآخر وأخذ يُحسّن آلاته وأسلحته فاخترع المغارز والملاقط والفؤوس والمناجل والمناشير والإبر والدبابيس وصنع الطين أشكالاً لحفظ مأكولاته وزيت إنارته . كما صنع أشياء كثيرة من العاج والعظم والقرن وتقدمت مهاراته الفنّية برسوم التاميرا ALTAMIRA التي حفظتها المغاور والكهوف وقطع العظام والصخور .



رسوم أدوات حجرية للعصر الحجري الحديث مصقولة : مع أدوات خزفية لهذا العصر





بعض ما وجد على جدران المغاور من رسوم الحيوانات



٣ ـ العصــر الحجـري الحــديــث أو المصقــول النيــوليتــي . NÉOLITIQUE

وقد امتد من حوالي الألف السادس إلى حدود ٢٥٠٠ ق .م وليست الأرقام هذه دقيقة واضحة كما يشير العلماء إلى ذلك[١] . وهذا العصر يشكل الحقبة الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ . وقد تميّز هذا العصر بحالة مناخيّة مماثلة لمناخ أيامنا هذه . وقد أصبحت الأعمال الزراعية سائدة فيه إلى حدّ كبير . كما ترسّخ الاستقرار وأخذ الإنسان يعيش فيه حياة إجتماعية منضبطة فيها الكثير من العادات والأعراف والتقاليد . ومارس الحياة التجارية بشكل واسع كما تطور المفهوم الديني في هذا العصر بشكل ملحوظ وتعددت الآلهة ونمت فكرة الحياة الثانية فأوجدت المدافن وازدهرت صناعة الجرار لوضع الأموات فيها كما أنشئت القرى وصار الإنسان على معرفة بدائية بالعلوم الفلكية .



نماذج من الأواني الفخارية من العصر الحجري الحديث (الاينيوليتي)

(١) راجع ENCYCLOPEDIE, NOMO PROPRES تحت مادة NEOLITIQUE.

العصور التاريخية

العصور التاريخية

ويقسّمها العلماء إلى ثلاثة أدوار رئيسيّة وهي تمتد من منتصف الألف الرابع ق .م أي منذ أن عرف الإنسان الكتابة في حوالي سنة ٣٥٠٠ ق .م وحتى يومنا هذا .

١ ـ العصور القديمة وتبدأ من ٣٥٠٠ سنة ق .م إلى مطلع الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي أي إلى حين سقوط روما في العام ٤٧٦ الميلادي .

٢ ـ العصور الوسطى وتمتد منذ سقوط روما إلى اكتشاف أميركا في العام ١٤٩٢ الميلادي[١] .

٣ ـ التاريخ الحديث أو المعاصر ويمتد من اكتشاف أميركا إلى وقتنا الحاضر .

كيف كان المغرب خلال تلك العصور السالفة ؟

عصور ما قبل التاريخ :

كانت بلاد المغرب في تلك العصور تختلف اختلافاً واضحاً عمّا هي عليه الآن فقد كان الطور الإقليمي في تلك العصور من النوع المداري الممطر الكثير الرطوبة وقد حدثت فيه شقوق وإلتواءات أتت بعدها أطوار من التآكل والتعرية EROSION والإنجراف الأمر الذي أدى إلى انخفاضها بعض الشيء فغمرتها المياه ثم ظهر موقعها وفيه جزر وأغوار عميقة ثم أخذت عوامل الترسب التي أعقبت ذلك ثم حدثت التواءات أخرى وخسوف حادة

---

(١) يذهب بعض الكتّاب والمؤرخين إلى أن العصور الوسطى تنتهي سنة ١٤٥٣ وهو تاريخ سقوط القسطنطينية .

أدت إلى فصل أوروبا عن أفريقيا بعد أن تشكل البحر الأبيض المتوسط وبرزت جلاميد من الصخر مثل جبال الألب وسيارا نيفادا وجبال الأطلس الكبير والأوراس وتولد مضيق جبل طارق وانفصلت صقلية عن أفريقيا ثم أعقب ذلك عصور جليدية ثم أمطار غزيرة عمّت شمال أفريقيا بأكمله صحب ذلك تقلّبات في مستوى سطح البحر العام فتغيّرت مجاري الأنهار وأخذت الجبال بالبروز والارتفاع حتى قاربت ارتفاعاتها الحالية .

وكانت حيوانات المغرب في تلك العصور والتي انقرضت أنواعها انقراضاً تاماً من الحيوانات التي ربما كانت الأسلاف الأولى للخيل والكلاب والأفيال والقردة والخنازير والبرمائيات والكركدن وفرس النهر .

في هذه الفترة كانت أوروبا تعاني شدة البرد الجليدي القارس .

إنسان ما قبل التاريخ

ترجع أقدم بقايا الهياكل العظمية البشرية التي عثر عليها في الشمال الأفريقي إلى ما قبل أربعين ألف سنة أو يزيد وهي تظهر لنا سلسلة كاملة من بقايا الهياكل العظميّة من النوع النياندرتالي .

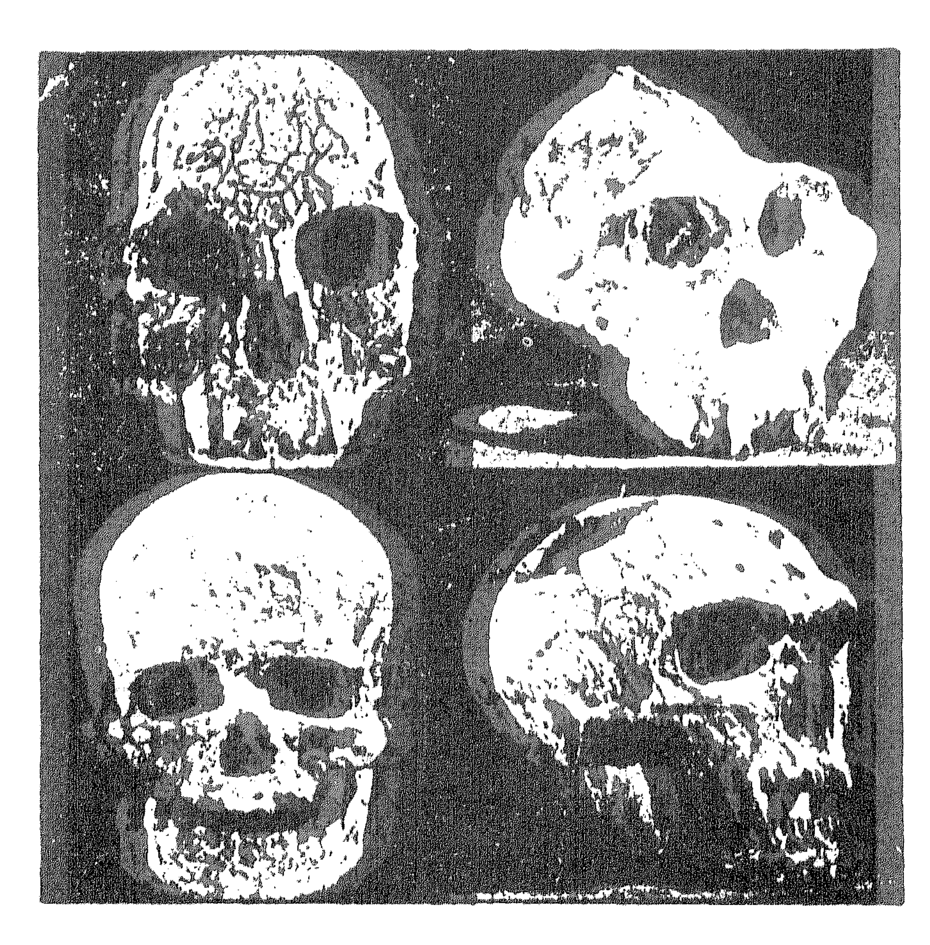
فقد اكتشفت جمجمة تعود لشاب صغير في حدود السادسة عشرة من عمره دلّت على أن صاحبها ربما كان سابقاً لإنسان النياندرتال فهو عريق في البدائية إلى حد كبير . وقد عرف بإنسان الرباط[1] . كما اكتشفت بعض القطع الحجرية والنقوش الصخرية في بعض المناطق الصحراوية[2] .

---

(١) راجع تاريخ أفريقيا الشمالية لشارل. . . جوليان الدار التونسية للنشر ١٩٦٩ ص ٤٠ وما بعدها تعريب محمد مزالي ـ البشير بن سلامة.

(٢) انظر gautier في ص ٣٤ في كتابه:

Les siecles obscures de l'Afrique du Nord P.P.28



تطور شكل وحجم جمجمة الإنسان في عصور ما قبل التاريخ

كما اكتشفت في إحدى مغاور طنجة جمجمة مماثلة الأمر الذي يثبت وجود الإنسان النياندرتالي في المغرب الأقصى وكان هذا الإنسان قصير القامة نوعاً ما ، كبير الجمجمة ، كثيف البنية ، وكان بإمكانه الوقوف تقريباً دون أن يكون منتصباً تماماً وكان لا يزال يعيش في الكهوف والمغاور حتى أواسط العصر الأباليوليتي (الحجري القديم) .

كما عثر في الحفريات التي أجريت بالقرب من مدينة قسنطينة في الجزائر على أشكال متحجرة في الصخور تشبه هذا النوع تقريباً مما لا يدع مجالاً للشك بأن الإنسان النياندرتالي ساد الشمال الأفريقي كله وأنه دام حتى العصر الحجري الحديث . والملفت للنظر أنه لم يعثر بين جميع النماذج من الهياكل البشرية المكتشفة على زنجي واحد في عصور ما قبل التاريخ في بلاد البربر[(١)] .

الدفائن LES FOSSILES :

تعتبر الدفائن الأدلة الوحيدة على أي أثر للحياة من نباتية وحيوانية . وقد حفظتها لنا الرواسب والصخور بعد أن تعرضت لعمليات التبديل والتغيير . فبعضها جاء سليماً في شكله العام والبعض الآخر جاء ناقصاً بعد أن تغيّر تركيبه وفقد قسماً من أجزائه . إن مواد تلك الدفائن التي خضعت لتحولات كيماوية عديدة حولت بعضها إلى معادن اختلطت بالأرض اختلاطاً عضوياً وحفظت فيه .

هذه المواد هي الوسيلة الوحيدة التي يمكننا بواسطتها التعرف على طبيعة تلك الدفائن وتحديد عمرها والأزمنة التي وجدت فيها والتطورات التي طرأت على الطبقات الصخرية التي وجدت فيها والمراحل التي مرَّت

---

(١) المرجع السابق: ص ٤٨ .

بها .

أنواعها

والدفائن أنواع كثيرة بعضها أجسام كاملة لحيوانات منقرضة وجدت متجمّدة في الجبال الجليدية في سيبيريا مثل الفيل الثلجي « الماموت » MAMOUTH ، وبعضها وجد على شكل بقايا هياكل عظميّة وبعضها الآخر على شكل نباتات متحجّرة وجدت بين طبقات الصخور محتفظة بأشكالها العامة .

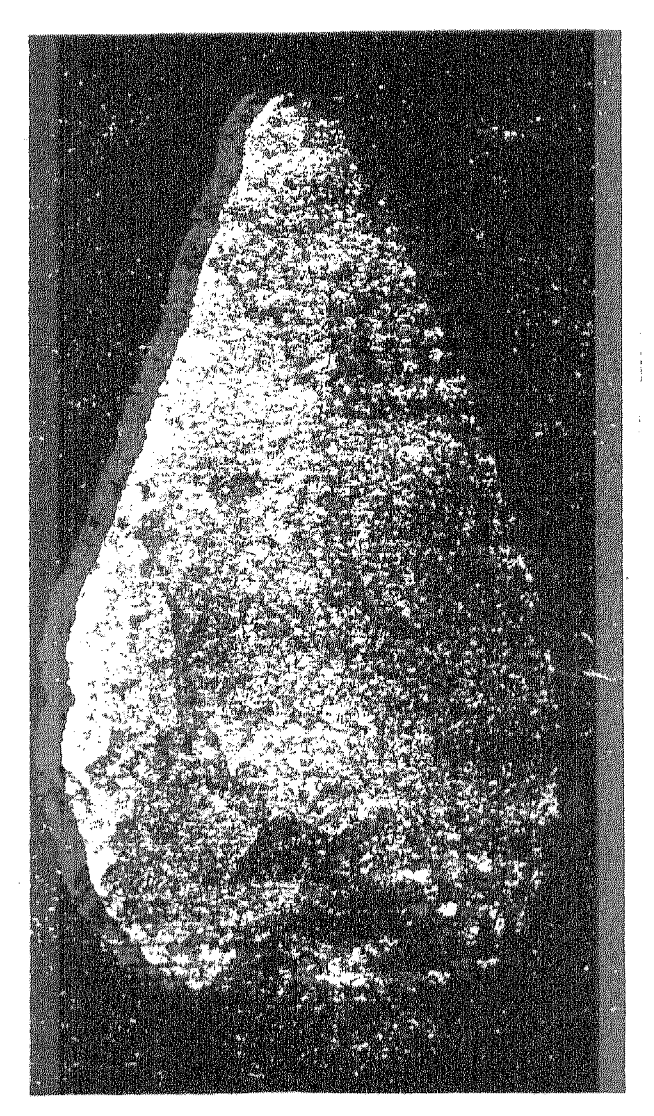
العمل اليدوي لإنسان ما قبل التاريخ في بلاد المغرب :

إن أقدم الآثار المكتشفة للعمل اليدوي البشري لإنسان ما قبل التاريخ في بلاد المغرب هي تلك التي اكتشفت في نواحي مدينة سطيف بالجزائر وهي عبارة عن كرات حجرية منحوتة .

ثم تلك الأدوات التي اكتشفت في نواحي الدار البيضاء بين طبقات الصخور وهي تعود إلى العصر الشيلي الذي يقع تاريخه حول سنة ١٠٠,٠٠٠ ق .م . ويستفاد من تحليل تلك الأدوات أن الآلة في ذلك العصر قد تحسّنت بإرهاف جانبيها إرهافاً على شيء من الغلظة وبتدبيبها بحيث تتّخذ شكل اللوزة ، ثم بتهيئتها تهيئة تكون أصلح لقبضة اليد البشرية[١] . وتعتبر مناجم المغرب الأقصى من أهم مواطن البحث عن العصر الحجري القديم في الشمال الأفريقي .

---

(١) انظر قصة الحضارة: ص ١/ ١٥٩.



أداة حجرية من العصر الحجري القديم لها شكل اللوزة

كذلك فقد اكتشفت قرب بحيرة القرار بشمالي تلمسان في الجزائر بعض هياكل عظمية لحيوانات المناطق الحارة مثل الفيل الأطلسي والكركدن الموريطاني وفرس البحر وبعض الصناعات المنسوبة إلى العصر الأشولي[١] الذي يقع تاريخه حوالي سنة ٧٥٠٠٠ ق.م.

كذلك فقد أثبتت الإكتشافات التي أجريت في ضواحي قفصة بجنوب وسط تونس وجود هضاب تكوّنت بتراكم الرماد والأدوات والهياكل العظميّة البشرية والحيوانية وخاصة أصداف الحلزون كما ظهرت فيها الحجارة المنحوتة الدقيقة ذات الأشكال الهندسية والأزاميل الصغيرة ويرجح أنها تكوّنت في نهاية الفترة الجليدية الأخيرة التي حصلت قبل المسيح بحوالي ١٤٠٠٠ سنة والتي لا بد أنها سبقت العصر النيوليتي[٢] .

علماً بأن العصر النيوليتي هو حديث العهد نسبياً في الشمال الأفريقي إذ أنه لا يزيد على حوالي ٤٠٠٠ سنة ق.م. الوقت الذي أخذت فيه طبيعة أفريقيا تقترب شيئاً فشيئاً إلى ما هي عليه الآن ، فازداد جفاف المناخ واختفى فرس النهر والفيل الأطلسي وتغيّرت الحياة الاجتماعية وتحسّنت وسائل الفلاحة والتجارة وحل الحجر المصقول مكان الحجر الخشن في جميع الأدوات التي صنعت في ذلك العصر وعندها كانت الصحراء همزة وصل بين أفريقيا الشمالية وبلاد البربر[٣] .

هذا ويمكننا القول أنه بانتهاء العصر النيوليتي أو عصر الحجر المصقول كما يدعى استقرت الأجناس البشرية استقراراً لا يزال سائداً حتى يومنا هذا . ووضعت منذ ذلك الوقت أسس المدنية من صناعة وتجارة

---

(١) تاريخ أفريقيا الشمالية: ص ٥٠.
(٢) راجع قصة الحضارة: ص ١/ ١٥٩.
(٣) المرجع السابق.

وفلاحة وزراعة وحياة إجتماعية القائمة على الأسرة والأعراف والتقاليد وراح الإنسان يفكر في ما بعد الحياة فتعددت عنده الآلهة وظهرت عنده فكرة بدائية عن نوع من حياة ثانية للراحل بعد الموت فوضع الحلي والطعام والسلاح في أماكن الدفن .

عصر النحاس والبرونز والحديد

مع اكتشاف المعادن واستخدامها نشأت مرحلة جديدة هامة في حياة الإنسان حلّ فيها المعدن محل الحجارة كمادة رئيسية في صنع الأدوات التي يستعملها الإنسان ومن المرجّح أن استخدام الإنسان للمعادن بدأ مع نهاية العصر الحجري الحديث أي منذ حوالي ٤٠٠٠ سنة تقريباً . مع الإشارة إلى أن استعمال النحاس بصورة واسعة قد تأخّر حوالي ألف سنة قبل أن يأخذ مكان الحجارة كمادة رئيسية لصنع الأدوات والأسلحة أي حتى بعد عام ٣٠٠٠ق .م[1] .

وعندما امتلك هذا النوع من المعادن تهيّأت له الطريق إلى غزو الأرض والبحر والهواء محدثاً انقلاباً عملاقاً في هذا المجال ومن الجائز أن تكون كثرة النحاس في شرقي البحر الأبيض المتوسط هي التي سببت قيام ثقافات قوية في الألف الرابع من السنين ق .م في عيلام[2] وبلاد ما بين

---

(١) فيليب حتّي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ص ١/ ٢٤ دار الثقافة بيروت.

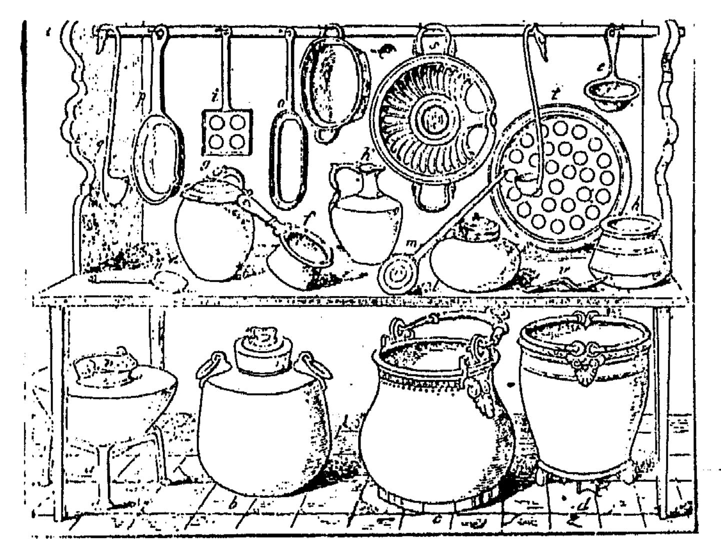
(٢) عيلام: حدد ول ديورانت وقع عيلام في قصة الحضارة فقال:
إذا نظر القارىء إلى مصور لبلاد إيران ومر بإصبعه على نهر دجلة مبتدئاً من الخليج الفارسي حتى يصل إلى العمارة ثم اتجه به شرقاً مخترقاً حدود العراق إلى مدينة شوشان الحديثة. إذا فعل هذا فقد حدد لنفسه موقع مدينة السوس القديمة التي كانت فيما مضى مركز إقليم يسميه اليهود بلاد عيلام أي الأرض العالية. وقد وجدت فيه آثار بشرية يرجع عهدها إلى ٢٠,٠٠٠ سنة مضت كما وجد فيها علماء الآثار الفرنسيون شواهد تدل على قيام ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام ٤٥٠٠ق.م، (قصة الحضارة: ص ٢/ ١١).

النهرين ثم امتدت إلى مختلف الأصقاع[1] حيث وجد البرونز عند أكثر الشعوب القديمة التي عاشت قبل حوالي خمسة آلاف سنة من اليوم .

فقد وجد البرونز في الآثار الكريتية التي ترجع إلى سنة ٣٠٠٠ق . م ووجد في الآثار المصرية التي ترجع إلى سنة ٢٨٠٠ق . م .

ولئن كان البرونز قوياً شديد الاحتمال إلا أن النحاس والقصدير اللازمين لصناعته لم يكونا من الكثرة في الكمية أو في أماكن وجودهما بحيث يجد الإنسان حاجته من أجوده صنفاً لشؤون الصناعة والحرب . فكان لا بد للحديد أن يظهر عاجلاً أم آجلاً[2] .

وقد دلت الآثار على أن النحاس اكتشف أولاً ثم تبعه البرونز ثم الحديد . ومع بدء عصر البرونز تم اختراع الأبجدية[3] .



الشكل ١٩٤ أدوات مطبخية من البرونز وجدت بين أنقاض بومبي (Pompei)بايطاليا

(١) راجع فيليب حتّي في كتابه السابق، ص ١/ ١٧٩ .
(٢) قصة الحضارة: ص ١/ ١٨٠ .
(٣) فيليب حتي: المرجع السابق، ١/ ٢٥ .

الفصل الرابع

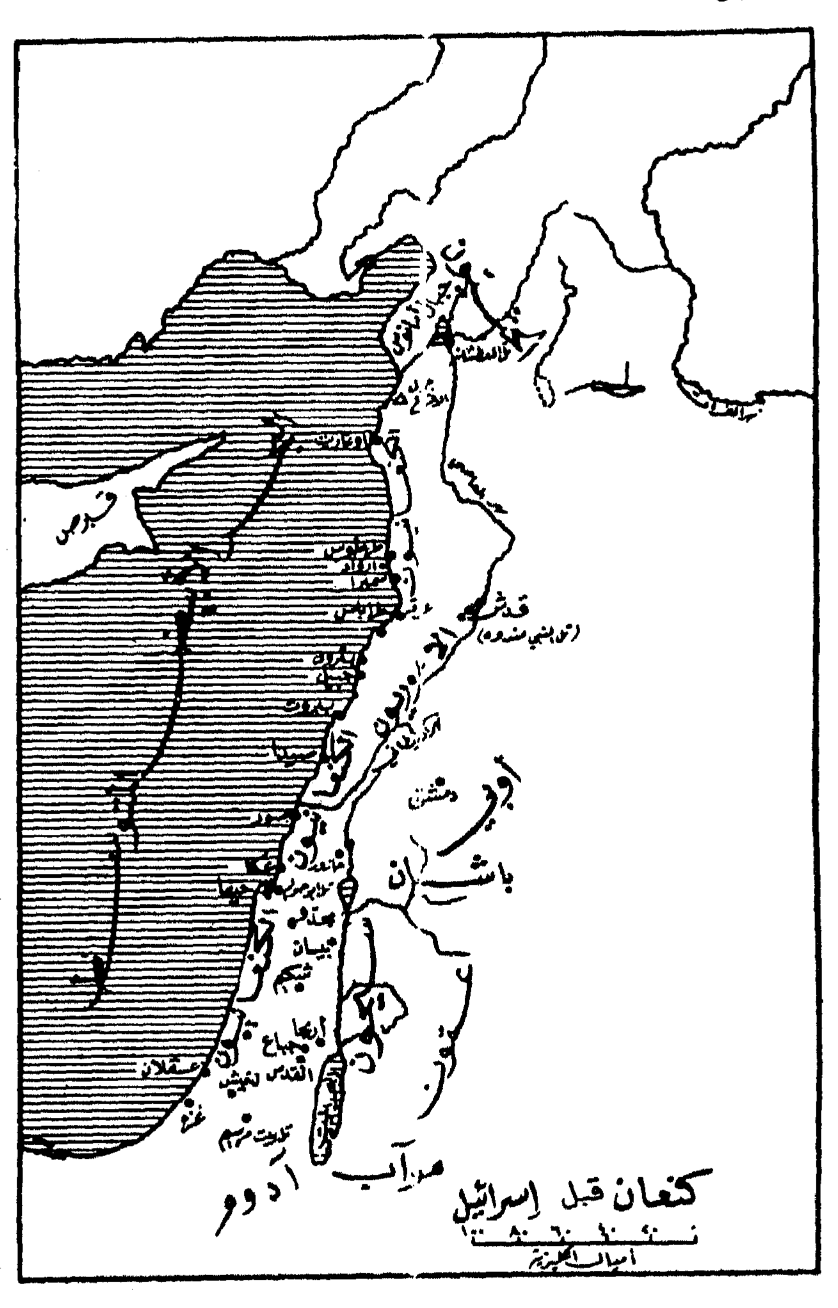
الحضارة الغسولية

نسبة إلى مدينة تليلات الغسول[1] وهو اسم لموقع تاريخي يقع شمالي البحر الميّت ويرجع زمن تأسيسه إلى العصر الحجري النحاسي . وقد كان هذا الموقع مهد الكنعانيين الذين سكنوا القسم الغربي من آسيا والممتد من رأس شمرا عند جبل الأقرع في سوريا شمالاً حتى جبل الكرمل في فلسطين جنوباً وقد تكوّنت منهم شعوب عديدة ثم أن هذا الاسم كنعان كان يعني الأرض المنخفضة لاختلافها عن مرتفعات لبنان وقد أعطاه الإسرائيليون لفلسطين قبل الاستيلاء عليها فكانت الأرض الموعودة لهم من قِبَل الله ونهاية تنقلاتهم بعد مغادرتهم لمصر كما جاء في سفر التكوين ٥ ـ ٨[2] .

---

(١) فيليب حتّي: ص ١/ ٨٥.

(٢) الموسوعة العربية الميسرة.


قبرص
قدش
دمشق
بيروت
صيدا
صور
شكيم
أريحا
القدس
عسقلان
غزة
باشان
موآب
أدوم
كنعان قبل إسرائيل

وقد لعب الموقع الجغرافي لهذه البلاد دوراً أساسياً في تكوينها البشري والسياسي والحضاري على السواء . وعلى الرغم من التداخل البشري بين الكنعانيين وسواهم فقد استطاعت قبائلهم أن تحافظ على طابعها السامي وأن تكوّن حضارة خاصة بها عرفت فيما بعد بالحضارة الغسولية . كما بدا ذلك واضحاً من جملة الآثار التي وجدت في الحفريات .

وقد اعتمد الكنعانيون في حياتهم على الزراعة كمورد أساسي لعيشهم ، وغرسوا أشجار العنب والتين والزيتون بصورة خاصة ونقروا لها المعاصر في الصخور كما زرعوا القمح والشعير .

وقد دلّت أعمال الحفر كذلك التي أجريت في أريحا[١] ومجدو[٢] وبيت شان[٣] وأوغاريت وجبيل وهي مدن من العصر النحاسي الحجري من النموذج الغسولي على أن الحضارة الغسولية التي أنشأ الكنعانيون لا تقل قيمة عن تلك التي نشأت في شمال سوريا وبلاد ما بين النهرين .

كما دلّت الآثار المكتشفة على أن الكنعانيين استخرجوا المعادن الدفينة في بلادهم كما أنهم استطاعوا الحصول على كثير من موارد غير موجودة لديهم وضعوها فاستهلكوا ما احتاجوا إليه وقايضوا بالفائض مع الشعوب المجاورة لهم .

وتشير الآثار المكتشفة أيضاً إلى أنهم اعتمدوا في البناء على الطين المجفّف أو اللّبن وكلاهما أصل صناعة الآجر فشووا الحجارة حتى أصبحت صلبة ولكن الزمن عفا عليها لأنها ليست لها صلابة الحجر ولهذا كانت

---

(١) أريحا: أصلها من يريحوا YEREHO أي مدينة القمر، فيليب حتّي: المرجع السابق، ص ٨٧.

(٢) مجدو: المشتقة من جدد GADAD أي قطع. واليوم تل المتسلم. حتى ص ٨٧.

(٣) بيت شان: أي بيت الإله شان واليوم تسمى بيسان.

منازلهم هزيلة في بنائها وغير منتظمة في تخطيطها بشكل عام .

وكانت بعض مدنهم مثل أرادوس[١] وصيدا[٢] وصور[٣] ذات حصون وأسوار قوية عالية . وتتمتّع بخط دفاع مزدوج ولهذا كانت من أمنع المدن في شرقي البحر الأبيض المتوسط . وقد أدخلوا المركبات الحربية إلى بلادهم فكانت وسيلتهم في الدفاع كما كانت أسلحة الهجوم عندهم تضم القوس والسهام برأس برونزي أو صواني وخنجراً قصيراً وسكيناً معقوفاً ونبوتاً ثقيلاً من الخشب الفاسي وقد وجدت آثار من جميع هذه الأسلحة[٤] .

أما الآثار الأدبية والفنيّة عندهم فلم تكن ذات أثر كبير فتركوا أمر هذه المهمة لقبائل أخرى منهم سامية الأصل مثلهم كونت فيما بينها الشعب الفينيقي . وفينيقيا لفظ يوناني التركيب من كلمة PHOINIX فونيكس وتعني الأرجواني الأحمر[٥] .

الفينيقيون هؤلاء أو الكنعانيون الجدد سينقلون فيما بعد مناطق نفوذهم التجاري من الحوض الشرقي إلى الحوض الغربي من المتوسط وسيؤسسون مدناً عامرة مزدهرة في قرطاجة ويوتيكا وفي قادس وترشيش ومرسيلية ومالطة وصقلية وسردينية وكورسيكا بل وفي انكلترا البعيدة وفي

---

(١) ارادوس: هي جزيرة أرواد.

(٢) صيدا: أو صيدون SIDUNA ومعنا مصيدة سمك سميت لذلك باسم الإله البري والبحري، حتى ص ٨٠.

(٣) صور So°R ومعناها الصخرة.

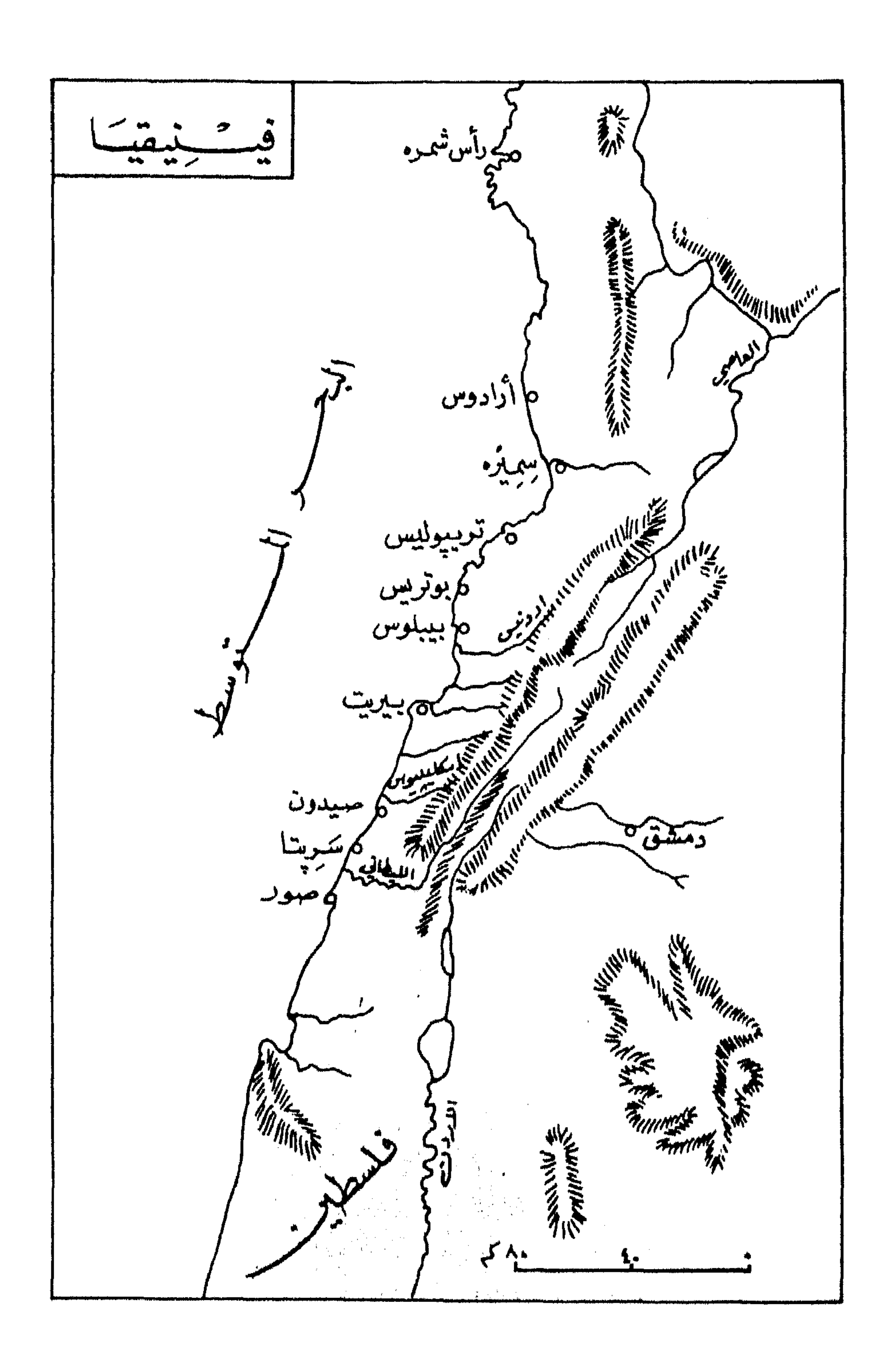
(٤) راجع فيليب حتّي في كتابه السابق: ص ١/ ٩٠.

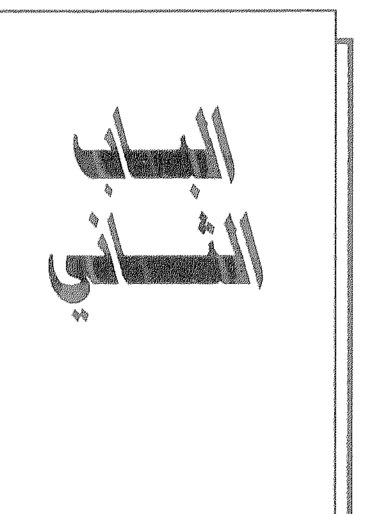
(٥) فونيكس: يقول ول ديورانت قد يكون معنى لفظ الفونيكس الذي اشتق منه اليونان هذا الاسم هو الصبغة الحمراء التي كان يبيعها تجار صور وقد يكون معناه النخلة التي تترعرع على الشواطىء الفينيقية ـ المرجع السابق: ص ٢/ ٣١٠.

الكثير من دول أوروبا غيرها بعد أن يحتلوا قبرص وميلوس ورودس . وسيطوفون بأعمدة هرقل ويمتلكون جزر الباليار ثم يتوغلون في المحيطات ويطوفون آخر الأمر حول أفريقيا مكتشفين رأس الرجاء الصالح قبل أن يكتشفه فاسكو داغاما بنحو ألفي عام . وسينشرون العلوم والفنون في اليونان وأفريقيا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وسويسرا وإنكلترا بعد أن يربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية وينتشلوا أوروبا من براثن الهمجيّة[1] . عن هؤلاء الكنعانيين الجدد أو الفينيقيين كما أصبحوا يعرفون سنتكلم في الفصول القادمة من هذا الكتاب .

---

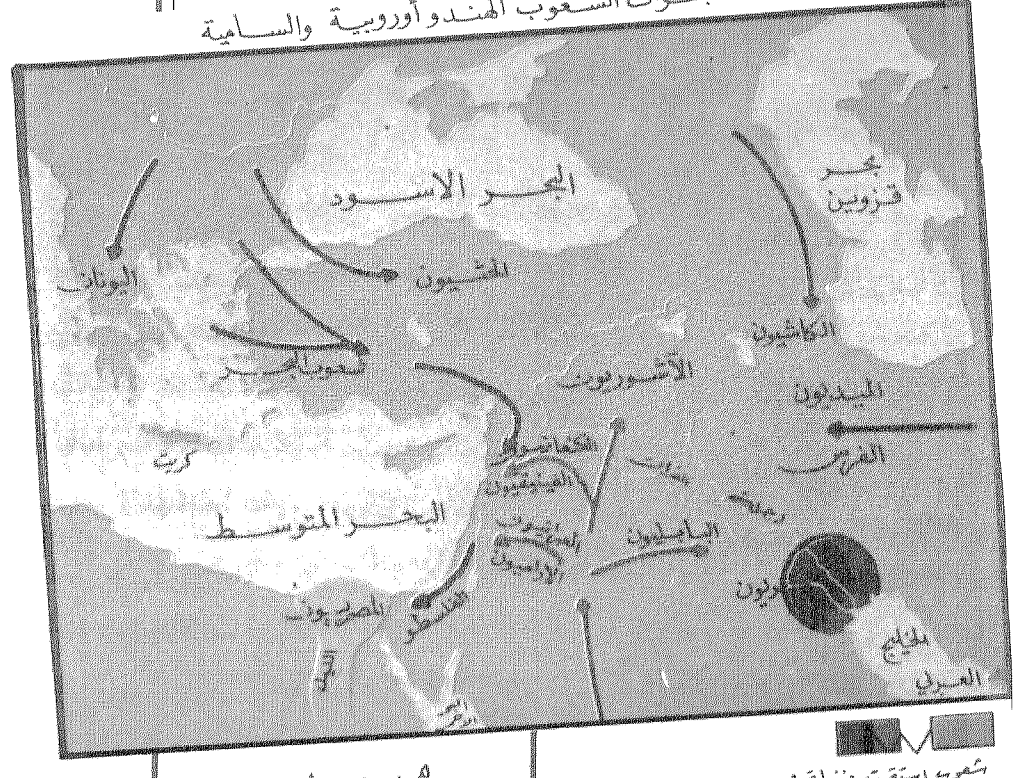
(١) المرجع السابق: قصة الحضارة، ص ٢/ ٣١٣.


فينيقيا
رأس شمره
أرادوس
سميره
تريبوليس
بوتريس
بيبلوس
بيريت
صيدون
سربتا
صور
دمشق
البحر المتوسط
فلسطين
٤٠ ٨٠ كم



الباب الثاني

هجرات الشعوب الهندو أوروبية والسامية



الفصل الأول

دراسة أثرية في المغرب

في مطلع هذا « التمهيد » كتبنا « مختصراً مفيداً » عن عصور ما قبل التاريخ في منطقة الشرق الأدنى أو « بلاد كنعان » وهي البلاد التي أبحر منها الكنعانيون القدماء على متن مراكبهم الاستكشافية التجارية ، إلى شمال أفريقيا حيث شادوا المدن ، وعمّروا الأمصار ، وأقاموا لأنفسهم « خلال رحلات متوالية » مجتمعات جديدة في ذلك العالم الجديد المعروف حالياً باسم شمال أفريقيا المغرب والجزائر وتونس وليبيا . وقد استشهدنا بعدد غير قليل من المؤرخين والمؤلفين الأمريكيين والإنجليز وغيرهم . على أمل أن نُقرِّر بحثاً خاصّاً عمّا كتبه المؤرخون والمؤلفون الهواة والمحترفون من الفرنسيين وغيرهم أيضاً .

ونذكر بهذه المناسبة أن الدكتور عبد الله العروي المغربي ، قد سبقنا

إلى ذلك في كتابه « تاريخ المغرب ـ محاولة في التركيب » ومن خلال هذا الذي قرأناه عن عصور المغرب القديمة التي سبقت التاريخ المدوّن ـ شعرنا بنفس خيبة الأمل التي شعر بها الدكتور العروي قبلنا فالدراسات التي كتبها الفرنسيون ، كما صنفهم الدكتور العروي ـ هواة ومحترفون كانت غير عميقة وكانت في معظمها تفتقر إلى المادة الثبوتية لأن بعض المؤرخين الفرنسيين ومؤلفيهم ، كتبوا بتكليف من « الإدارة الاستعمارية » والحكام العامين الذين كانوا يقيمون في الرباط يومئذ حيث كانت مصلحة الفنون الجميلة تتبع مديرية الداخلية طيلة الشطر الأكبر من الحقبة الاستعمارية ـ لذلك وكما يقول الدكتور العروي ، فإن تأثير الاستعمار على كل ما كتب كان واضحاً من أمثال قرارات الجمعيات العلمية في أفريقيا الشمالية أو ما كتبته المجلة الأفريقية في الجزائر ، والمجلة التونسية هسبيريس ، وغيرها .

إذن ، فقد كان ثمة « تأثير معيّن وتوجيه استعماري مخطط يرمي إلى ربط البربر بأوروبا ، وكان من وراء هذه الفكرة الجنرالات والمقيمون العامون والموظفون العاملون معهم ، أي حكام المغرب من الفرنسيين إبان العهود البائدة .

وضرب الدكتور العروي مثلاً ، بكاتب يدعى فايد هرب[١] كان يؤكد في عام ١٨٧٦ بأن البربر هم أبناء عمومة سكان أوروبا الغربية ، أو فيما كتبه ج .ل بريموند في أطروحة عنوانها « بربر وعرب » و « بلاد البربر أوروبية » عام ١٩٣٨ .

---

(١) فايدهرب (FAIDHERBE)، لويس ليون سيزار (١٨١٨ ـ ١٨٨٩) جنرال فرنسي كبير كان حاكماً عاماً للسنغال (١٨٥٤ ـ ١٨٦١) ثم من (١٨٦٣ ـ ١٨٦٥) أخضع معظم مدن أفريقيا الغربية للحكم الفرنسي وقد اتخذ مركزه العام في داكار (موسوعة الأعلام في اللغة الفرنسية).

والدكتور العروي على حق ، عندما يدافع عن وطنه ، خصوصاً عندما حاولت فرنسا ـ وما أكثر ما حاولت ـ دمج المغرب بفرنسا على أساس وجود أصل مشترك للبربر مع الأوروبيين . دون توضيح هذه المزاعم بالنصوص والأسانيد .

إلى أن يقول الدكتور العروي أن فكرة الدمج ما لبثت أن تلاشت رويداً رويداً عندما تغلبت فكرة الأصل الآسيوي الكنعاني ، وازداد تأثيرها أكثر فأكثر وذلك على أثر ورود تقرير رسمي إلى حاكم الجزائر سنة ١٩٤٩ ، كان نتيجة لاستقصاءات « علمية وأثرية منهجية » قضت على جميع الآمال الرامية إلى دمج المغرب بأوروبا نهائياً .

وقد ألحق هذا التقرير في طبعة منقّحة لكتاب من تأليف م . بول عنوانه « أفريقيا الشمالية قبل التاريخ » وفي كتاب مماثل من تأليف ل . بالونت . صدر عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٥ ، جاء فيه : أن بلدان المغرب ملتحمة بأفريقيا وبالشرق ، ولكنها قادرة على الإنفتاح على أوروبا » .

أما المؤلف كامبس فقد حاول أن يتلاعب بالألفاظ والمصائر أيضاً عندما زعم في دراسة له عن شمال أفريقيا قائلاً : « فلا هي أفريقية تماماً ولا هي شرق أوسطية بأكملها » .

هكذا خبطاً لصقاً كما قال . .

والحق يقال ـ والتعبير للدكتور العروي ـ أن المغاربة أداروا ظهورهم لكل تلك المقولات .

وقد طرح المؤرخون المحدثون أسئلة حول تاريخ شمال أفريقيا : هل حدث تغيير في مناخ شمال أفريقيا ؟ ومن أين قدم البربر « الكنعانيون » وما

هو أصل لغتهم وثقافتهم .

وانطلاقاً من الثلاثينات راحت الاكتشافات المتتابعة لفنون النحت والكتابة في الصخور تتحدث عن وجود « صحراء » أمْيل ـ في بعض أجزائها ـ إلى الخضرة كانت تسود المناطق الصحراوية قبل ألف سنة قبل الميلاد ، ويعترف ا . فاغوتيه بحصول جفاف أدّى إلى تغيير متدرج حوَّل ما كان أرضاً خضراء إلى صحراء وقد أشرنا إلى ذلك قبلاً .

أمّا عن أصل البربر ـ وما زلنا نتتبع دراسة الدكتور العروي ، فهناك وجهتا نظر : إحداهما ربطت أصل البربر بسكّان أوروبا والثانية ربطت أصولهم بشعوب الشرق الأدنى .

والوجهة الثانية هي الأصح .

وثمّة فكرة شاملة تزعم أن معظم السكّان متكوّنون من خليط استقر في العصر الحجري الأخير ـ أي المصقول ـ في شمال أفريقيا وهم بالأصل من السكان القدماء لعصور البحر الأبيض المتوسط . وقد جاءوا على شكل مجموعتين قادمتين من شرق البحر المتوسط ولكنهما دخلتا المغرب من طريقين مختلفتين إحداهما من الشمال الشرقي وهم ذوو البشرة البيضاء والأخرى قامت بدورة كبيرة بدءاً من أفريقيا الشرقية حيث تهجّنت بالسود .

الفصل الثاني

الكنعانيون في الشمال الافريقي

القرن الثامن قبل الميلاد

ويتابع الدكتور عبد الله العروي دراسته فيقول : « لا شك في أن الاتجاه « السائد » هو في الوقت الحالي يميل إلى الإفراط في تقدير الطابع القرطاجي تحت تأثير علم الآثار الفينيقية الذي تقدم منذ الحرب العالمية الثانية تقدماً بعيد المدى . فقد غدا من المألوف التأكيد بأن الفينيقيين ، وإن كانت البراهين ليست حاضرة دائماً ـ كانوا يملكون وكالات تجارية منذ الثلث الأخير من الألف الثامن قبل الميلاد يجري التردد إليها بانتظام من سابراتا Sabratha إلى موغادور[1] . وقد ثبت أن تأسيس قرطاجة « سنة ٨١٤ » قبل الميلاد ، وأن ثمة مؤسسة « مدينة » كانت قبلها بثلاثة

(١) موغادور هي اليوم مدينة الصويرة ميناء مغربي مهم على الأطلسي بين آسفي وأغادير.

قرون في نفس المكان .

إن الملاحة الكنعانية يزيد عمرها على ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد وإن صناعة السفن من خشب الأرز والصنوبر وغيرهما داخلة في نطاق هذا التاريخ ، ولكن ما معنى فقرة « يملكون وكالات تجارية منذ الألف الثامن قبل الميلاد » فمن هم الذين منحوهم تلك الوكالات التجارية أو كلّفوهم بها ؟

وهل يعتبر بناء المدن على سواحل أفريقيا الشمالية وبناء الحضارة والمصانع وأعمال التعدين والزراعة من عمل الوكالات التجارية ؟

وهل تسمى مئات المدن التي بناها الكنعانيون من الحدود المصرية إلى المحيط الأطلسي وكالات تجارية ؟

وهل كانت فقرة « وكالات تجارية » معروفة في الثلث الأخير من الألف الثامن ق . م .؟؟

هذه « الفقرة » تعطي مثلاً عن صياغة التعابير الغربية عندما يريدون التقليل من شأن كل حضارة وكل عمل قام به الكنعانيون والعرب من بعدهم .

ولنقرب هذا المثل أيضاً : جاء في كتاب العصور القديمة للمؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيفوس[1] الذي عاش في القرن الأول بعد الميلاد ـ الجزء الثامن ـ الفصل الثامن أيضاً صفحة ٢١٩ ما يلي :

بنى ملك صور أوتوبعل الكبير سنة « ٨٧٧ ـ ٨٥٦ ق . م » مدينة البترون في شمال جبيل وأطلق عليها اسم « بوتريس » « وهي البترون اليوم »

(١) فلافيوس جوزيفوس: (٣٧ ـ ١٠٠م) مؤرخ يهودي روماني كان يكتب باللغة اللاتينية له كتاب (الحرب اليهودية).

ثم أرسل بعثة إلى ما يسمى اليوم بالجزائر وبنى فيها مدينة إيزو . . على اسم ابنته إيزو ـ بعل ـ أي « إيزابل » التي زوجها إلى الملك أخاب ـ ملك إسرائيل في ذلك العصر ـ أي السامرة قرب نابلس .

فهل نسمي مدينة إيزو ، أو مدينة طنجة التي بناها الكنعانيون في القرن الخامس عشر قبل الميلاد في المغرب أو أوغادير ، وتيباسا[1] وليكسوس وحضرموت وقرطاجة وقرطاجنة وقادس وقرطبة وملقا وترشيش[2] ، فهل تُسمى هذه المدن وكالات تجارية . . ؟!

ويزعم مؤلف أوروبي آخر يدعى ا . هورس ميدان « بأن تصور البونيين « أي القرطاجيين » التجاري الاستعماري متقدم آلاف السنين .

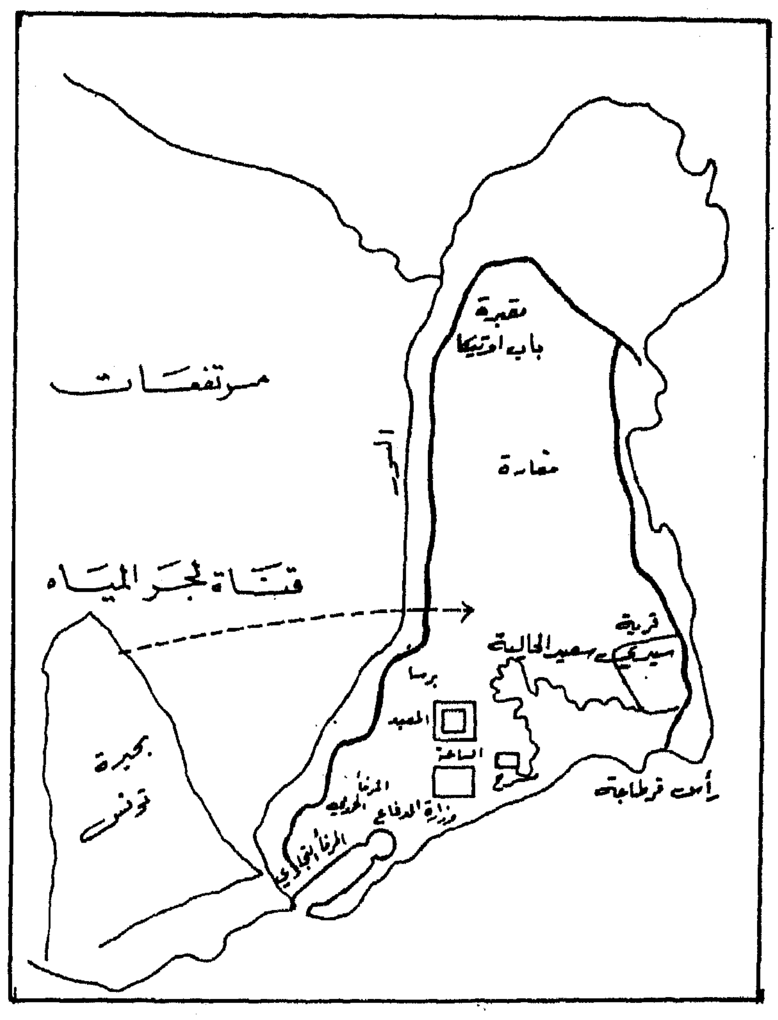
لعمر الله ما هذا الخلط ؟

هل كان القرطاجيون مستعمرين ؟ استعمروا من ؟

---

(١) تبسَّة: مدينة في شرقي الجزائر اليوم عند سفح جبل تبسة الذي يمتد حتى أرض تونس تشتهر اليوم بالفوسفات. وفيها خرائب للمدينة القديمة التي بناها البيزنطيون في غضون القرن السادس للميلاد وقوس نصر وبقايا معبد للآلة الصيد مينرفا.

(٢) أسماء مدن في إسبانيا لا تزال تحملها حتى اليوم.



تصميم لمدينة قرطاجة

عندما تأسست قرطاجة عام ٨١٤ ق.م كان يسبقها في الموقع ذاته مدينة تحمل نفس الاسم ، وهي المدينة التي كانت تحكمها الملكة ديدون[١] التي زارها الأمير إينياس عند هروبه من طروادة[٢] وهذا يعني أن المدينة التي سبقت قرطاجة كانت موجودة في القرن الثاني عشر ق .م . كما ورد في ملحمة فرجيل[٣] الروماني المعروفة باسم « الإنياد » .

غرض المستعمرين من الخلط التاريخي

وقد خلط بعض المؤرخين الأوربيين واللبنانيين بين الملكة ديدون ملكة قرطاجة الأقدم عهداً وأليسار الملكة التي أعادت بناء قرطاجة عام ٨١٤ ق.م .

أما أن القرطاجيين كانوا مستعمرين فهذا زعم خاطىء ، لأن القرطاجيين كانوا بناة حضارة . والأوروبيون يسوقون مثل هذا الخلط

---

(١) ديدون أو ديدو هي ملكة قرطاجة ومؤسستها في الأساطير الرومانية وقد ذكرها الشاعر فرجيل في الإنيادة فروى أخبار حبها لإيناس وإحراق نفسها في الخشب المعدّ لإحراق الموتى حين يئست من حبّه بعد أن سافر وتركها : (الموسوعة العربية الميسرة).

(٢) طروادة: مدينة قديمة في الأناضول على مسافة ٦كلم شرقي مدخل الدردنيل من ناحية بحر إيجة يعرف موقعها اليوم باسم حصار ليك. اهتدى هانيريخ شليمان بأشعار هوميروس في التعرف على موقع طروادة وقام هناك بحفريات متتابعة (١٨٧١ ـ ١٨٨٢) كشف عن بقايا تسع مدن أقيمت كل منها فوق أطلال الأخرى منذ أوائل عصر البرونز حتى العصر الروماني. أثبتت الحفريات أن المدينة السابعة كانت مدينة بريام لأن حريقاً خرَّب هذه المدينة ووقع حوالي التاريخ التقليدي لحرب طروادة (الموسوعة العربية الميسرة).

(٣) فرجيل: (٧٠ ـ ١٩ق.م) أعظم شعراء الرومان له أشعار رعوية وديوان في الزراعة أروع مؤلفاته الإنيادة التي نظمها للتغني بنشأة روما ووصف فيها هروب إينياس البطل الطروادي من طروادة إلى قرطاجنة حيث قابل ديدون وروى له قصة مغامراته ثم تركها وأبحر إلى صقلية وزار العالم الآخر ثم نزل بشاطىء إيطاليا حيث وضع الأساس الأول للدولة الرومانية فاعتبر بذلك جد الرومان (المرجع السابق).

ليبرهنوا على أن المغرب الكبير كان ينتقل « من مستعمر إلى مستعمر آخر » « وفاتح يطرد فاتحاً آخر . . » .

كانت قرطاجة دولة كنعانية حضارية حاربت اليونان في صقلية عندما راحوا يحتلون المدن الكنعانية ـ الفينيقية فيها ، ثم حاربت الرومان من قبل هنيبعل للهدف ذاته ولأن الرومان كانت عيونهم تتطلع إلى شمال البحر الأبيض المتوسط لطرد القرطاجيين عن سواحله .

هذه الحروب ألزمت قرطاجة واضطرتها إلى توحيد الممتلكات والأراضي الكنعانية الفينيقية على طول شواطىء الشمال الأفريقي لتضع حداً لمطامع الأغارقة ثم الرومان . . والتوحيد لا يسمىٰ استعماراً تجارياً .

هذه النغمة سمعناها في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عندما راح يعمل من أجل توحيد البلاد العربية ، فصار الإنجليز والفرنسيون والصحافة الأوروبية والأميريكية والصهيونية تسمى ذلك « التوحيد » استعماراً ناصرياً . .

ولسوف يطلق الغربيون على كل حركة « توحيدية » اسم الاستعمار . . لأن من مصلحة الغرب والدولة الصهيونية أن تظل الأقطار العربية « شظايا » حتى تبقى كلمة الغرب هي العليا وحتى يظل المستعمرون يمتصون موارد ودماء الأمة العربية .

امبراطورية قرطاجة

ويسترسل الدكتور العروي قائلاً : أن الفينيقيين الذين استقرّوا نهائياً قد اعترفوا أن قرطاجة هي الدولة الأم . فثمّة مدن أكثر أهمية مثل « طنجة ويوتيكا وهبّو » وحضرموت ، وتيباسا وليكسوس وموغادور ووكالات تجارية أكثر عدداً . . والتي ستصبح فيما بعد من المدن الهامة في العصر

الروماني ، قد انساقت إلى الاندماج في أمبراطورية تجارية ستأخذ في النمو تحت « إدارة قرطاجة » بصورة فريدة حتى تطوق شمال أفريقيا من سابراتا في طرابلس إلى جزيرة سرنة « Cerne¬ » في عرض ريو دي أورو أي في نقطتي التقاء الطرق الصحراوية[1] ، فهذه الصورة لامبراطورية قرطاجه هي التي نجدها مفصلة بحماسة مثيرة للحيرة .

اللغة البربرية لغة كنعانية

أما الأبحاث في لغة البربر فإنها باتجاه الشرق الأدنى ، أي أنها لغة الكنعانيين .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أكثر علماء اللغة اليوم يعترفون برأي مرسيل كوين الذي يصنّف « البربرية » مع اللغات الحامية ـ الكنعانية وهي فرع من اللغة السامية الأصلية أي لغة نوح وأبنائه ، ومنها : الكنعانية ـ الفينيقية ، والمصرية القديمة والعبرية من أصل كنعاني ، والليبية البربرية ولغة الزنوج المعروفين باسم الزنوج الكولشيين « أي الأثيوبيين » .

ويقول السيد أندريه آدم[2] وهو من موظفي الإدارة المغربية السابقين ، أن بربر المغرب يستعملون عدداً من اللهجات المتميّزة وبينها قليل من التشابه ، فقبائل « شلوح » في الأطلس الغربي الأعلى يتكلمون « التيشيليت » وقبائل الايمازيرون ، في الأطلس الأوسط وتفيلالت[3]

---

(١) أ. ف غوتيه، الصحراء ـ منشورات بايو ص٥٩ ـ ١٦٩ سنة ١٩٢٨ .

(٢) روم لاندو: تاريخ المغرب في القرن العشرين: ص ١٠٥ الطبعة الثانية ١٩٨٠ .

(٣) تافيللت أكبر واحات الصحراء الكبرى بجنوب غربي المملكة المغربية. بها أطلال سجلماسة التي كانت إحدى مدن البربر الحصينة في القرنين ٨ ـ ٩ وهي مهد أسرة الأشراف التي لا تزال تحكم المملكة المغربية حتى اليوم. (الموسوعة العربية الميسرة).

يتكلمون التحازيرت ، وزناتة[1] في البادية الشرقية يتكلمون الزناتية ، ولكن الأصول اللغوية واحدة ، فالإنجليزية في بعض أحياء لندن تختلف بلهجتها عن الاسكتدلاندية في الشمال ويقال مثل ذلك عن اللهجة في ويلز[2] ، وثمة اختلاف في اللهجات العربية وذلك يبدو واضحاً في اللهجات السورية ، والمصرية ، واللبنانية ، والعراقية وقس على ذلك .

ولكننا يجب أن نعود إلى التاريخ القديم فنورد الأمثال التالية : عندما انتقل قدموس[3] الصوري إلى بلاد الإغريق ـ ولم تكن تعرف في ذلك التاريخ من أواسط القرن السادس عشر قبل الميلاد بهذا الاسم ولا باسم « اليونان » ولكنها كانت تعرف باسم المدن والسكان ، سكان أثينا ، سكان بوتيا ، سكان أركاديا ، فيقال عن الشعوب الآخيّين والمكدونيين « مسيدونيا » والاسبارطيين وأمثال ذلك ـ كان قدموس وقومه الذين انتقلوا معه يتكلمون الكنعانية بالأحرف الأبجدية الكنعانية التي اخترعت حديثاً . .

مبدأ التغيير

وهنا يقول المؤرخ هيرودوتوس[4] ، ولكن الفينيقيين غيروا لغتهم إلى

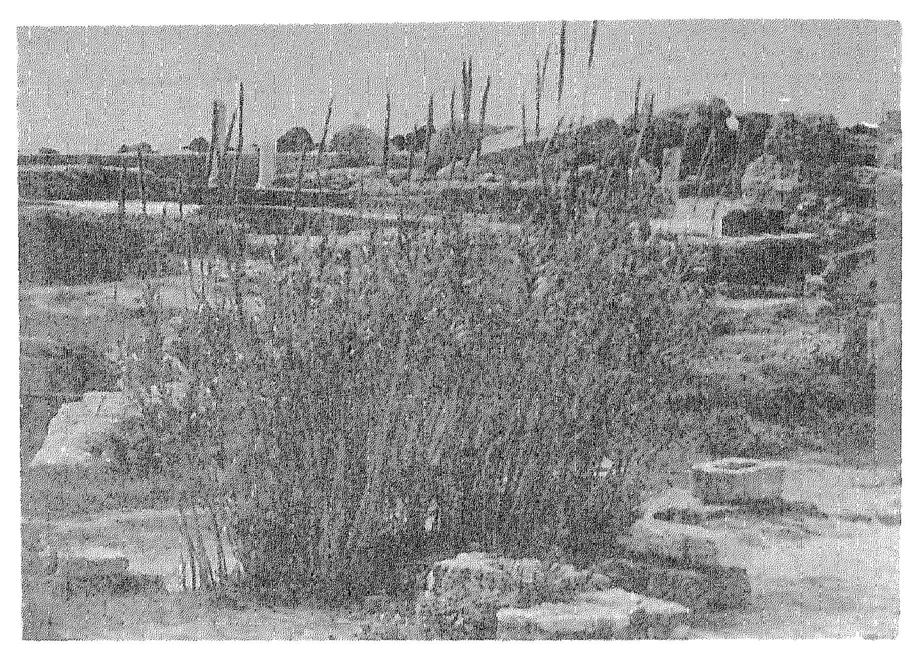
(١) زناتة: هي إحدى المجموعتين الكبيرتين اللتين ينقسم إليهما البربر في شمال أفريقيا ينتشر أفرادها في الصحاري الممتدة من غدامس حتى المغرب الأقصى.

(٢) ويلز: شبه جزيرة غربي إنكلترا ترتبط سياسياً بإنكلترا منذ ١٥٣٦ يحدّها شمالاً البحر الإيرلندي وقناة سنت جورج غرباً ومجرى بريستول جنوباً فيها مناجم الفحم والصناعات المختلفة.

(٣) قدموس في الأساطير اليونانية أنه هو الذي أسس مدينة طيبة وابتكر الحروف الهجائية وهو بطل فينيقي وأخو أوروبا.

(٤) هيرودوت: (٤٨٤ ـ ٤٢٥ق.م) مؤرخ إغريقي ينحدر من أسرة كريمة ولد في هاليكارتاسوس بآسيا الصغرى وعاش حتى بداية الحرب البلوبونيزية. زار بلاداً كثيرة كانت مصر من بينها. كتب عن الصراع بين الإغريق والفرس. كان كاتباً موهوباً شغوفاً بتسجيل الطريف والغريب بارعاً في الوصف. وصفه شيشرون بأنه أبو التاريخ لأنه أول

الإغريقية الجديدة واحتفظوا بالأبجدية الكنعانية ـ الفينيقية في الكتابة .



آثار قرطاجة

من عالج التاريخ باعتباره بحث علمي ولأنه هو الذي خلق فلسفة التاريخ (الموسوعة العربية الميسرة).

𐤀	A	A	A	A
𐤁	S 8	B	B	B
𐤂	ᒣ	Γ	C G	C.G
𐤃	Δ	Δ	D	D
𐤄	ᖷ	Ε	E	E
𐤅	Ϝ	Ϝ	F V	F.V.U
𐤆	I	I	...	Z
𐤇	8	H	H	E.H
𐤈	⊗	⊙	...	TH.PH
𐤉	ϟ	ϟ	I	I
𐤊	K	K	...	K.KH
𐤋	V Λ	L Λ	L	L
𐤌	M	M	M	M
𐤍	N	N	N	N
𐤎	Ξ	Ξ	X	X
𐤏	o	o	O	O
𐤐	ᒣ	Π	P	P
𐤑	M	M	...	S
𐤒	Ϙ	Ϙ	Q	Q
𐤓	ᑫ	P	R	R
𐤔	Σ	Σ	S	S
𐤕	T	T	T	T

جدول يبين كيف مرت
الحروف الفينيقية
في أشكال يونانية ورومانية
حتى بلغت أشكالها
الانكليزية الحاضرة

كذلك السبينيون سكان إيطاليا القدماء وروما بالذات وهم السينيون الكنعانيون الأوائل كانوا بالأصل يتكلمون الكنعانية ، ولكنهم مع الزمن غيّروها باللاتينية وجميع الكنعانيين الذين انتقلوا إلى أوروبا غيّروا لغاتهم مع الزمن ، الحتّيون غيّروا لغتهم الأصلية في آسيا الصغرى عندما انتقلوا إليها ، ثم غيروها إلى الجرمانية عندما انتقلوا إلى جرمانيا « ألمانيا » وهكذا . . فمبدأ التغيير والتحويل من لغة إلى أخرى وارد في تاريخ الكنعانيين كما هو وارد أيضاً في كنعانيي المغرب خصوصاً وأن قبائل ثلاثة منهم وهي : مصمودة وزناتة وصنهاجة جاءت من ليبيا بمعنى أنها في أصلها القديم انتقلت من مصر الكنعانية ـ الحامية إلى ليبيا .

بينما سكان المدن : هبّو ، وطنجة ، ويوتيكا[1] وقرطاجة ـ قرت حدث ـ وإيز وأتيكا وغيرها جاءت رأساً من لبنان وفلسطين . كذلك سكان أتيكا ـ الأندلس .

---

(١) يوتيكا: مدينة قديمة شمال قرطاجة أسسها فينيقيون من صور حوالي سنة ١٠٠ق.م. انضمت إلى روما ضد قرطاجة في الحرب البونيّة الثالثة. أصبحت فيما بعد عاصمة ولاية أفريقيا الرومانية. دمّرها العرب تدميراً كاملاً حوالي سنة ٧٠٠م.

هجـرات الشـعوب الهنـدو أوروبيـة والسـامية

هجرات هندو أوروبية

هجرات سامية

شعوب استقرت منذ القدم

والجدير ذكره أن عدداً كبيراً جداً من سكان « فلسطين » الكنعانيين هاجروا إلى شمال أفريقيا خلال اجتياح الإسرائيليين بقيادة يوشع لبلادهم واستقرّوا في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وبنوا مدناً جديدة مثل عيتا وعينتابه « عين تابه » وأمثالهما .

حقيقة الرموز المكتشفة

ويقول الدكتور العروي : أن الرموز المكتشفة لم يتمكن أحد من ترجمتها ، هكذا يزعمون ، مع العلم بأن شامبليون الذي رافق حملة نابوليون بونابرت إلى مصر استطاع أن يترجم النقوش المكتوبة على « حجر رشيد » وكانت مكتوبة بثلاث لغات الهيروغليفية واللاتينية والإغريقية . وبالمقارنة تمكّن من ترجمة النص الهيروغليفي ـ ولكن الذين كلّفوا بترجمة الرموز في المغرب ترجموها ، ولكنهم أخفوا الحقيقة لأنهم كما يُعتقد تبيّنوا أنها رموز كنعانية وذلك يتعارض مع سياسة الاستعمار الفرنسي .

أما ما يقال عن سكان المغرب قبل قدوم الكنعانيين خصوصاً في الجنوب الغربي ، فإنها تزيد في الاعتقاد على أن بعض سكان المغرب قدموا عن طريق الشرق الإفريقي . وهذا كلام مبهم والمقصود هنا عن طريق السودان القديم وسكّان السودان هم من لباب الحاميين والكنعانيين فالأسر الملكية الستّة المتعاقبة في مصر ٢٧٠٠ ـ ٢٢٠٠ق .م كانت مساكنها منذ القدم في مصر العليا أي بلاد النوبة في شمال السودان وعاصمتها « العبيد » قبل الانتقال إلى العاصمتين الجديدتين : ممفيس[١] وطيبة[٢] .

---

(١) ممفيس: MEMPHIS عاصمة مصر القديمة في أيام الفراعنة لا تزال خرائبها على بعد حوالي ٣٥ كلم جنوبي القاهرة.

(٢) طيبة: أحد أسماء المدينة المصرية المعروفة. وهو إن لم يكن أقدمها فهو أشهرها. عرفت به دهراً. وما زال علماً عليها في كتب العلماء والمؤرخين. كانت أول أمرها

الكنعانيون يطوفون حول افريقية

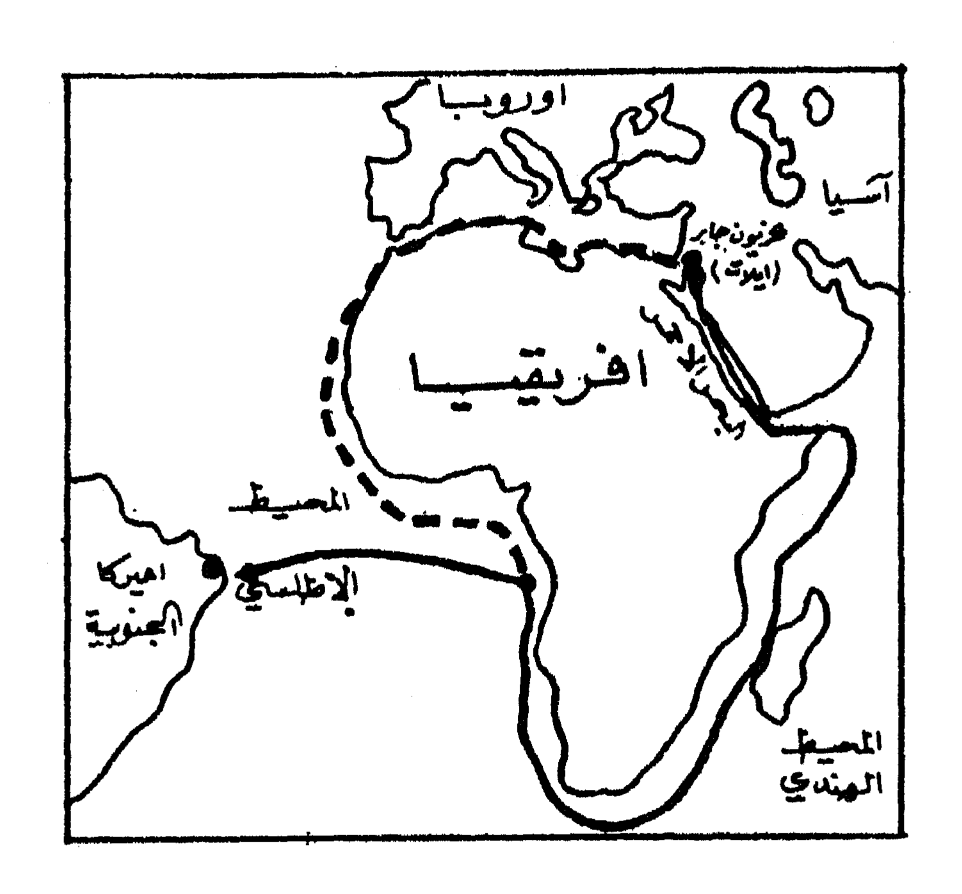
وقد روى الدكتور فيليب حتى في كتابه تاريخ لبنان قصة رحلة الكنعانيين حول القارة الإفريقية في صفحة ١٣٧ نقلاً عن هيرودوتس الكتاب الرابع ، الفصل ٤٢ فيما يلي :

« كانت ذروة المآثر التي قام بها الفينيقيون في أسفارهم البحرية ـ سفرهم بحراً حول القارة الإفريقية أي أنهم سبقوا الملاّحين البرتغاليين والذين يفخرون بأنهم كانوا أول من سافر حول القارة السوداء بمدة ألف سنة . . أي دار الكنعانيون حول القارة قبل ألف سنة من المحاولة البرتغالية .

وكان الملك نخو[1] ـ فرعون مصر ـ هو الذي أوعز إلى الملاّحين الفينيقيين القيام بهذه السفرة المجيدة ، ذلك لأنه كان قد أعاد فتح الترعة القديمة التي تصل الفرع الشرقي من النيل برأس البحر الأحمر ، وقد سلك الملاّحون الفينيقيون هذه الطريقة البحرية وجاؤوا إلى المحيط الجنوبي ، وفي السنة الثالثة من سفرتهم وصلوا إلى أعمدة هرقل ـ جبل طارق ـ ثم عادوا إلى مصر بعد أن أتمّوا دورتهم .

عاصمة الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد. وأقدم ما بقي من آثار العمران فيها يرجع إلى أيام الأسرة ١٢. وفيها انفجر بركان الثورة على الهكسوس وتحررت مصر واتّسعت آفاقها السياسية. خربها الأشوريون في القرن السابع ق.م. وفي أيام البطالة تزعمت طيبة ثورة الصعيد عليهم. كما ثارت على الرومان (الموسوعة العربية الميسرة).

(١) نخو: أو نخاو الأول حكم (٦٠٩ ـ ٥٩٤ق.م) ثاني فراعنة الأسرة ٢٦ حارب البابليين حرباً متصلة فحفظ على مصر مكانها السياسي. من أهم أعماله الإنشائية شق قناة بين النيل والبحر الأحمر. ويروي هيرودوت أنه أرسل بعثة عن طريق البحر الأحمر فطافت حول أفريقيا ثم عادت إلى مصر عن طريق جبل طارق (المرجع السابق.).



رحلة نخاو . ويشير السهم الى المكان الذي وصله
احد مراكب الرحلة في شرقي اميركا الجنوبيّة .

بين المشرق والمغرب

إن العصور الحجرية وما بعدها شرحناها في التمهيد ، على اعتبار أن ما كان يجري في الشرق الأدنى انتقل تباعاً إلى المغرب الكبير ، فالسينيون سكان مدينة جبيل اللبنانية كانت مراكبهم تنقل خشب الأرز من جبال لبنان إلى مصر ، وكانوا ينقلون كل ما في بلادهم من زراعة وصناعة إلى مدنهم في شمال أفريقيا بما في ذلك الحصان وشجر الزيتون وأشجار الفاكهة والقمح المواصل . . والملابس المصبوغة بالأرجوان ، لا بل وكانوا يصبغون الملابس الكتّانية والقطنية في مدينة يوتيكا . . خلال العصور القديمة قبل الميلاد ، وقد استمر العصر الحجري الحديث حتى مطلع الألف الأول . . وفي هذا مغالاة فكيف بنى الفينيقيون طنجة في القرن الخامس عشر وهبو ويوتيكا حوالي القرن الثالث عشر في حين كان العصر الحجري الحديث متقوقعاً في البلاد ؟ وربما المقصود بقايا أدوات كان يستعملها السكان مثل الأجران[١] الحجرية والمدقات والخزف وأمثالها .

الفينيقيون والتعدين

أما القول بأن عصر الحديد انتقل إلى المغرب مع الفينيقيين مع مطلع الألف الأول ق .م من دون أن يكون قد عرف النحاس والبرونز فهذا كلام غير معقول والدليل على ذلك أن الفينيقيين في أواخر الألف الثاني وعند مستهل الألف الأول ق .م بلغوا شأواً رفيعاً في عالم الصناعة والفن فلم يُشق لهم غبار في التعدين ، وكانوا يستعملون النحاس والبرونز في صناعتهم بحذق ومهارة عظيمين ، وكانوا يحسنون مزج معادن أخرى مع الحديد لصنع الفولاذ . وقد رحل الفينيقيون إلى أماكن بعيدة ليحصلوا على معادن كالفضّة

(١) أجران : مفردها جرن وهو حجر كبير محفور تحفظ فيه المياه لسقاية المواشي.

والذهب ، ولا سيما القصدير لمزجه مع النحاس لصنع البرونز ، حتى أنهم بلغوا المحيط الأطلسي ، وجزيرة سلي[١] Scilly مقابل كورنوال في بريطانيا حيث كانوا يستخرجون معدني التنك والرصاص . وقد روى قصة جزيرة سلي هيرودوتوس في الكتاب الثالث ص ١١٥ كما رواها الجغرافي سترابون[٢] وزاد عليها ووضّحها في كتابه الثالث القسم الخامس منه . وكذلك ديودورس سيقولس[٣] حيث يقول : أن التنك كان ينقل من بريطانيا إلى الشاطىء المقابل في فرنسا أي مقاطعة « بريتاني » ومن هناك يشحن برّاً بالمراكب الفينيقية إلى مدينة مسيليا وهي مرسيليا حالياً التي كانت في عصره مستعمرة إغريقية أنشئت هناك في أعقاب مستعمرة فينيقية .

ثم أن اكتشاف النحاس والبرونز في شبه جزيرة أتيكا ـ ايبيرية « إسبانيا » يَهْدُم كل الحجج المزعومة .

الكتابة المقطعيّة الفينيقيّة

أما الرموز التي اكتشفت في المغرب وقيل بأن أحداً لم يستطع حلها ،

---

(١) جزيرة سيلي Scilly وهي بالأحرى مجموعة جزر ويطلق عليها اسم أرخبيل سيلي يقع جنوب غربي انكلترا يتكوّن من أكثر من ١٥٠ جزيرة. كثيراً ما ارتطمت السفن بسواحلها الصخرية (المرجع السابق).

(٢) سترابون: جغرافي ورحالة يوناني عاش في القرن الأول بعد المسيح كتب عن جميع البلاد التي كانت معروفة في زمنه وقدم وصفاً اجتماعياً تاريخياً للشعوب التي تسكنها (موسوعة الأعلام الفرنسية).

(٣) ديودورس سيقولس: أو ديودور الصقلي كما هو معروف مؤرّخ عاصر يوليوس قيصر وأغسطس حتى ٢١ ق.م. كتب تاريخ العالم منذ أقدم العصور واستمد من مصادر كثيرة معلوماته عن العصور القديمة حتى حرب قيصر في بلاد الغال (٥٤ق.م) يتألف كتابه من ٤٠ جزءاً وصلنا منها ١٥ كاملة وبعض قطع من الأجزاء الباقية فيها تاريخ مصر وبلاد ما بين النهرين والهند وبلاد العرب وشمال أفريقيا استقى معلوماته من عدد كبير من المؤرخين الذين سبقوه.

فربما كانت من نوع الكتابة « المقطعية الفينيقية »[١] وهي تختلف عن أبجديتهم ، لأنها ربما كانت أقدم عهداً ، وقد وضعت على مثال الكتابة الهيروغلوفية المصرية المؤلفة من رموز أو صور ، يشير الرمز فيها إلى مقطع لا إلى حرف هجائي واحد . وقد وُجدت نقوش في مدينة جبيل الأثرية عام ١٩٣٠ مكتوبة بهذا النظام . وجميعها منقوشة على حجارة أو على نحاس وهي من أقدم النماذج اللغوية للسان الكنعاني أي حوالي ١٣٧٥ ق .م . ويوجد نماذج مصورة من هذه الرموز في كتاب ألّفه موريس دونان عنوانه Byblia Grammata طبع في بيروت سنة ١٩٤٥ .

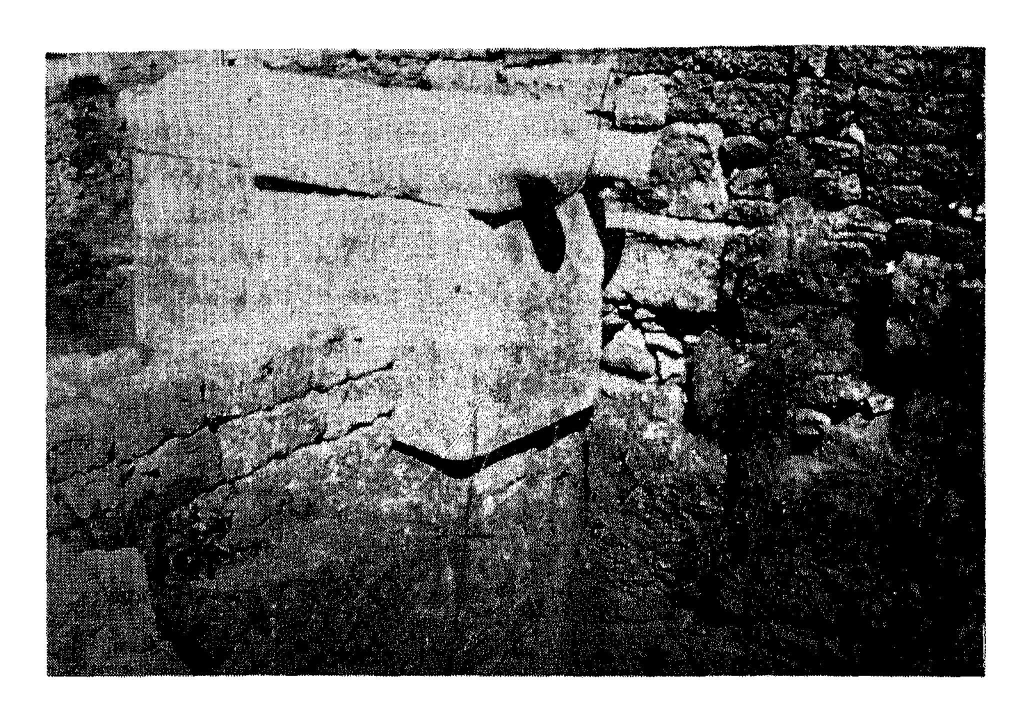
وتجدر الإشارة هنا إلى أن أكثر من أربعة علماء آثار ممن اكتشفوا آثار مدينة جبيل كانوا من الفرنسيين منهم دونان وكونتينو و(ف .ا شافر) وهو المستشرق الفرنسي الذي اكتشف آثار مدينة أوغاريت ، ورينيه دوسود ، ومونتيه ، ولكن يبدو أن دوائر الحماية الفرنسية في الرباط لم تشأ يومها الاستعانة بمثل هؤلاء المستشرقين الفرنسيين الكبار على اعتبار أنه ليس من السهل قيادتهم وتدجينهم للقيام بما يريده المقيم العام ـ الجنرال الدكتاتور ممثل فرنسا في المغرب في ذلك الوقت .

ونضيف إلى كل ذلك رحلة حنون[٢] « هانو » البحرية من قرطاجة عبر المحيط الأطلنطي إلى السنغال وسيراليون وغيرها وهي رحلة ثابتة في كل كتب التاريخ القديمة والحديثة .

---

(١) الكتابة المقطعية هي كتابة لا تجري وفقاً للنموذج الأبجدي المعروف وتستعمل مئات الرموز ويمثل كل رمز مقطعاً من هذه الحروف.

(٢) حنون HANNON القرن الخامس ق.م على الأرجح وهو بحّار قرطاجي استكشف شواطىء أفريقيا الغربية بتكليف من مجلس الشيوخ للتفتيش عن أسواق جديدة، وقد سار حنون في عكس اتجاه رحلة «نخاو». وقد كان لرحلاته البحرية أثر كبير في ذلك الوقت.



ناووس فينيقي في جبيل

كتابة أحيرام الأثرية في بيبلوس حوالي ١٠٠٠ق.م

وهذا ما جاء في الكتابة «التابوت الذي صنعه ايتوبعل ابن أحيرام ملك بيبلوس لأبيه كمسكنه الأبدي . وإذا هاجم بيبلوس ملك أو حاكم أو قائد وعرّض بهذا التابوت فليكسر صولجان حكمه وليسقط عرشه الملكي وليهجر السلام بيبلوس ، وأما هو فليمح إنسان مشرد (؟) كتابته »!

(عن مجلة الجمعية الشرقية الأميركية م ٥٧ (١٩٤٧) ص ١٥٥).

شبه جزيرة أتيكا هي أيبيرية

عندما كان الكنعانيون صانعو التاريخ والحضارة تمخر مراكبهم الشراعية ذوات المجاذيف أعالي البحار محمولة على غوارب الموج بحثاً عن مهود جديدة لحضارتهم المشعة ، كان المغرب الكبير أو شمال أفريقيا من أوائل تلك المهود التي تفتحت فيها بواكير الحضارة الكنعانية ـ الفينيقية في غربي البحر الأبيض المتوسط .

وفي ذلك التاريخ البعيد الغارق في ضباب النسيان والمجهول كان سكان كنعان في الشرق الأدنى « وتعرف حالياً باسم فلسطين ولبنان وسوريا » يقولون عند إقلاع مراكبهم نحو الغرب : « المراكب غربت » أي أقلعت نحو الغرب ، أو يهتفون بخشوع قائلين أقلعت المراكب نحو ترشيش ، بمعنى أبحرت إلى مدينة ترشيش في شبه جزيرة « أتيكا » Attica ، وحُرّفت باسم طرطوشة في العهد العربي وموقعها على مصب نهر طرطوشة شمال فالنسيا « بلنسيه » مقابل جزيرتي منورقة وميورقة . وتعرف حالياً باسم « طرطوشه » على الخارطة الإسبانية الحديثة .

قال البكري[1] في المسالك والممالك وهو يعرّف اسم الأندلس القديم : « أن اسمها إيباريه من وادي (إبرة) وهو وادي طرطوشة » (راجع خارطة الأندلس ـ إيبيرية في كتاب تاريخ العرب صفحة ٦٠٠)» . أمّا اسمها الحقيقي والأسبق « أي في العهد الكنعاني القديم » فهو أتيكا « Attica »

---

(١) أو عبيد البكري: عبد الله بن عبد العزيز (١٠٤٠ ـ ١٠٩٤) أديب جغرافي ولد بشلطيش قرب أشبيلية ومات بقرطبة. لما استولى المعتضد على إمارة أبيه هرب معه إلى قرطبة. وعندما توفي أبوه خدم محمد بن معن أمير المرية. فلما غزاها المرابطون عاد إلى قرطبة. كان متعدّد النواحي. له شعر ورسائل مسجوعة وتآليف مختلفة وله في الجغرافية (المسالك والممالك) و (معجم ما استعجم).

ومعناها في الكنعانية « البلاد العتيقة » وهذا ما يهمني . وقد قضيت عشرين سنة وأنا أبحث عن اسم الأندلس « إسبانيا » القديم فلم أعثر عليه في كتب التاريخ الأجنبية ، وإذا به مكتوب وموجود في كتاب المسالك والممالك لأبي عبيدة البكري .

إذن « أتيكا أو عتيقا » كان هو الاسم الأول الذي أطلق في التاريخ القديم على شبه جزيرة إيبيرية ، كما سميت فيما بعد ، ثم الأندلس وأخيراً سمّيت إسبانيا ، أي بعد أن انتصر القوط[1] على الموحدين وبني مرين خلفاء المغرب ، وطردوا منها العرب نهائياً في القرن الخامس عشر الميلادي .

ترشيش في التاريخ

ويقول الدكتور فيليب حتى في كتابه تاريخ لبنان ص ١٤٢ : « أمّا في شبه جزيرة إيبيرية فإن الفينيقيين « الكنعانيين » استقرّوا في ترشيش Tartessus فإن ترشيش الوارد ذكرها في التوراة وفي النقوش الآشورية تعني « مكان للتعدين » .

وقد ورد اسم ترشيش في سفر حزقيال في التوراة الأصحاح السابع والعشرين الآية ١٢ . والآية ٢٥ حيث جاء في الأولى دعاء حزقيال مخاطباً مديمة صورة الكنعانية اللبنانية حالياً : « ترشيش تاجرتك بكثرة كل

(١) القوط : شعب رئيسي من الشعوب الجرمانية القديمة استقرّوا منذ حوالي القرن الثالث الميلادي في منطقة شرقي البحر الأسود وانقسموا في القرن الرابع قسمين. فتحرك القوط الغربيون بضغط من الهون إلى الغرب وتغلغلوا في ولايات الدانوب التابعة للامبراطورية الرومانية الشرقية ثم أنهم تنازعوا مع روما وتغلبوا عليها في أدرنة سنة ٣٧٨م. والقوط الشرقيون وقد أذعنوا للهون وانخرطوا في جيشهم (المرجع السابق).

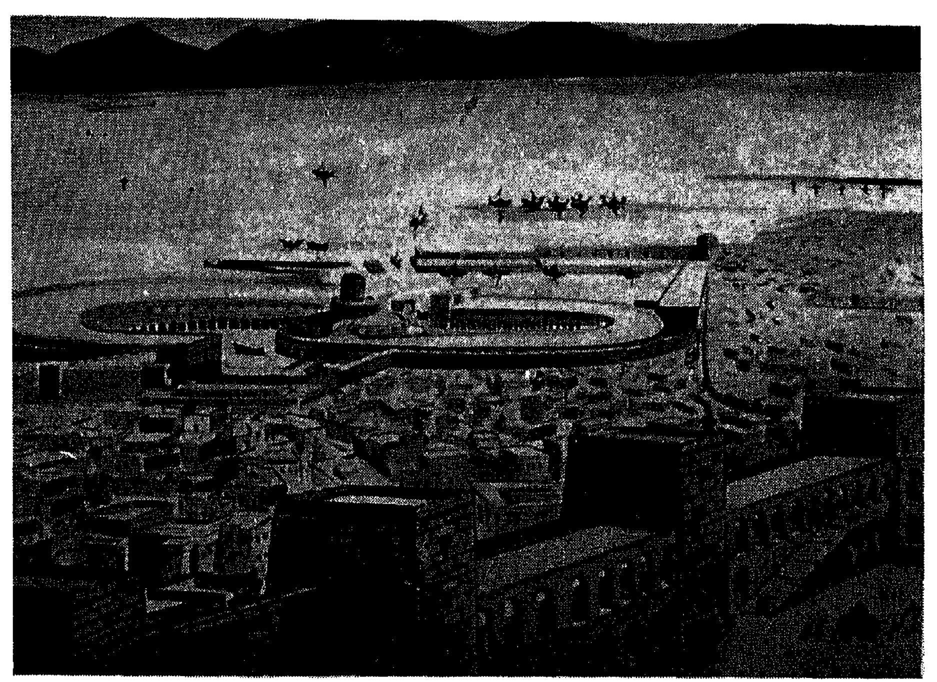
غنى بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك » وقال في الآية ٢٥ : « سفن ترشيش قوافلك بتجارتك فامتلأت وتمجّدت جداً في قلب البحار » .

مجد صور وتجارتها في العصور القديمة

وقد عاش حزقيال في مستهل القرن السادس قبل الميلاد ، ولكنه يتحدث عن مجد مدينة صور في العصور القديمة فيقول [: وأنت يا ابن آدم فارفع مرثاتك على صور ، وقُل لصور أيتها الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة ، هكذا قال السيد الرب . يا صور أنت قلت أنا كاملة الجمال ، تخومك في قلب البحور . بنّاؤوك تمّموا جمالك ، عملوا كل ألواحك من سرو سنير[١] أخذوا أرزاً من لبنان[٢] ليصنعوه لك سوار[٣] صنعوا من بلوط باشان[٤] مجاديفك ، صنعوا مقاعدك من عاج مطعّم في البقس[٥] من جزائر كتيم[٦] كتّان مطرّز من مصر هو شراعك ليكون لك راية . الإسمابخوتي[٧] والأرجوان[٨] من جزائر اليشة كانا غطاءك ، أهل صيدون وأرواد كانوا ملاّحين . حكماؤك يا صور الذين كانوا فيك هم ربابتك شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك

(١) سنّير : يعني به جبل حرمون أو جبل الشيخ في الجهة الجنوبية الشرقية من لبنان.
(٢) أي شجر الأرز.
(٣) سوار : جمع سارية التي تحمل الشراع.
(٤) باشان : معناها بيسان وحوران معاً.
(٥) البقس من الفصيلة البقسية يشبه الآس، خشبه صلب يعمل منه بعض الأدوات (المعجم).
(٦) كتيم : أي قبرص.
(٧) اسمنجوني : نسبة إلى اسمنجون ومعناه اللون الأزرق الخفيف.
(٨) الأرجوان شجر من الفصيلة القرنية له زهر شديد الحمرة حسن المنظر وليست له رائحة (المعجم الوسيط).

قلّافوك[1] ، جميع سفن البحر وملاحيها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك . فارس ولود[2] وقوط[3] كانوا في جيشك رجال حربك ، علقوا فيك ترباً وخوذة .



قرطاجة المدينة التي أسسها الصوريون في شمالي أفريقيا

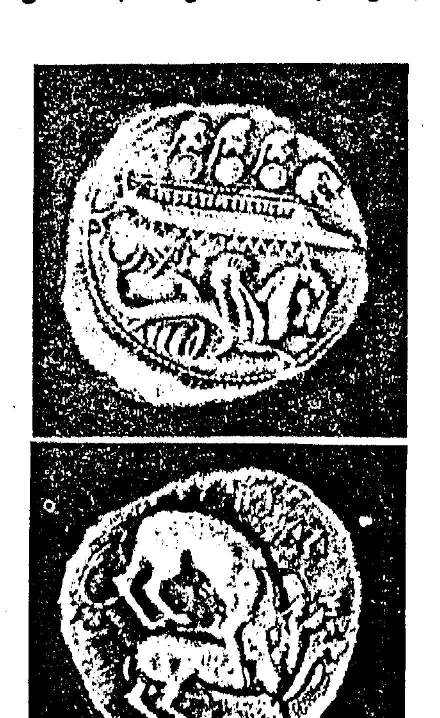
(١) قلّافوك : قلف السفينة، خرز ألواحها بالليف.

(٢) لود أي ليديا، وهي إقليم قديم غربي آسيا الصغرى عاصمته (ساردیس) ازدهر سنة (٦٨٧ ـ ٥٤٠ق.م) وغدت المملكة الصغيرة امبراطورية عقب سقوط الحيثيين كانت حضارتها راقية وهي أول دولة استعملت النقود وانتصر عليها الفرس سنة ٥٤٠ق.م وألحقوها بأمبراطوريتهم (الموسوعة العربية الميسرة).

(٣) قوط هو الابن الثالث لحام بن نوح.

بعض النقود الفينيقية من الذهب الخالص

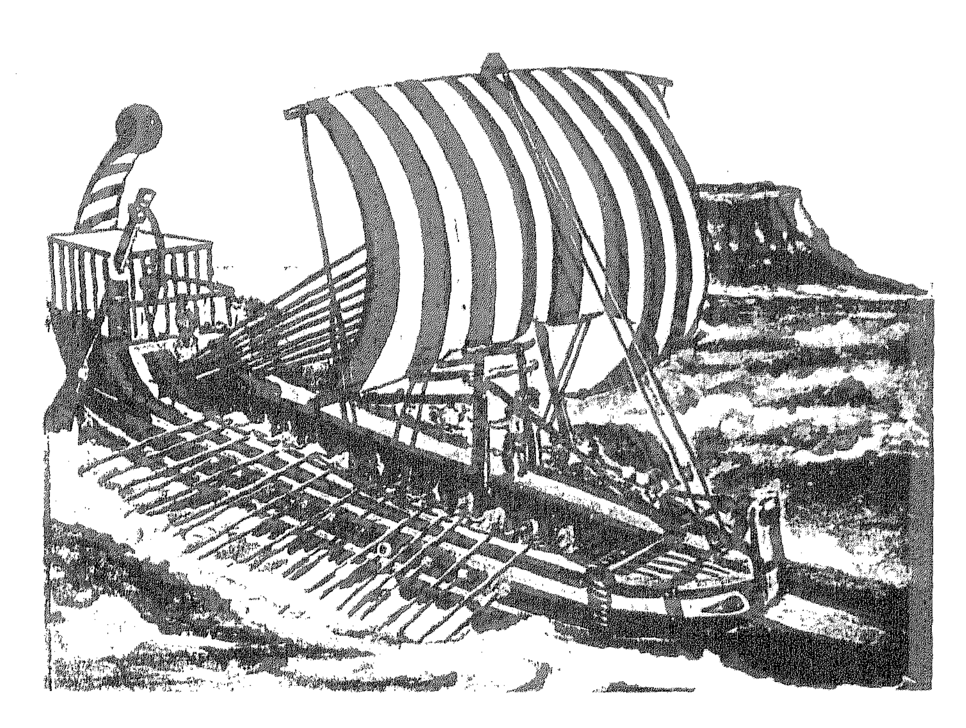




هم صيّروا بهاءك ، بنو أرواد مع جيشك على الأسوار من حولك والأبطال كانوا في بروجك ، علّقوا أتراسهم على أسوارك من حولك ، هم تمموا جمالك ، ترشيش تاجرتك بكثرة كل غنىً بالفضة والحديد والقصدير والرصاص وأقاموا أسواقك ، ياوان[1] وتوبال وماشك[2] هم تجّارك بنفوس الناس وبآنية النحاس أقاموا تجارتك ، ومن بيت توجرمه بالخيل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك ، بنو دادان تجارك . جزائر كثيرة تجار يدك ، أدّوا هديتك قروناً من العاج والآبنوس أرام تاجرتك « الشعوب الآرامية » بكثرة صنائعك تاجروا في أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرز والبوص والمرجان والياقوت . يهوذا وأرض إسرائيل هم تجّارك ، تاجروا في سوقك بحنطة منيت وحلاوى وعسل وزيت وبلسان[3] دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك وكثرة كل غنىً بخمر حلبون والصوف الأبيض . ودان وياوان قدّموا غزلاً في أسواقك . حديد مشغول وسليخة « دهن شجر البان ، وجلود المواشي » وقصب الذريرة كانت في سوقك ، دادان كانت تاجرتك بطنافس للركوب ، العرب وكل رؤساء قيدار « قبيلة قيدار من نسك إسماعيل بن إبراهيم » تجّار يدك بالخرفان والكباش والأعتدة . في هذه كانوا تجارك ، تجار شبا « سبأ في اليمن » ورعمه هم تجارك بأفخر كل أنواع الطيب ، وبكل حجر كريم وبالذهب أقاموا أسواقك . حران وكَنّه وعدن تجار شبا وآشور وكلمد متجرون معك هؤلاء يتجرون معك بالأنسجة الفاخرة بأردية اسما نجونية ومطرزة وأصونة مبرم معكومة[4] بالحبال

(١) ياوان : أي اليابان حالياً.
(٢) توبال وماشك : في روسيا : راجع التوراة ـ سفر حزقيال، ص ٣٨ ـ ٤٢ .
(٣) البلسان : شجر له زهر أبيض صغير كهيئة العناقيد وهو من الفصيلة البخورية ويستخرج من بعض أنواعه دهن عطر.
(٤) معكومة : من عَكَم وعَكَمَ المتاع شدَّه.

مصنوعة من الأرز بين بضائعك سفن ترشيش سيارة لك لموسمك وقد امتلأت وصرت ذات مجد عظيم في قلب البحار » .



سفينة تجارية فينيقية

ويقول حزقيال أيضاً في الآية ٣٣ : « عند خروج بضائعك من البحار أشبعت شعوباً كثيرين بكثرة ثروتك وتجارتك أغنيت ملوك الأرض » .

ويخاطب حزقيال ملك صور أم قرطاجة قائلاً : « يا ابن البشر قل لرئيس صور أن قلبك قد طمح فقلت أني إله وعلى عرشك جلست في قلب البحار . وأنت بشر لا إله ولكن جعلت قلبك كقلب إله بحكمتك وفطنتك نشأت لك يسار أو حصلت ذهباً وفضّة في خزائنك فطمح قلبك لأجل يسارك . أنت خاتم الكمال ممتلىء حكمة وكامل بهجة ، كنت في عدن جنّة الله وكان كل حجر كريم كساء لك من عقيق أحمر وياقوت أصفر وعقيق أبيض ، وزبرجد وجزع[1] ويشب[2] ، وياقوت أزرق ، وبهرفان وزمرد وذهب أنشأوا فيك صنعة صيغة الفصوص وترصيعها يوم خلقت ، أنت الكروب المنبسط المكلل[3] « أقامتك على جبل الله المقدس » .

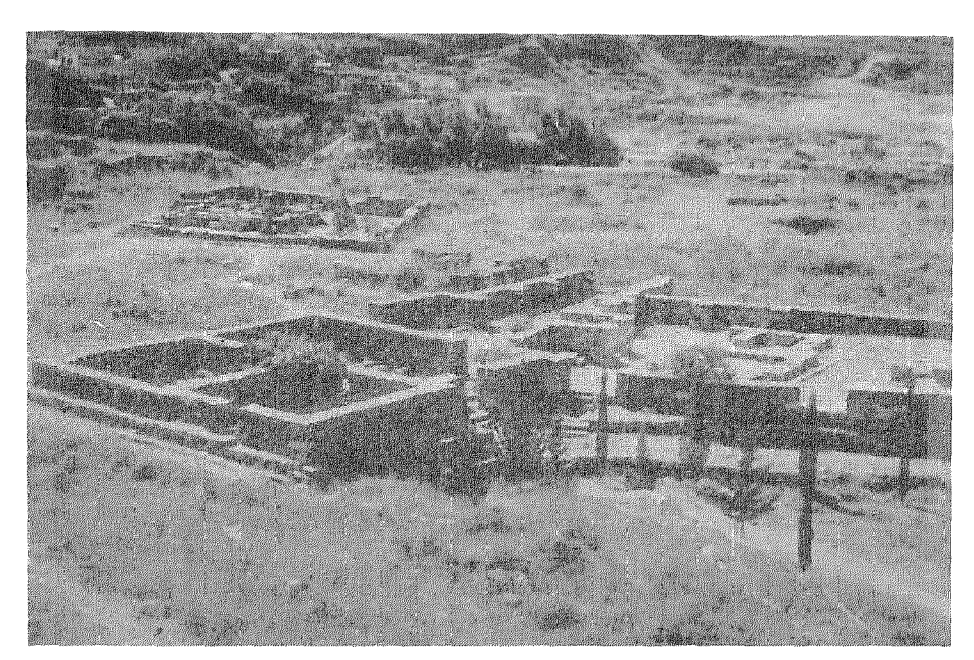
هذه هي تجارة مدينة صور أمُّ قرطاجة . وهي صور التي بنتها مدينة صيدون « صيدا » إلى الجنوب منها في عام ٢٧٥٠ ق .م . لذلك كانت تدعى صور بنت صيدا .

---

(١) الجَزْع: ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان والحجر في جملته بلون الظفر.

(٢) اليشب: نوع غير نقي من السلكيات ذات التبلور الكاذب لونها في العادة أحمر أو بنّي أو أصفر. وبعض أنواع اليشب ذو خطوط جميلة مختلفة الألوان وصالح للزينة (المعجم الوسيط).

(٣) الكروب المنبسط: يعني رئيس الملائكة.



مدينة جبيل الفينيقية

الفصل الثالث

الرحلات البحرية

كانت الرياح الشمالية الشرقية والرياح الجنوبية الشرقية هي التي ملأت أشرعة السفن الكنعانية ودفعتها نحو المغرب الكبير من الشرق الأدنى ومن مصر وكان لهذه الرياح الفضل الأعظم في تعمير المغرب وتأهيله وتمدينه بالحضارة الشرقية ، ونقل تجارة المدن الكنعانية ـ الفينيقية منه وإليه .

وقد بدأت الهجرات الكنعانية المتوالية على مرحلتين ومعظمها من الشواطىء الكنعانية في الشرق ، أو ما يسمى بشواطىء غربي آسيا ، أو شرقي البحر الأبيض المتوسط .

ففي المرحلة الأولى كان المهاجرون روّاداً طموحين يبحثون عن مهود جديدة لحضارتهم ، وأسواق لنشاطهم التجاري ، وقد استغرقت هذه المرحلة كل عصور ما قبل التاريخ المدوّن أي من مطلع الألف الثالث

ق . م . إذ لدينا تقارير تاريخية رسمية ورد فيها اسم لبنان صراحة وباستمرار في النقوش الأكادية[1] والمصرية والآشورية والبابلية بدءاً من النصف الأول من الألف الثالث قبل المسيح . ومنها ما ذكره الفرعون سنفرو[2] مؤسّس الأسرة الرابعة حوالي ٢٦٥٠ ق . م . في نقش له يصف فيه سفرة بحرية إلى لبنان ـ أنه جلب معه حمل ٤٠ مركباً من جذوع الأرز . وتقريراً آخر أثار دهشة عالمية ، يوم أن اكتشف عالم أثري مصري في ربيع سنة ١٩٥٤ زورقاً للملك خوفو خليفة سنفرو المذكور أعلاه وهذا الزورق كان يستخدم في مراسيم الدفن والموت وطوله ٦٠ قدماً ، وكان مدفوناً قرب هرم الجيزة دفناً محكماً في طبقة من الحجارة الكلسية ، وقد وجد الزورق وما فيه من أدوات بحالة سليمة ، وهو مصنوع من خشب الأرز الذي قيل أنه ما زال يحتفظ إلى يومنا هذا برائحة خشب الأرز في لبنان[3] هذا مع العلم بأن الأسر الست

---

(١) أكادية: نسبة إلى أكاد وهو إقليم ببلاد ما بين النهرين شغل الجزء الشمالي من بابل بينما كانت سومر تشغل الجزء الجنوبي. وساد نظام دولة المدينة في كل من الإقليمين في الألف الرابع ق.م. وفي آكاد تداول الناس اللغتين السامية والأكادية ثم غلب النزاع بين أكاد وبين السومريين. وقد ازدهرت أكاد منذ أن بدأ سرجون (٢٨٠٠ق.م) توسعه في فتوحاته بادئاً من عاصمته أكاد أو أجاد حتى شواطىء البحر المتوسط وفرض نفوذه على جميع مدن سومر وأكاد. بدأ انحلال أكادب بعد أكثر من قرن عندما غزت القبائل الجبليّة الأمبراطورية واستطاع السومريون أن يسيطروا على الأقاليم الجنوبية إلى أن اشتملت مملكة أور على سومر وأكاد ثم سادت عيلام في حوالي الألف الثالث ق.م عندما دخلت بلاد ما بين النهرين أقوام تتكلم السامية. أنشأ حمورابي الأمبراطورية البابلية بعد أن هزم الميلانيين (الموسوعة العربية الميسرة).

(٢) سنفرو: (٢٦٥٠ ـ ٢٦٠٠ق.م) رأس الأسرة الرابعة الفرعونية اتصلت في عهده طرق التجارة بين مصر وشواطىء سوريا وأقاليم النوبة كما استغل مناجم سيناء. من آثاره هرمان بمنطقة دهشور أحدهما منكسر الأضلاع ويعتبر الثاني أول هرم كامل (المرجع السابق).

(٣) جيمس هـ. برستد: من كتابه تقارير قديمة عن مصر المجلد الأول ص ١٤٦ ـ ١٤٧ شيكاغو ١٩٠٦.

الأولى التي حكمت مصر كانت سينيّة[١] .

هذا البرهان وغيره من البراهين الكثيرة الموجودة بأماكنها في هذا الكتاب تدحض الزعم القائل أن الكنعانيين بدأوا رحلاتهم البحرية إلى المغرب وجزر البحر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصر نفسها كانت بلداً كنعانياً . وأن اتصال مدينة جبيل بلبنان مع مصر كان في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد وهي صلات روحية لأن السينيين أصلهم من جبيل في لبنان وهم روّاد المرحلة الأولى .

وفي هذه المرحلة الأولى من الهجرات والرحلات التجارية كان أولئك الرواد يقودون مراكبهم عبر البحر الأبيض المتوسط ذهاباً وإياباًسواء كان ذلك عن طريق مصر البحرية ، أو عن طريق جزيرة قبرص البحرية إلى مدنهم على الشواطىء الإيطالية والفرنسية « مرسيليا » إلى ترشيش في شبه جزيرة إيبيريه « إسبانيا » إلى قادس جنوب « إسبانيا » ثم إلى طنجة وسواحل المغرب الكبير .

البحر المتوسط بحيرة فينيقية

وفي هذا الخصوص يقول المؤرخ الدكتور فيليب حتّي في كتابه تاريخ لبنان : « وهكذا أصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة فينيقية[٢] ، قبل أن يصبح فيما بعد بحراً إغريقياً أو رومانياً » ثم قال في مكان آخر من الكتاب : « لقد سمي بالبحر الأبيض المتوسط ، لأنه كان يتوسط المستعمرات الكنعانية[٣] . وقال في مكان آخر : ولم يقتصر نشاط الكنعاني على نشر الحضارة على سواحله بل أنه جعل من البحر الأبيض المتوسط مركز إشعاع

(١) سينيّة : نسبة إلى سين بن كنعان.
(٢) فيليب حتّي تاريخ لبنان، ص ١١٧ .
(٣) نفس المصدر السابق.

حضاري تنبعث منه تيارات فكرية وروحية من وادي النيل إلى وادي الفرات »[1] .

وقال أرنولد توينبي[2] عن اكتشافات الفينيقيين في الجزر البريطانية وجزر الأزور : « لا مؤرخو الإغريق ولا الرومان ذكروا لنا شيئاً عن معرفتهم بهذه الجزر ، ومهما قيل في هذا الأمر فإن الحقيقة البارزة هي أن اكتشاف الفينيقيين « لبحر الظلمات » أي المحيط الأطلسي يُعدّ مفخرة وعملاً مجيداً يتوّج مآثرهم في حقل الحضارة العالمية »[3] . ومن المعروف أن الرومان استعمروا بريطانيا في القرن الأول الميلادي أي بعد مئات السنين من الوجود الفينيقي ، أي الكنعاني وذلك هو اسمهم الأصلي .

قال حزقيال في الأصحاح ٣٠ و ٣١ بدءاً من الآية ١٥ ، وهو يرثي مصر ويذكر هجوم نبوخذ نصّر عليها . . مع أنه لم يحتل مصر :

« واسكب غضبي على « سين » حصن مصر[4] واستأصل جمهور نو[5] « الجد الأعلى للأسرة الحامية الكنعانية » وأضرم ناراً في مصر . سين تتوجع توجعاً ونو « نوح » تكون للتمزيق » .

حملات المصريين على فينيقيا

أما في المرحلة الثانية التي بدأت من عام ١٥٧٠ق .م وذلك عندما

---

(١) نفس المصدر السابق: ص ١٣٩ .

(٢) أرنولد توينبي: (١٨٥٢ ـ ٨٢) مؤرّخ اقتصادي ومصلح إنجليزي كانت محاضراته في الثورة الصناعية بحثاً رائداً في التاريخ الاقتصادي. عني بتطبيق الطريقة التاريخية على دراسة علم الاقتصاد. وعلى الرغم من أنه توفي في مقتبل شبابه فقد أثر تأثيراً عميقاً في تلاميذه ومعاصريه (المرجع السابق).

(٣) أرنولد توينبي دراسة في التاريخ المجلد الثاني ص ٥٢ و ٣٨٦.

(٤) حصن مصر: بمعنى حاميها.

(٥) نو: يعني نوح.

شنّ ملوك مصر حملتهم الانتقامية ضد سكان كنعان « فلسطين » ولبنان وسوريا . بعد طرد الكنعانيين « الهكسوس » من مصر فطاردهم أحمس الأول ١٥٧٠ق .م ـ ١٥٤٥ق .م عبر فلسطين ، ثم تابع مطاردتهم من بعده خلفاؤه ، ولكن الكنعانيين صمدوا في مدينة مجدو القريبة من حيفا . فشن عليهم تحوتمس الأول ملك مصر ست عشرة حملة عسكرية كلها في فلسطين . إلى أن سقطت مجدو[١] عام ١٤٦٨ق .م وكان ذلك نذيراً بسقوط فلسطين جميعها ـ بعد أن هدم ملوك مصر جميع مدنها ـ وضمّوها إلى الامبراطورية المصرية ، وقد حارب في معركة مجدو ٣٣٠ ملكاً كنعنياً من فلسطين ولبنان وسوريا ، ثم تابع تحوتمس الأول زحفه على « قادس » على نهر العاصي ، لمنازلة ملوك العموريين والحماتيين نسبة إلى حماة بن كنعان ، وهو أصغر أبنائه الأحد عشر ، والحتيين فانتصر عليهم ثم ارتد إلى جنوب لبنان فافتتح المدن الكبرى الثلاث : عكا وصور وصيدا . وفي قائمة الغنائم كما يقول الملك تحوتمس الأول المصري : « غُنمنا من ذلك العدو ستة كراسي من عاج وآبنوس وخشب الخروب المطلي بالذهب[٢] ، إلى جانب ستة كراسي صغيرة تصلح موطئاً للقدم تابعة لها وستة مناضد من العاج ومن خشب الخروب ، وصولجاناً من خشب الخروب مرصعاً بالذهب والحجارة الكريمة كان يحمله ذلك العدو ـ والمقصود به ملك صيدا ـ لأنه العدو الأول في حملة الكنعانيين « الهكسوس » على مصر سنة ١٦٠٠ق .م وغنمنا تمثالاً لذلك العدو من الآبنوس المطلي بالذهب وفي رأس التمثال حجارة من اللازورد .

---

(١) مجدو: هرمجدون الوارد ذكرها في سفر الرؤيا، ص ١٦ واسمها الحالي في فلسطين (الجون) محرّفة عن كلمة لاتينية بمعنى كتيبة لأن كتيبة رومانية أقامت فيها.
(٢) تاريخ برستد المجلد الثاني: ص ٤٣٦.

هـذه الغـزوة ومـن بعـدهـا غـزوات تحـوتمـس الثـالـث وكـانـت أفظعهـا وحشيـة . ثـم استـؤنفـت الغـزوات فـي عهـد ستـي الأول ، وستـي الثـانـي ورعمسيس الثاني . وهذه الغزوات قضت على فلسطين قضاءً تامّاً فصار ما تبقى من سكانها وهم الفقراء والمزارعون يسكنون الخيام والأكواخ[1] .

هجرة الكنعانيين إلى المغرب

ثم جاءت « شعوب البحر » وهم البلاسجيون فهدموا مدينة صيدا ثم زحفوا على مدن فلسطين الشاطئية براً وبحراً فأسسوا دولة لهم امتدت من مدينة غزّة في جنوب فلسطين إلى يافا ، ومن هناك أخذوا بالتوسع شرقاً بانتزاع الأراضي من الكنعانيين . وكانت كنعان أي فلسطين قد أصيبت من غزوات ملوك مصر بالفقر والخراب . من جراء أعمال السلب والنهب التي قام بها المصريون الغزاة ، ومن فداحة الجزية والغرامات المفروضة على السكان . ولذلك لم يستطع الكنعانيون « سكان فلسطين » أن يصمدوا طويلاً في وجه الغزاة الجدد وهم الإسرائيليون المتحدون مع الكنعانيين الذين كان لهم خمس مدن في مصر وقد طردوا جميعاً[2] مع اليهود فاستطاع النبي « موسى » أن يوحدهم في سيناء . ولمّا قادهم يوشع من بعده كانوا قد أصبحوا جميعاً « إسرائيليين » أو عبرانيين على اعتبار أن الإسرائيليين الذين هم من نسل يعقوب كانوا قلّة لا يزيد عددهم على ٧٠٠ إسرائيلي ولكن الكنعانيين سكان المدن المصرية الخمس الذين طردوا معهم وانضموا إليهم جعلت منهم جميعاً كتلة بشرية هائلة . فانقضوا على فلسطين واستولوا على أجزاء منها فقط .

---

(١) وليام البرايت في كتابه حفريات فلسطين: (أركيولوجي أوف بالستين).
(٢) فيليب حتّي: تاريخ لبنان، ص ١١٣.

وبذلك استطاع الإسرائيليون أن يتغلبوا على ما تبقى من الكنعانيين في فلسطين بعد أن أباد المصريون منهم ألوفاً عديدة ، وبعد أن دمروا مدنهم ومزروعاتهم وانتهبوا ثرواتهم .

المهم في الموضوع أن ألوفاً عديدة من الكنعانيين من سكان سوريا ولبنان وفلسطين هاجروا إلى المغرب هرباً من الانتقام المصري الذي تجسم في أكثر من ٢٠ حملة عسكرية ابتداءً من أحمس الأول إلى رعمسيس الثاني . ثم تلا ذلك غزوة البلاسجيين[١] حوالي سنة ١١٧٠ق .م . ثم غزوة الإسرائيليين المتحدين مع الكنعانيين وكانوا من سكان مصر وطردوا منها مع العبرانيين في مطلع القرن الثاني عشر ق .م . أو في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

وتتابعت هجرات الكنعانيين إلى المغرب الكبير « وجزر البحر الكنعاني » ويسمىٰ أيضاً البحر الفينيقي أي البحر الأبيض المتوسط ، والمدن الكنعانية القائمة على شواطىء شبه جزيرة ايبيريا واليونان وإيطاليا وفرنسا من جميع المدن الكنعانية في فلسطين ولبنان وسوريا هرباً من الغزو الآشوري بعد الاجتياح المصري ، والغزو الكلداني والغزو الفارسي والغزو المكدوني بقيادة الاسكندر المقدوني ، وهكذا كان سكان الشرق الأدنى يجلون عن بلادهم . . هرباً من الغزاة ليستوطنوا المغرب الكبير وغيره من المدن الكنعانية حول البحر الأبيض المتوسط .

الأساطير الجميلة :

إن الأساطير الجميلة ليست مناهضة للدين كما يزعم المتزمتون ،

---

(١) البلاسجيين : أو البلاسجويين وهم الأهالي الأصليون الذين سكنوا شبه جزيرة البلقان قبل قدوم الإغريق إليها .

وليست مجموعة أكاذيب وتلفيقات كما يزعم المتعنتون أنها في الواقع الصور الفنية في التاريخ القديم والحكايات المشرّفة لأبطاله وملكاته وقصص الجميلات الفاتنات اللواتي تغنّى الشعراء القدماء بجمالهن ومغامراتهن .

وتعتبر في عصرنا الراهن « التاريخ التقليدي » للتاريخ المدوّن ، فملحمة الإلياذة للشاعر الإغريقي هوميروس هي في الواقع مجموعة من الأساطير الجميلة ، تستند إلى حقائق واقعية ، خصوصاً بعد أن اكتشفت مدينة طروادة على ساحل آسيا الصغرى « تركيا حالياً » فاكتشاف آثار طروادة أثبتت بأن أساطير طروادة مستمدة من تاريخها الحقيقي ، وهكذا يقال عن جميع الأساطير القديمة التي تتغنّى بها جميع الشعوب في العالم . فالأساطير في تاريخ الشعوب لها قيمة حضارية ولها في الروايات قيمة أدبية ، وفي الروائع والآثار قيمة فنّية . فقد كانت الأرض حافلة بالحضارات قبل الإسلام بـ ٤٥٠٠ سنة .

وقد عثرنا على جملة من الأساطير المغربية القديمة وهي تحتاج إلى كاتب مغربي نشيط لجمعها وتدوينها ، وتدوين سائر الأساطير المأثورة والمحفوظة في صدور المغاربة أنفسهم من سكان الجبال :

منها أسطورة أو أسطورتان في « الانيادة » القصة اللاتينية الشعرية التي نظمها الشاعر الروماني فرجيل ولها علاقة بقرطاجة الأولى .

ومنها أيضاً أسطورتان في الأدب الإغريقي والروماني جرت حوادثهما في المغرب . الأولى تتحدّث عن رحلة هرقل إلى الجبل المسمى باسم « جبل هرقل » الذي هو « جبل طارق » اليوم وهي تحتاج إلى دراسة ، والثانية أسطورة بيرسيوس وهو بطل من نسل دنايوس ابن البعل

ملك صيدون وهي موجودة في كتاب « التحويل » لعوفيد الروماني ، وهرقل هو حفيد بيرسيوس .

والتوقيت الزمني لقصة هرقل تعود إلى وقت متقدم بين القرن الثالث عشر والثاني عشرق .م . أمّا قصة بيرسيوس فتعود إلى وقت مبكر جداً ما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر ق .م .

وهناك أسطورة « أوريسيوس » للشاعر هوميروس التي تروي قصة جنوح سفينته إلى شاطىء اللوتس في تونس ، أي « جزيرة جربة » الحالية . وكان سكانها كما تزعم الأسطورة يأكلون زهرة اللوتس[١] وليس في ذلك ما يعيب ، وهناك أسطورة أتيلا[٢] ، وأسطورة هرقل في طنجة الموجودة في هذا الكتاب .

وقصة أتيلا ترتد في قدمها إلى حروب الجبابرة على الشواطىء أو في المدن المغربية .

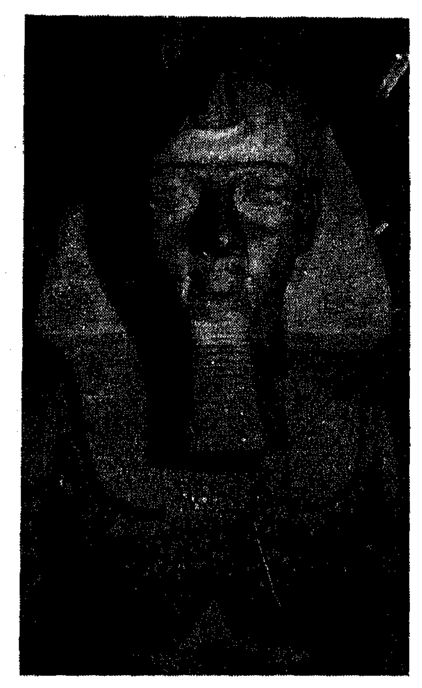
وثمة أساطير عديدة في « كتاب التواريخ » للمؤلف هيرودوتس منها تأسيس مدينة كيرينيا« سرينيا » عل شاطىء ليبيا .

---

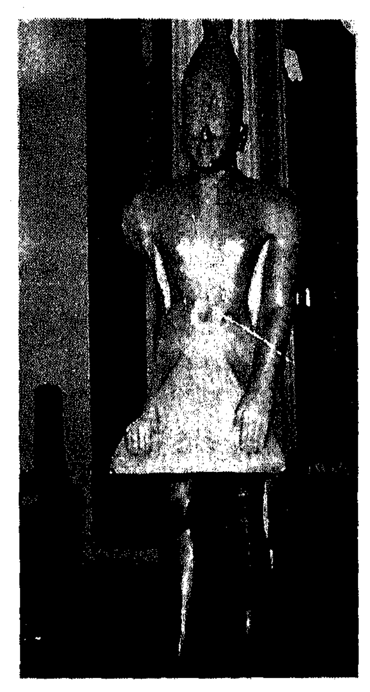
(١) اللوتس: أو عرائس النيل كما يسمى في مصر، لعبت هذه الزهرة دوراً كبيراً في الميثيولوجيات القديمة في مصر واليونان والهند وهذا الاسم يطلق على خمسة أنواع من الأزهار قريب بعضها من بعض.

(٢) أتيلا: ملك الهون حوالي (٤٣٣ ـ ٤٥٣). دعي سوط الله. أكره روما على دفع أتاوة له طلبت ـ جراتا ـ أخت الإمبراطور فالنتنيان (سراً) الزواج به فطلب نصف الامبراطورية بائنة. فلما رفض طلبه غزا غالة فهزمه ايتوبس في شالون (٤٥١) بعد أن تحالف مع الجرمان. ويروى عن أتيلا قوله: (لن ينبت العشب أنّى ضرب حافر جوادي الأرض) وقد تميز الهون بملامحهم الرهيبة التي تلقي الرعب في نفوس أعدائهم. واشتهروا بركوب الخيل ورمي السهام.

إن موقع المغرب الأقصى في الطرف الأغر من الشمال الأفريقي حيث يكتنفه البحر من جهتين يعطيه مركزاً استراتيجياً وتجارياً مرموقاً ، فهو يواجه البحر الأبيض المتوسط من الشمال كما يواجه المحيط الأطلسي من الغرب . ومن هنا كان له ذلك الصيت الواسع في التاريخ القديم على أساس أنه ملتقى تجارة الشرق بالغرب وأنه مهد الحضارة الكنعانية في غربي البحر الأبيض المتوسط . كذلك فهو مهد الحضارة العربية الإسلامية فيما بعد .

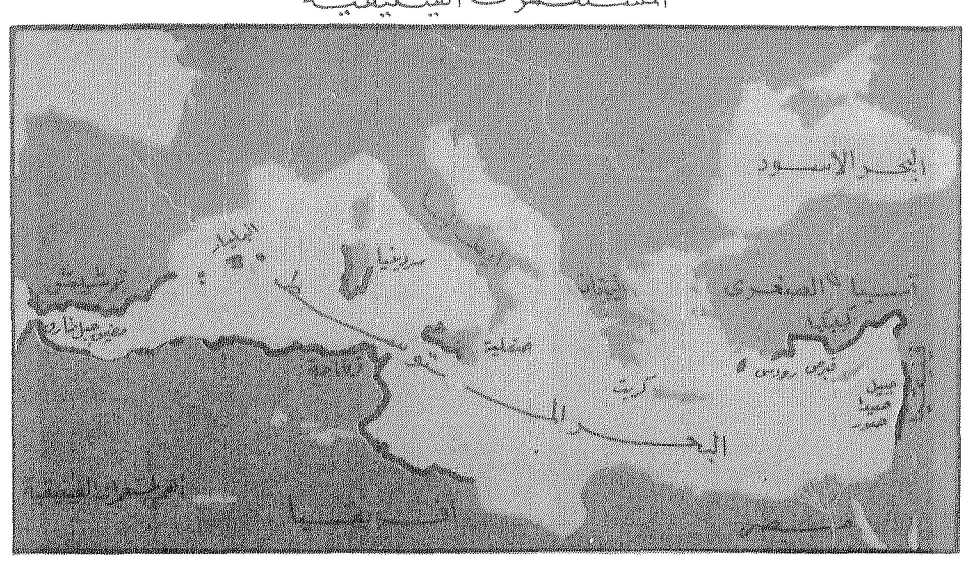


رأس رعمسيس الثاني



تمثال تحوتمس الثالث

المستعمرات الفينيقية



الفصل الرابع

من هم البربر ؟؟ ..

كان المغرب الكبير قد أصيب بعد « معركة زاما »[1] في بداية الاحتلال الروماني عندما تحول شمال أفريقيا من ممالك مستقلة إلى ممالك تتمتع بالحكم الذاتي ، كتغطية بغيضة للاستعمار الروماني ، الذي أطلق على ملوك الكنعانيين اسم « الملوك الأرقاء » كما أطلق على الكنعانيين أنفسهم لقب البرابرة أو البربر احتقاراً لهم وانتقاماً منهم بسبب حروب قرطاجة مع الرومان في البر والبحر ، وللانتصارات التي سجلها قادة القرطاجيين على جيوش الرومان وأساطيلهم لمئات من السنين من قبل . وأنه لأمر مؤسف حقّاً أن نرى لقب « البربر » قد أصبح علماً على ذلك

(١) زاما: اسم مدينة قديمة على ساحل أفريقيا الشمالي في بلاد الجزائر عندها أو بالقرب منها انتصر اسكيبيو أفريكانوس الأكبر على هانيبال (٢٠٢ق.م) كانت عدة مدن تحمل هذا الاسم. (الموسوعة العربية الميسرة).

النسب العريق حتى في العهد العربي ـ لا بل وإلى يومنا هذا . .

ومما يخفف من تأثير هذا اللقب على الشعوب الكنعانية في شمال أفريقيا هو أن اليونانيين المتبجحين ومن بعدهم الرومان المتغطرسين كانوا يطلقون على شعوب الشرق الأوسط كلها ، وشرقي أوروبا وآسيا الصغرى وفارس العظيمة لقب البرابرة . . مع العلم ، بأن حضارة الإغريق والرومان مستمدة من الحضارة الكنعانية ، وكما يقول الدكتور فيليب حتي « أن التجارة البحرية الدولية التي كانت تلعب فينيقية فيها الدور الرئيسي انتقلت بعد سقوط صور إلى أيدي القرطاجيين قبل الرومان ، كما انتقلت تجارتهم البرية إلى أيدي التجار الآراميين أي الفرس » ويستطرد قائلاً : ونستطيع القول أن العالم الفينيقي بحضارته الزاهرة ، ونشاطه الخلّاق وعلومه الراقية ، وحب المغامرة والسعي إلى جمع الثروات عن طريق التجارة الرابحة والفضول العقلي ، الذي كان يدفع بهم إلى آفاق جديدة جميع هذه الحوافز التي كانت مصدراً للنشاط الفينيقي ، غير أن الشعب الفينيقي حافظ على شخصيته المستقلة طيلة الحكم الفارسي في « الشرق الأدنى » بعد أن نشر الفينيقيون حضارتهم في جميع أطراف حوض البحر المتوسط ، فالفينيقيون هم الذين أغنوا الحضارة الأوروبية في عصور ما قبل ميلاد المسيح عن طريق إدخال النباتات النافعة والمعادن التي تدخل في مختلف الصناعات[1] .

صور الصامدة تتحدّى

لقد تحدّت مدينة صور العظيمة الآشوريين ، ثم الكلدان بقيادة ملكهم نبوخذ نصّر الذي عجز عن اقتحام أسوارها زهاء ١٣ عاماً ، كما تحدت

(١) الدكتور فيليب حتي : تاريخ لبنان ص١٨٣ ـ ١٨٤ .

الاسكندر المقدوني زهاء سبعة أشهر لم يتمكن خلالها من الوصول إلى أسوارها إلا بعد أن أقام جسراً من التراب والحجارة . ومع ذلك فقد قاد الفينيقيون مراكب محملة بالمواد الملتهبة « الزفت والكبريت ومواد أخرى شديدة الاشتعال »[1] لقذفها فوق رؤوس جنود الاسكندر ، ولم تستسلم صور في تموز عام ٣٣٢ق . م إلا بعد أن هُدمت أسوارها ـ بواسطة الجسر الترابي ـ وبعد أن قتل ثمانية آلاف بطل مقدام من أبطالها ، وبعد أن صلب الاسكندر حوالي ألفي رجل من بحارتها وشجعانها ، وباع في سوق النخاسة ٣٠ ألف نسمة من حُماتها كما تباع الأرقّاء . ولم ينج من سكانها إلا بضعة مئات ممن هربوا بحراً إلى قرطاجة ومالطة ، والذين هربوا إلى صيدا القريبة منها والذين لجأوا إلى هيكل ملقارت[2] ومنهم حامي المدينة البطل الشجاع عز الملك « Azimelcus» وهكذا سقطت صور قبل أن تسقط قرطاجة بأقل من ٢٠٠ سنة .

استقلال صور وشقيقاتها

ولكن صور سرعان ما استردّت عظمتها الحضارية بعد ذلك السقوط المشرف لها في التاريخ ، وإن تكن ظلت خاضعة للإحتلال الإغريقي ثم ما لبثت صور أن نالت امتيازاً باستقلالها ومُنحت مثل هذا الامتياز جزيرة أرواد الكنعانية من قبل الملك كلينيكوس سلوقس الثاني (٢٤٦ ـ ٢٢٦ق . م) ، أما صور فقد نالت امتياز الاستقلال عام ١٢٥ق . م من انطيوخوس أبيفانوس ثم تلتهما المدن الفينيقية : طرابلس وجبيل وصيدا وعكا . وظلت اللغة

(١) المصدر السابق: ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٢) ملقارت MELQART إله فينيقي مقدّس نمثله الأساطير بإنسان محارب عنيد يحمي مدينة صور ويرد عنها الأعداء يعتقد الإغريق أنه هو هرقل الجبار (موسوعة الأعلام الفرنسية) .

الكنعانية اللغة الرسمية في فينيقية كلها والآرامية في سوريا إلى ما بعد القرن الرابع بعد الميلاد .

اللغة الكنعانية لغة سكّان الشمال الأفريقي

وقد ظلت اللهجات الكنعانية حيّة بين سكان شمالي أفريقيا حتى القرن الخامس الميلادي ، وإلى ما بعد دخول الفاتحين العرب ، ولكن اللغة العربية طغت على اللغة الكنعانية عندما أصبحت اللغة الرسمية ابتداءً من عهد الأدارسة ومع ذلك فقد ظلت الكنعانية موجودة في صدور وعلى ألسنة سكان السهول والجبال خصوصاً بين قبائل صنهاجة ومصمودة وزناتة .

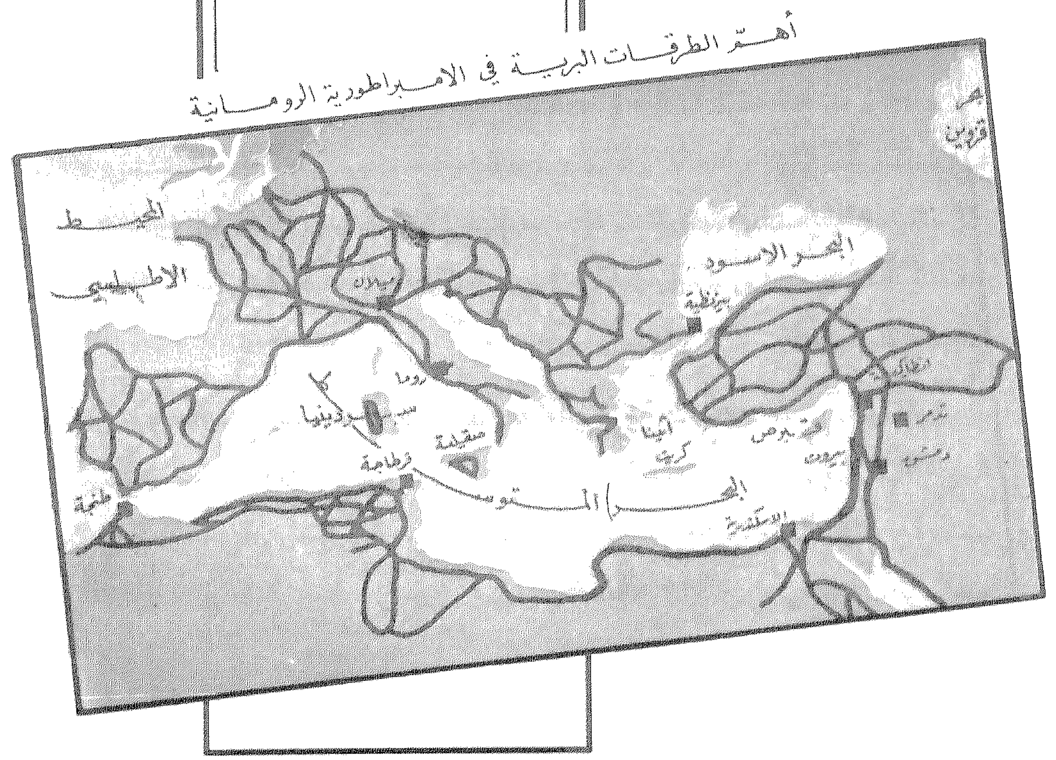
والمؤرخون الكلاسيكيون يسمّون اللهجة الكنعانية قبل الفتح العربي للمغرب الكبير اللهجة الفينيقية ـ البونية . وكان السكان القاطنون حول مدينة « هبّو » يسمون أنفسهم كنعانيين حتى أواخر القرن الرابع للميلاد . وكان مطران مدينة هيو المشهور القديس أوغسطين سنة «٤٣٠» يستعمل في مواعظه بعض المفردات الفينيقية وفي خليج سرته في ليبيا ظلّوا يستعملون اللسان الكنعاني حتى القرن الحادي عشر الميلادي[١] .

(١) انظر ماورس MOWERS الجزء الثاني، ص ٤٧٨ .



الباب الثالث

أهم الطرقات البرية في الامبراطورية الرومانية



الفصل الأول

تاريخ ما قبل التاريخ

أما وقد اتّضحت الرؤية وانجلت الحقائق عن تاريخ العصور الحجرية في شمال أفريقيا وكنعان وشبه جزيرة إتيكا ـ ايبيريه ـ أي الأندلس ، بالأسانيد والثوابت والمقارنات فإننا نستطيع الآن أن نسير قُدُماً في استجلاء حقائق أخرى تتعلق بتاريخ الكنعانيين ونشاطهم الحضاري حول البحر الأبيض المتوسط .

إن أقدم شعب كنعاني مارس الأعمال التجارية عبر البحار والمحيطات هم « السِّينيّون »[1] وقد ذكر المؤرخ هيرودوتس « أن السينيين كانوا منتشرين على طول شواطىء البحار والمحيطات ونهر السين في باريس إنما سمي باسم سين بن كنعان فكلمة پارس « باريس » اسم كنعاني ، وهناك

---

(١) السينيون : قوم ينتسبون إلى سين بن كنعان.

مدن عديدة في فرنسا تحمل أسماء كنعانية مثل بل ، وليل ، ونيس . ومقاطعة برغندي قريبة من لفظة برقة . . وبريتاني سميت على اسم بيروت المحرف من « بريت » .

وذكر المؤرخ بلوتارك الإغريقي في ص ٢٢ في أخبار رومولوس من كتابه الشهير حياة نبلاء الإغريق والرومان « أن السّبنيين Sabines » وهم أصول الشعب الروماني الإيطالي كانوا من السينيين نسبة إلى سين بن كنعان وكان ملكهم في عهد رومولوس يدعى « عقرون » لعدم وجود حرف « العين » في اللغات « اللاتينية والانجلو ـ سكسونية وحرف القاف أيضاً فإنها تكتب وتلفظ : « أكرون ـ ACRON » .

بلاد ومدن أوروبية تحمل أسماء كنعانية

وثمة حقائق تاريخية هامة لا لبس فيها ولا إبهام . ذكرها الدكتور فيليب حتّي ـ أستاذ التاريخ العربي ورئيس قسم الدراسات الشرقية في جامعة برنستول الأمريكية ـ في كتابه تاريخ لبنان ذكرها وهو يتحدث عن شبه جزيرة ايبيريا « إسبانيا » أو الاسم القديم اسبانيا والبرتغال فقال : « أن الفينيقيين استقروا في ترشيش على ساحل إسبانيا الشرقي وهي تحمل اسم مدينة طرسوس الكيليكية التي تفخر بكونها مولد بولس الرسول ، وقد ورد اسم ترشيش في التوراة وفي النقوش الآشورية وتعني مدينة التعدين .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفينيقيين هم أنفسهم الكنعانيون وكانوا يعرفون باسم الكنعانيين طيلة الحقب التاريخية القديمة ، والأغارقة اليونانيون أطلقوا على كنعانيي لبنان منذ القرن العاشر ـ قبله أو بعده بقليل ـ اسم الفينيقيين .

واشتهرت ترشيش الإسبانية في التاريخ القديم بأنها مكان للتعدين ثم

ما لبثت أن أصبحت مدينة . ورحلات الكنعانيين إلى ترشيش الكنعانية سبقت تأسيس مدينة قرطاجة قرت ـ حدث « أي القرية الحديثة » ببضع مئات من السنين .

ويقول الدكتور فيليب حتّي في كتابه المذكور[١] : والإسمان طرسوس وترشيش واحد في اشتقاقهما . وقرطجنة « الايبيرية ـ الاسبانية » سميت باسم قرطاجة الأم في شمال أفريقية في تونس . . واسم مدينة ملقا الايبيرية كنعاني الأصل ومعناه « مكان الشغل » لأنه كان فيها معامل لتمليح السمك وحفظه[٢] . وقد ذكر ذلك أيضاً المؤرخ سترابو[٣] في كتابه الثالث الفصل والقسم ٤ ـ ٤ . ومدينة قرطبة بناها الكنعانيون أيضاً . وهي مؤلفة من « قرت » بمعنى القرية « وطيبة » وقد عثر فيها على نقود قديمة تحمل كتابات بالحروف الكنعانية . وفي هذه المدن حشد هملقار برقة أبو هنيبعل جيوشاً لمحاربة روما . والجزء الثاني من اسم هملقار برقة من لفظ كنعاني مشترك معناه البرقة ، واسم برقلونة « برشلونة » من الجذر ذاته . وهكذا كانت هذه المستعمرات في شبه جزيرة ايبيرية موطناً ثانياً للحضارة الكنعانية القديمة في الجزء الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط .

واشتهرت في التاريخ القديم مدينة قادس[٤] في إسبانيا وهي تقع في مواجهة الشاطىء المغربي حيث مدينة طنجة التي بناها الكنعانيون أيضاً .

---

(١) فيليب حتّي: المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق، ص ٢٤٢.

(٣) سترابو: أو سترابون: سبق التعريف به.

(٤) مدينة قادس: جنوب غرب إسبانيا في الأندلس على المحيط الأطلنطي أنشأها الفينيقيون حوالي سنة (١١٠٠ق.م) باسم غادير واستولت عليها قرطاجة حوالي (٥٠٠ق.م). ظلّت مزدهرة في عهد الرومان الذين استولوا عليها في القرن الثالث ق.م. وسمّاها جادس. استعادتها قشتالة من العرب سنة ١٢٦٢ ازدهرت من جديد بعد اكتشاف أميركا.

والدكتور فيليب حتّي كما هو معروف متأثر بالآراء الغربية لأنه يقتبس وينقل من كتبهم والمؤرخون الغربيون خصوصاً في عهد الاستعمار الأوروبي البغيض لا يحرفون الأسماء الكنعانية فحسب بل ويشوهون الحقائق التاريخية تعصباً للغرب وعدم اعتراف بحقوق الشعوب الكنعانية التي سبقت بوجودها ما يسمى حالياً بالدول الأوروبية .

فهو يقول عن جزر البليار « Balaric » أن سكانها من العرق ذاته الذي ينتمي إليه سكان شبه جزيرة ايبيرية ، ثم يعترف ـ حسبما اقتبس من مؤرخي الغرب ـ بأنه كان للكنعانيين نقاط كنعانية . ولكنهم لم يحتلوا البلاد ، ولم يستولوا عليها . ثم يغالط نفسه فيقول : وقد يكون اسم عاصمة الجزيرة مينورقة أي ماهون ـ من أصل كنعاني لأنه في شكله الأول يظهر أنه كان ماجو « Mago » تحريف للفظ كنعاني معناه « المجن والترس » وكان هذا الاسم (ماجو) اسم قائد عسكري من قرطاجنة وكذلك كان للكنعانيين مراكز تجارية في كورسيكة وسردينية ومدينة بليرمو التي ما زالت إلى يومنا هذا في إيطاليا تحمل نفس الاسم وتقوم على مواقع كانت في الماضي مواقع كنعانية[1] .

إن الزعم الذي يقول بأن جزر البليار لم تكن كنعانية زعم خاطىء ، وجملة القول أنه كان للكنعانيين « نقاط ارتكاز » تلاعب بالألفاظ ، لأن هذه الجزر كانت جزر البعل « Bal -aric » وهذا دليل لا يستطيع إنكاره أحد في النصف الثاني من القرن العشرين .

وعندما يصل الدكتور فيليب حتّي إلى اسم جزيرة مالطة . يقر ويعترف بأنها من جذر كنعاني وهو لا يقول « كنعاني » بصراحة بل « من جذر سامي »

---

(١) فيليب حتّي: ص ١٤٣.

لماذا ؟ لأن الغربيين اتّفقوا فيما بينهم على محو اسم كنعان من الوجود واستبداله باسم سام . . ويدرج تحت الاسم « السامي » كل شيء فينيقي ولكن لماذا أيضاً ؟ لأن اسم كنعان الذي حرّفه الأوروبيون إلى « كان » يطلق على مناطق ومدن عديدة في أوروبا . مثل مدينة « كاني » أي كنعان في إيطاليا التي سجل فيها القائد القرطاجي هنيبعل انتصاراً حاسماً على الجيش الروماني وكانيا في اليونان[1] . واسم منطقة « كان » في شمال فرنسا . . كما وأن اسم البلقان مشتق اسم بعد كنعان .

نعود إلى مالطة المشتقّة من جذر « ملط » الكنعاني كما يقول الدكتور حتى ويؤكد ذلك بقوله ومعنى ملط (هرب)[2] وتفسير هذا الاسم أصبح مقبولاً عند جماعة المؤرخين وقد ذكر المؤرخ ديودوروس أن سكان جزيرة مالطة كانوا من الفينيقيين أي الكنعانيين وأن اللغة المالطية قد احتفظت إلى يومنا هذا بكثير من المفردات الفينيقية التي طرأ عليها شيء من التحريف والتغيير[3] .

---

(١) كانيا: سيدونيا عند اليونانيين القدماء. وهي الآن عاصمة جزيرة كريت على خليج كانيا استولى عليها الرومان سنة ٦٩ق.م. والعرب ٨٢٦ والبيزنطيون ٩٦١ والأتراك ١٦٤٥ وأصبحت من مستعمرات البندقية في القرن الثالث عشر. من معالمها كاتدرائية ومساجد عديدة وترسانة (الموسوعة العربية الميسرة).

(٢) مَلَط: يقال ملطَ البنّاء الحائط طلاه بالملاط. ومالَطَهُ ممالطة إذا قال الشاعر نصف بيت وأتمّه الآخر. يقال بينهما ممالطة. ومالطه، خالطه. (المعجم الوسيط).

(٣) الدكتور حتّي: نفس المرجع السابق: ص ١٤٣.

الفصل الثاني

الحضارة الكنعانية

لقد كان الكنعانيون مثل الماء والهواء في أوروبا موجودين في كل مكان ، كانت لهم فيها مدنهم وتجارتهم وصناعاتهم في مدنهم الشاطئية وفي مدنهم الداخلية ، وكما كانوا يبنون ويشيدون مدنهم على الشواطىء البحرية ، كانوا أيضاً يبنون مدنهم على شواطىء الأنهر في أعماق أوروبا ففي إيطاليا كانوا في زفنا وتريستا[1] وأكيليا عند رأس بحر الأدرياتيك كما يقول الدكتور فيليب حتّي[2] ، كذلك كانوا في دلماتيا على شواطىء الادرياتيك الغربية وفي سالونا .

وكانوا في وادي الدانوب مثل ابولوم وداكيه وسرميون عاصمة بانونيا

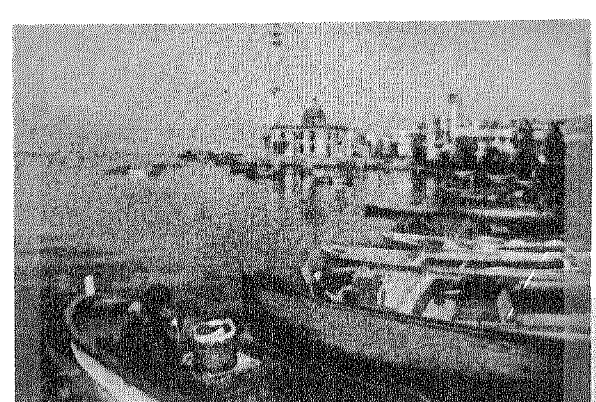
(١) تريستا : مدينة ثغر كبير على رأس الأدرياتيك. بها دور لصناعة السفن ومصانع للحديد ومعامل لتكرير البترول. من المدن القديمة فيها آثار المسارح رومانية عديدة.
(٢) فيليب حتّي : تاريخ لبنان، ص ٢٤٢ .

وهي القسم الشرقي من بلاد النمسا وهنغارية ، كما كانوا في وادي نهر الجيرون في مدينة بوردو ، وفي مدينة ليون على نهر الرون ، واسم ليون كنعاني معناه مدينة ايل الخالد أو المضيء . . « إيل - يون » وفي مدينة « توف » وهي من أصل كنعاني ، وفي الكنعانية « توف » معناها « شُكر » أي « مدينة الشكر » بالقرب من لكسمبورغ ، وفي فرنسا كان ثمة مصنع للزجاج صاحبة رجل صيدوني اسمه « Ennion » إنيون وكان أشهر رجل يصنع الزجاج في القرن الأول للميلاد في أماكن متباعدة مثل مصر وقبرص . وكان له في شمالي إيطاليا كما كان له في جنوبها ، وفي جنوبي روسيا مصانع للزجاج مماثلة لمصانعه في روما[1] ، وصانع آخر للزجاج فينيقي كان له مصنع في مدينة كولون على نهر الراين ، وفي مدينة فينيس « البندقية » اكتشفت بقايا زجاجية فينيقية من صور ، في حين كان بعض الناس في أوروبا يقلدون صناعة الزجاج الفينيقية ، وكانوا يصدرون الفخار من إيطاليا وبلاد الإغريق والسمك المملح من إيبيريه والبضائع الصوفية من غرب أوروبا ، وكان في مدينة أورليان جالية فينيقية تعتبر نفسها في وطنها ، وفي عام ٥٨٥ ميلادية ، لما دخل الملك جونتراند هذه المدينة « أورليان » استقبله الفينيقيون بأهازيج بلغتهم الفينيقية . وكان من أبرز سكان مدينة باريس الفينيقيون الأغنياء ، ففي عهد الميروفنجيين[2] حوالي سنة ٥٩١ ميلادية انتخبوا أحدهم من الفينيقيين واسمه يوسبيوس مطراناً على المدينة وأكثر من ذلك كما يقول الدكتور فيليب حتّي أن المطران يوسبيوس عزل جميع أقرباء سلفه في الكهنوت وعين خلفاً له من أقاربه .

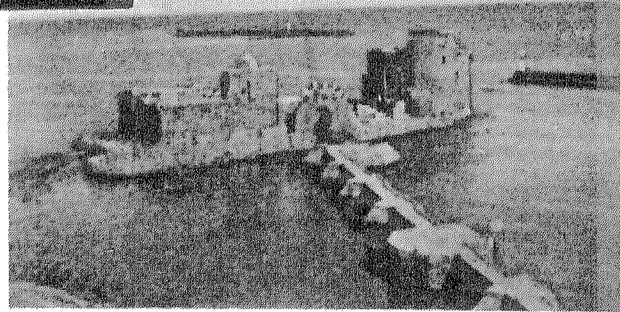
---

(١) فيليب حتّي: تاريخ لبنان، ص ٢٤٢.

(٢) الميرو فنجيّون: أسرة من ملوك الفرنجة انحدرت من ميروفيوس شبه الأسطوري رئيس الفرنجة الساليّين: أسّس حفيده كلوفس الأول مملكة الفرنجة ٤٨١ ثم قسمت بين ذريته إلى ممالك ثم أخذت تتحارب فيما بينها. (المرجع السابق).



صورة المرفأ

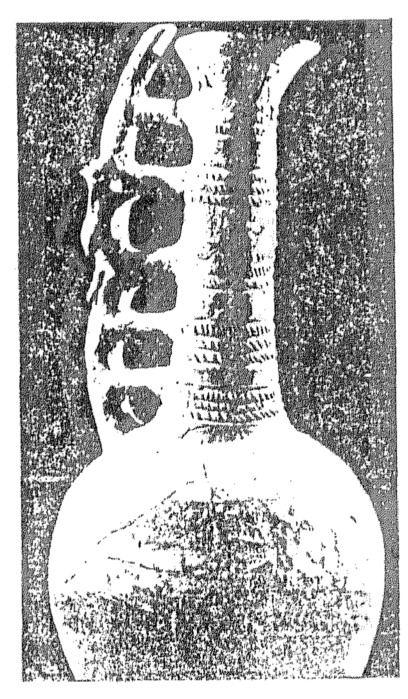


صيدا قلعة البحر



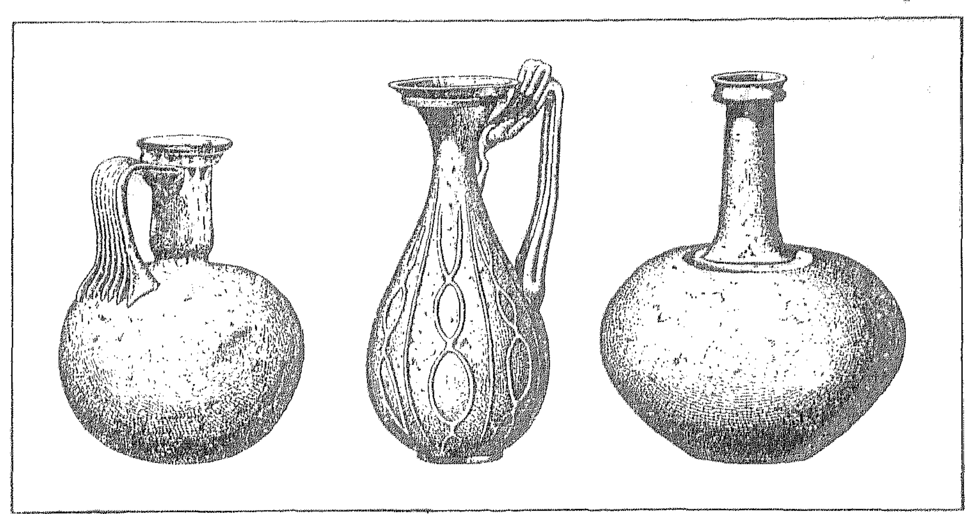
مدينة جبيل، بيبلوس

هياكل وليلي



إناء فخاري

أواني زجاجية فينيقية



الفينيقيون ينقلون الدين المسيحي إلى أوروبا

وعند مستهل القرن الرابع الميلادي نجد الفينيقيين ينقلون الدين المسيحي إلى أوروبا ولم يكونوا أقل حماسة في نشره من آبائهم وأجدادهم الذين نقلوا إلى الغرب ديانة الفينيقيين وطقوسهم وشعائرهم الوثنية(١) .

وقد ظهر أثرهم المسيحي في الغرب بصورة خاصة في التقشف والزهد والرهبنة والنواحي العاطفية التي كانت ترافق شعائر العبادة ، وكان تعلقهم بالصليب واتخاذه شعاراً دينياً من بين العناصر التي أدخلها الفينيقيون إلى أوروبا في القرن السادس الميلادي .

وكانت جاليتهم في روما أثناء القرنين السابع والثامن الميلاديين من القوّة بحيث أنهم قدموا إلى السدة البابوية عدداً من الباباوات الفينيقيين فطوّب منهم اثنان قديسين(٢) ، هؤلاء الباباوات هم الذين أقاموا جميع الأعياد الكاثوليكية التي تدور حول تعظيم مريم العذراء . ولا غرو فالكنعانيون كانوا يعظمون النساء والعذارى من أسر الأسباط الكنعانية الأحد عشر .

ويتابع الدكتور حتّي سرده للعصور الكنعانية التي يسميها « العصور السامية » فيتحدث عن مدى اتّساع التجارة الفينيقية في بلاد الإغريق « اليونان » وعلى النشاط الذي أبدوه في تأسيس نقاط ارتكاز لهم . فيذكر أن مدينة كورنثوس(٣) حسب الأسطورة الإغريقية يقرن باسم إله فينيقي :

---

(١) LOUIS BREHIER. LES Origines Du Crucifix Dans l'art religieux 3e ed. Paris 1908. Pages: 5-39-43-54-59-62.

(٢) فيليب حتّي: تاريخ سوريا: ص ٤٨٤ .

(٣) كورنثوس مدينة باليونان وهي مدينة قديمة جداً تقع على بعد خمسة كيلم من كورنتوس الجديدة. كانت مدينة غنية قوية في بلاد الإغريق القديمة ومركزاً فكرياً

« ملقارت » الذي عرفه الإغريق فيما بعد بالإله هرقل ، والحقيقة أن هرقل ليس ملقارت .

وهذا أيضاً خطأ لأن الأساطير الإغريقية نسجت ابتداءً من القرن الثالث عشر إلى القرن السابع قبل الميلاد وذلك ما يسمى بعهد الجاهلية الإغريقية بعد موت قدموس ملك بوتيا بمئتي سنة . وفي خلال هاتين المئتي سنة وما بعدها نشبت الخلافات والحروب بين الكنعانيين الذين بنو مئة مدينة في بلاد الإغريق حسب رواية سترابون . مما أدّى إلى تدهور الحضارة الإغريقية التي شادها قدموس الصوري ابن الملك أغينور ملك صور . وتدهور الحضارة أدّى إلى انحطاط المجتمع الإغريقي وإلى « فبركة » القصص حول الآلهة والشخصيات فانحرف الرواة في تلك العصور عن مجرى الحقائق وموّهوها بالبطولات الخارقة بالنسبة للبشر . والمعجزات بالنسبة لآلهة الأولمب . فمدينة كورنثوس أوكورنت وهي أكبر مدينة في مقاطعة كورنثوس لا علاقة لها بالبطل هرقل الذي نسجت حوله الأساطير الخارقة . فمدينة كورنثوس حثية[1] والحثيون ليسوا الهندو ـ أوروبيين كما يزعم كتاب الغرب ومؤرخوهم .

وينحو الدكتور حتّي نحو المؤرخين الغربيين فيسمى تاريخ قدموس الصوري أسطورة قدموس الصوري الذي يعزى إليه شرف إدخال حروف الهجاء إلى بلاد الإغريق وبناء مدينة « طيبة » عاصمة بوتيا القدموسية .

عظيماً وهي من الدوريين كانت موجودة في عهد هوميروس وكانت ذات قوة بحرية عظيمة. أدّى صراعها مع أثينا وتحالفها مع أسبرطة إلى الحرب البلوبونيزيّة (٤٣١ ـ ٤٠٤ق.م). تزعمت كورفو بعد احتلال مقدونيا لها الحلف الآخي إلى أن استولت عليها روما ودمّرتها ١٤٦ق.م أعاد يوليوس قيصر تعميرها. (الموسوعة العربية الميسرة).

(١) حتّيّة: نسبة إلى حتّي بن كنعان.

ويستتبع الدكتور حتي قائلاً : وتقول لنا الأسطورة أنه كان في تراقيا[1] ـ وهو يعني بلغاريا حالياً ـ معادن يعدنها قدموس ومن المعروف أن قدموس كان ملكاً عظيماً وليس معدناً والإنجليز لا يعترفون به . وبعض الأدعياء في لبنان سمّوه « معلماً » .

وفي القرن السابع قبل الميلاد ـ أي بعد الأسطورة بزمن ـ كما يقول الدّكتور حتّي كان المعدنون الفينيقيون يفتشون في تراقيا عن معدن الذهب في مناجم احتفرها أجدادهم في الأزمنة السابقة .

ويقول فيليب حتي أن البلاد التي كانت تعرف باسم أليريه ، والمسماة حالياً البانيا إنما سميت باسم ابن قدموس الصوري « اليريوس » .

وكان لقدموس المشار إليه أخت تسمى « عُروب أو عروبة » وهي من فعل عَرَب يعرب عُروبة وعروباً زوجها إلى ملك كريت وأنجبت منه ابناً هو الملك مينوس ملك كريت وقد خلع اسمها في ذلك العصر على القارة الأوروبية بعد أن حرّف الغربيون حرف « العين » واستبدلوه « بألف » لعدم استعمالهم حرف « العين » في الأبجدية الفينيقية التي نقلها قدموس إلى بلاد الأغارقة ، « عروبا ـ أوروبا » وقبيلة « أوربا » في المغرب من هذا الأصل .

وكان للأرواديين[2] (جزيرة أرواد السورية حالياً) ، عدة مدن أو

---

(١) تراقيا: إقليم يقع جنوب شرق أوروبا ويشغل جنوب شرق طرف شبه جزيرة البلقان ويشمل شرق اليونان وجنوب بلغاريا وتركيا في أوروبا. استوطن التراقيون الأوائل الجهة غرباً إلى البحر الأدرياتيكي ولكن الأليريين دفعوهم شرقاً حوالي ١٣٠٠ق.م ثم المقدونيين القرن الخامس قبل الميلاد. ومع أن الإغريق أسّسوا مستعمرات مثل (بيزنطة) إلا أن تراقيا لم تقتبس الثقافة الإغريقية. أخضع فيليب الثاني ٣٤٢ق.م جنوب تراقيا وحكم ليسيماكس بعد ٣٢٣ق.م معظم الإقليم ثم غرقت في حروب كثيرة بعد ذلك (المرجع السابق).

(٢) الأرواديون: سكان جزيرة أرواد (اسمها القديم أرادوس) بناها الفينيقيون من آثارها

محطات وقلاع حصينة على امتداد سواحل آسيا الصغرى وبلاد الإغريق واليونان وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا . ومملكة بونت في شرقي تركيا أروادية بحتاً .

ومن المعروف أن مدينة طرابلس اللبنانية كانت مؤلفه من ثلاث مدن إحداها أروادية والثانية صيدونية والثالثة صورية . وفي شمالها تقع « أوغاريت »[1] . أما في البحر الأبيض المتوسط وإلى الشمال الغربي من مملكة أوغاريت فكانت جزيرة « رودس »[2] وإلى الشمال منها على محاذاة آسيا الصغرى «ترميا» جزيرة «رود» والى الشمال منها ايضاً كانت قلعة « ترود » وهي طروادة التي اقترن اسمها بحرب « طروادة » بين الأرواديين والأغارقة . . (هذه الجزر كلها كانت أروادية) .

ويقال أيضاً بأن مؤسس الأسرة المالكة في « طروادة » وكان يدعى ايريكتيوس هو نفسه مؤسس مدينة أثينا[3] ولم تكن تحمل هذا الاسم عند

سور من العهد الفينيقي لا يزال حتى اليوم وقد حملت اسم أرواد بن كنعان.

(١) أوغاريت: بلدة قديمة كانت قاعدة مملكة أوغاريت القديمة في غربي سوريا في موقع رأس شمرا قرب اللاذقية. كشفت أطلال المدينة (١٩٣١) ومن أهم ما عثر فيها ألواح من القرن الرابع بالعبرانية القديمة. (الموسوعة العربية الميسرة).

(٢) رودس: جزيرة ببحر إيجة باليونان تجاه آسيا الصغرى وأكبر جزر الدوديكانيز عاصمتها رودس الجزيرة جبلية في الداخل ذات شريط ساحلي خصب. استقر بها الدوريون قبل ١٠٠٠ق.م ووصلت إلى أوج مركزها كقوة تجارية ومركز ثقافي القرن الرابع ق.م. كان تمثال كولوسوس رودس فيها من عجائب الدنيا وبعد اضمحلالها أصبحت حليفة لروما. اشتركت في الحروب الأهلية فاستولى عليها كاسيوس ونهبها (٤٣ق.م) في مدرستها تعلم يوليوس قيصر الخطابة. (المرجع السابق).

(٣) أثينا: مدينة تاريخية، في سهل أتيكا زعيمة الحضارة والديموقراطية في العالم الإغريقي القديم.

وعاصمة بلاد اليونان اليوم، كانت منبع الحضارة الغربية فعلى الأكروبول توجد أطلال البارثنون والبروبيلايا والأرخثيون. وفي أنحار أخرى بالمدينة توجد بقايا إغريقية ورومانية رائعة رائعة يمتزج تاريخ فجر حضارتها بالقصص. كانت السلطة في قبضة أراكنة (حكام) أرستقراطيين عندما أدخل سولون إصلاحات وضعت أساس

تأسيسها . والمقاطعة التي تقع فيها مدينة بنا تدعى « أتكا » أي « عتيق » ومرفأ أثينا يدعى بيريه على اسم بلدة البيرة القريبة من رام اللّه في فلسطين .

ونذكر هنا أيضاً أن مدينة مرسيليا المرفأ الفرنسي الشهير مؤلف من كلمتي « مرس » وهي في الكنعانية والسامية والعربية بمعنى مرفأ وكلمة إيل رب الأرباب لدى الكنعانيين فهي والحالة هذه ـ مرس إيل ـ ومع الزمن اندمجت الكلمتان في كلمة واحدة فصارت « مرسيليا » .

وفي شمال البحر الإيجي تقع جزيرة سامو تراقيا أو « سامو تراق »(١) وهي جزيرة كان يسكنها الساميون وكانت تابعة لتراقيا . وفي سامو تراقيا تزوّج قدموس الصوري بابنة ملك الجزيرة هرمونيا الحسناء . وإلى الجنوب منها جزيرة ساموس(٢) وكانت في الأصل تابعة لمملكة ليديا الساميّة في آسيا الصغرى ، وفي جنوب اليونان جزيرة كريت(٣) وقد فسّر اسم الجزيرتين

الديموقراطية الأثينيّة (٥٩٤ق.م) تقدمت العمارة والفن والأدب فيها تقدماً مدهشاً في العصر الذهبي بزعامة بركليس القرن الخامس قبل الميلاد. فبنى البارثنون ونشر سقراط فلسفته وأقام اسنجيلوس وسوفوكليس ويوربيدس دعائم الدراما الإغريقية. وعندما أخذت قوة أثينا تضمحل احتفظ بمجدها الأدبي كل من أفلاطون وأريسطو وأريستوفان وديموسثينس. عندما توغّل نفوذ روما في بلاد الإغريق لم يعد لأثينا شأن يذكر. . .

(١) ساموتراقيا سامو تريكي باليونانية جزيرة ببحر إيجه ساحتها حوالي ١٨٠كلم٢ ، تقع بين تراقيا وشبه جزيرة غاليوبولي. جبليّة كانت في الزمن القديم مركز عبادة الكابيري أقيم فيها التايك المجنّح الشهير الآن في متحف اللوفر بباريس.

(٢) ساموس جزيرة ببحر إيجة ٥٠٠كلم مربع تجاه غرب آسيا الصغرى إحدى جزر مجموعة سبوراديس جبلية في معظمها استوطنها حوالي القرن الحادي عشر قبل لميلاد واليونان الأيونيون ازدهرت تحت حكم بوليكراتس القرن السادس قبل الميلاد عاش فيها أناكريون وأيسوب الأسطوري. مسقط رأس فيثارغورس وكانون. السلعة الساموسية هي الفخار اليوناني القديم ذو اللون الأحمر الغامق. (المرجع السابق).

(٣) كريت: أكبر جزر اليونان تقع في شرق البحر المتوسط عاصمتها كانيا. وهي جزيرة جبلية إلى حد كبير حضارتها المينوئية القديمة (نسبة للملك مينوس) من أقدم حضارات العالم بلغت أوجها حوالي ١٦٠٠ق.م. ثم انتهت فجأة وبصورة غامضة وقد وجدت

على أنهما من أصل سامي ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور فيليب حتّي حيث قال : ومن جملة الجزر التي وقعت ضمن دائرة النفوذ الفينيقي جزيرتا ساموس وكريت وقد سبقت جزيرة كريت القارة الأوروبية في كونها مركزاً حضارياً هاماً . وذكر أيضاً أن ساموس مشتقة من شمش أي الشمس[1] . أما « كريت » فمن جذر كنعاني « ـ كرت ـ » ومعناه قَطَعَ[2] .

وكما اشتهر في العصور الأولى السينيون الكنعانيون كذلك اشتهرت المستعمرات الحتّية في جزيرة كريت ، وفي كورنتوس في بلاد الإغريق وسرقسطة « سيراكوزا » الحثيَّة وفيها نبغ العالم أرخميدس الحتّي في العلوم الميكانيكية ودافع عن بلاده (سيراكوزا) بمخترعات ميكانيكية أذهلت عقول الرومان ، وقد ألّف الحتيون امبراطورية في آسيا الصغرى امتدت شرقاً إلى بلاد الرافدين « العراق » وغرباً إلى أواسط سوريا ولبنان بالإضافة إلى قبرص بالإضافة إلى مستعمراتهم في قبرص . إن الفيلسوف المشهور أفلاطون هو حتّي الجنسية . وقد ألمح إلى ذلك المؤرخ بلوتارخ[3] ، وهو يروي قصة حياة

آثار رائعة في كنوسوس ترجع لهذه الحضارة. استوطنها الدوريون فيما بعد وأسسوا كثيراً من دول المدن المزدهرة منها كنوسوس وسيدونيا (كانيا حالياً) ورغم أهمية كريت باعتبارها مركزاً تجارياً فإنها تلعب دوراً هاماً في التاريخ السياسي لليونان القديمة. استولى عليها الرومان (٦٨ ـ ٦٧ق.م) والعرب ٨٢٦. (المرجع السابق).

(١) نقلاً عن كتاب: التاريخ القديم للشرق الأوسط لمؤلفه هـ.د. هول ص ٥٢٣ نيويورك ١٩٣٥.

(٢) الكريت ومعناها: التام. يقال سنة كريت وحَوْل كريت تام العدد وكذلك اليوم والشهر. (المعجم الوسيط).

(٣) بلوتارخ أو بلوتارك (٤٦ ـ ١٢٠) مؤرخ وناقد يوناني زار مصر وإيطاليا وأثينا. كتب مؤلفات رومانية ويعقد بينهما موازنة مفصلة وكان نزيهاً فتكلم بأمانة عن الشخصيات الرومانية حتى اعتبر أعظم كاتب للسِيَر والتراجم في العالم القديم يضاف إلى ذلك شهرته عالماً من علماء الأخلاق (الموسوعة الميسرة).

تيموليون[1] وحروبه مع القرطاجيين في صقلية في الصفحات : ١٥ و ٢٠٢ من كتابه .

ونختار هذا المقطع للدكتور فيليب حتّي وقد جاء فيه : أن ازدهار صيدا وصور وغيرهما من المدن الفينيقية وأن عظمتهما ووفرة غناهما كانتا تعتمدان إلى حد كبير على مستعمراتهما المنتشرة حول البحر الأبيض المتوسط ، وقد ظلت هذه المستعمرات من حيث المبدأ تابعة للمدن الأم[2] .

ما لا يدركه مؤرّخو أوروبا

هذا ما أردت الاستشهاد به بأن الفينيقيين أي الكنعانيين نقلوا حضارتهم إلى الشواطىء الأوروبية ، من البحر الأبيض المتوسط إلى الأطلنطي وإلى بحر البلطيق . . وهو بحر الحثّيين الكنعانيين .

وقد يعجب البعض من تسميتي المحيط بالمحيط « السيني » وذلك لأن كلمة « Ocean » « هوشن » محرّفة عن « ها » وهي « ال » التعريف الداخلة على « سين » أي « هاسين » بمعنى المحيط السيني نسبة إلى سين بن كنعان .

هذه اللفتات يعجز عن إدراكها علماء التاريخ والآثار في أوروبا .

---

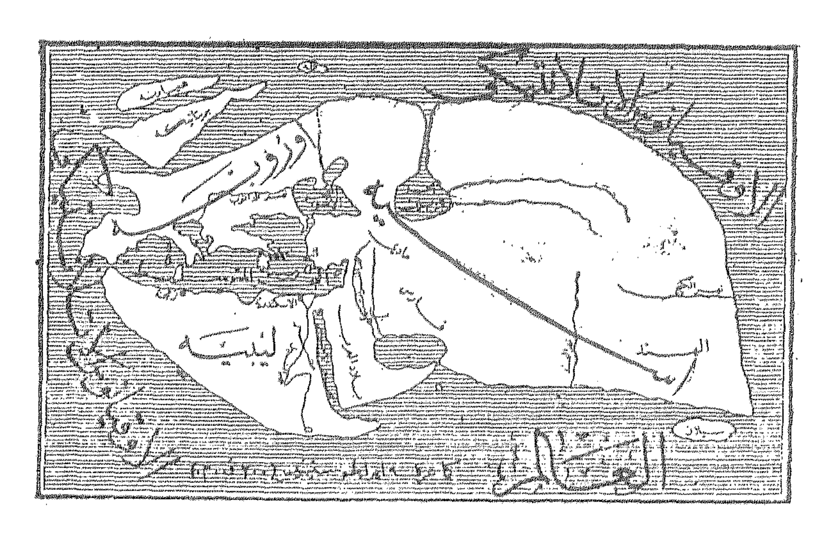
(١) تيموليون: سياسي وقائد إغريقي اشتهر بمناصبة الطغاة عداءً شديداً. كان مواطناً كورنثياً وعندما علم أن سراقوسة تناشد أمّها كورنثة المعونة ضد ديوتيسيوس الأصغر ذهب (٣٤٤ق.م)، على رأس قوة لمحاربة ديوتيسيوس وحلفائه وكانوا القرطاجيين وهيكتاس طاغية ليونتيني فطرد ديوتيسيوس وهيكتاس من سراقوسة وأقام حكومة ديموقراطية لكنه عقد الصلح مع القرطاجيين حوالي ٣٣٨ق.م ثم طرد الطغاة من مدن أخرى في صقلية قبل أن يعتزل الحياة العامة في سنة ٣٣٧ق.م لأن بصره كان في طريق الزوال. (المرجع السابق).

(٢) الدكتور فيليب حتّي: تاريخ لبنان، ص ٢٦٥.

ولكن هيرودوتوس أقدم مؤرخ في القرن الخامس قبل الميلاد لم تفته هذه الحقيقة فأشار إليها عندما قال بأن السينيين كانوا منتشرين حول شواطىء البحار والمحيطات ، كذلك أشار إلى هذه الحقيقة العبرانيون الذين أشاروا في كتبهم القديمة إلى انتشار السينيين حول البحار والمحيطات .



أفلاطون



العالم كما عرفه هيرودوتس

أما على شواطىء شمال أفريقيا المطلّة على البحر الأبيض المتوسط فهناك عدد كبير من المدن التي بناها الكنعانيون ومن أشهرها طنجة وأغادير الشمالية « أجدير » وأغادير الجنوبية المطلة على المحيط الأطلسي وقد اخترنا هذه المدن الثلاث القائمة على شواطىء المغرب ولا تزال إلى يومنا هذا هي وغيرها ، لأن التاريخ القديم يحدّثنا أن الكنعانيين هم الذين بنوا « طنجة » حوالي سنة ١٥٠٠ق .م[1] .

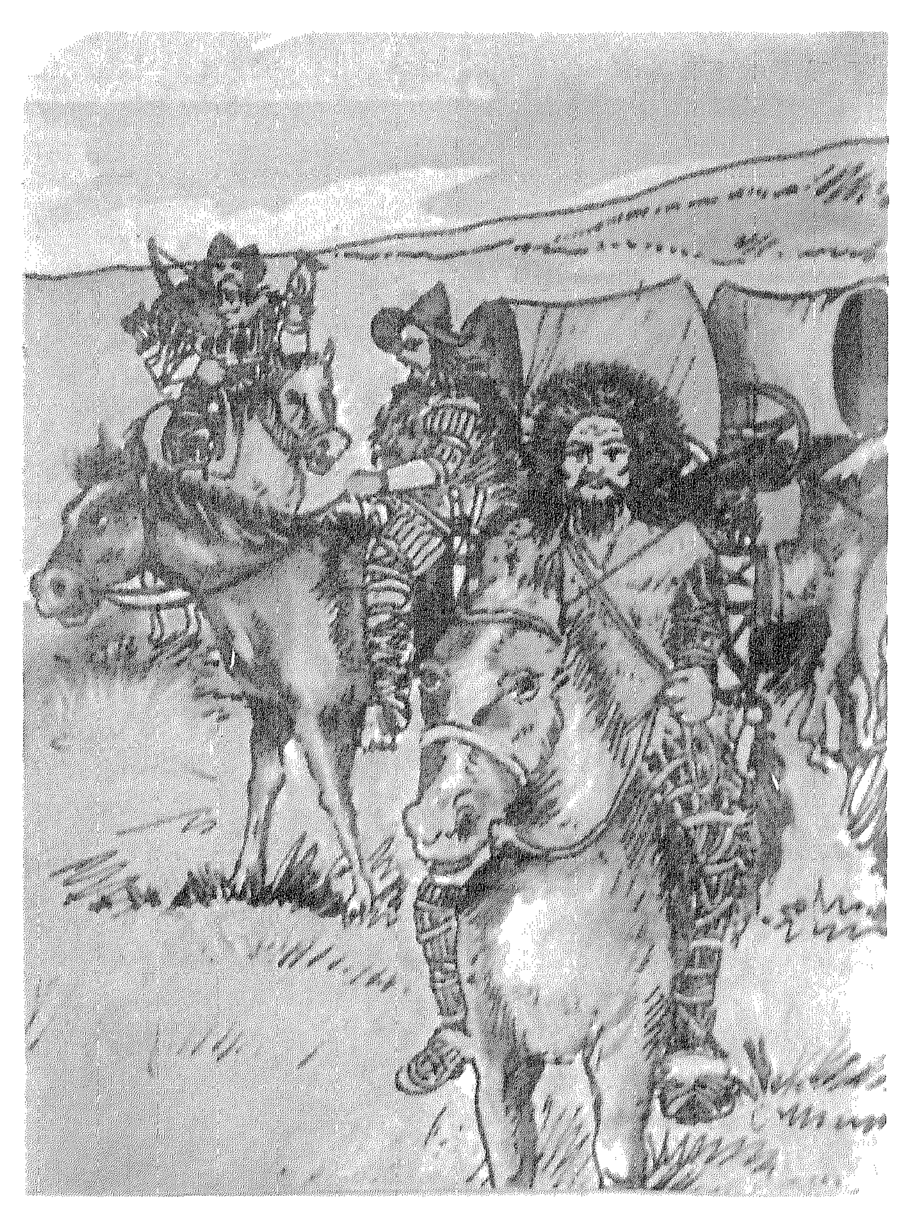
وهناك شخصية « أتيلا »[2] وهو من الشخصيات التقليدية « الأسطورية » التي عاشت في المغرب في زمن طاعن في القدم . ود ورد اسمه في الأساطير القديمة على أنه كان واحداً من الشخصيات الكنعانية التي خاضت حروباً أطلق عليها اسم « حروب الجبابرة » الذين اختلفوا وتنازعوا على تقسيم الأراضي والممتلكات في المغرب وشمال أفريقيا وتحاربوا وهذا كل ما وصل للمؤرخين عن « أتيلا » وحروب الجبابرة ولكن « أتيلا » بصورة خاصة أطق اسمه على المحيط « الأتلانطي » الملاحق للمغرب كما أطلقه على جبال الأطلس المغربية ـ الجزائرية التي ربما كان يطلق عليها جميعاً اسم حدائق « هسبريديس » .

ويقول الدكتور فليب حتّي:

وقد نجح الفينيقيّون كمستعمرين ومنضّمين نجاحاً لايقل روعة عن

---

(١) روم لاندو: تاريخ المغرب في القرن العشرين، ص ١٧ .
(٢) مرت ترجمته معنا.



فرسان من الهون



صورة اتيلا ملك الهون

نجاحهم كتجّار وملاّحين . فإنهم كانوا يؤمون بلداناً عيش أهلها يتصف بالجمود . وأفاق شعوبها آفاق ضيّقة فكانوا يبعثون النشاط والحركة وكانوا يفتحون أمام أعين الناس آفاقاً جديدة بعيدة .

مكتشفون لا مستعمرون

فالدكتور حتّي يضرب بسيف المستعمرين الغربيين ويكتب بقلمهم ، ونحن لا نستطيع أن نبرئه من فكرة التحيّز للغرب . فهو عندما يقول عن الفينيقيين « كمستعمرين » يقولها عامداً كما نقلها عن المؤرخين الغربيين وهكذا كتبها بينما الفينيقيون لم يكونوا مستعمرين بل مكتشفين نقلوا حضارتهم إلى البلاد التي اكتشفوها ، حيث بنوا وشيّدوا مدناً على شواطىء البلاد ومدناً وقرى في داخلها للاستيطان والبقاء واكتشاف المناجم والبناء والتعمير والاشتغال في التجارة والصناعة والزراعة هذه كلها مرافق حضارية من اختراعهم ، لا يمكن أن نسمّيها استعماراً . بالإضافة إلى أن تلك البلاد كانت بحاجة إلى وجودهم الحضاري المثمر ، والمجاهل التي اكتشفوها في أوروبا وشمال أفريقيا لم يكن فيها حكومات وجيوش وعواصم وإلا لكانت طردتهم[١] .

مدن: لا نقاط ارتكاز

من هنا نفهم بوعي وإدراك بأن المدن والعواصم التي أنشأوها لم تكن « نقاط ارتكاز » وهو التعبير المتحيّز الذي يستعمله الدكتور حتّي ، بل كانت مدناً للسكنى والإقامة وتأسيس وطن جديد .

---

(١) إنه لأمر مستغرب من الدكتور فيليب حتّي اللبناني الأصل الأميركي الجنسية أن يستعمل في سرده للتواريخ القديمة نفس الأساليب والتعابير والكلمات التي يستعملها المؤرخون الأجانب من أميركان وإنكليز وفرنسيين وغيرهم دون تدقيق وتمحيص وتحليل فنقل عنهم كما كتبوا المادة التاريخية التي حشا بها كتابه تاريخ لبنان.

فلندن كما يقول محام سوري في كُتيّبه « الفينيقيون » بناها الأرواديون وأطلقوا عليها اسم « أرواد » ثم تغير اسمها فيما بعد فصار لندنيوم . . فلندن . . والفينيقيون عاشوا في كورنوال إحدى المقاطعات البريطانية وكانوا يستخرجون معدن القصدير من جزيرة سلي « Scilly » . وقد أشار إلى ذلك المؤرخ هيرودوتس قال الجغرافي سترابو : كان الفينيقيون يستخرجون القصدير والرصاص من الجزر البريطانية ويتابع قوله : بأن الفينيقيين وحدهم في الزمن القديم كانوا يقومون بهذه السفرات التجارية من قادس الواقعة في جنوب « إسبانيا » إلى الجزر البريطانية وكتب مثل ذلك مؤرخ آخر هو ديودوروس سيقولس ، بعد سترابو بخمس وسبعين سنة فقال : أن التنك كان يُنقل من بريطانيا إلى بريتاني شمال فرنسا ، ثم إلى مرسيليا في بلاد الغال ، وهي « مستعمرة فينيقية » حرّف اسمها الإغريق فسمّوها « مسيليا » ثم عادت واستردت اسمها الكنعاني ـ الفينيقي مرسيليا واحتل القرطجنيون جزر الأزور ، ومهما يقال « فإن الحقيقة البارزة هي أن اكتشاف الفينيقيين بحر الظلمات « المحيط الأطلسي » يعد مفخرة وعملاً مجيداً يتوج مآثرهم في حقل الحضارة العالمية »[1] .

قلنا سابقاً أن كلمة « بريت » الكنعانية تعني بئر وهو اسم بيروت القديم في فينيقيا أي لبنان . ولما اكتشف السينيون الكنعانيون مقاطعة بريتاني واستوطنوها قادتهم اكتشافاتهم إلى الجزيرة الكبيرة الواقعة في شمالها فأطلقوا اسم « بريت » على جنوب تلك الجزيرة كما أطلقوه من قبل على المقاطعة الواقعة في شمال بلاد الغال فرنسا فصارت تدعى بريتاني ، وهكذا كان للسينيين الكنعانيين شرف إطلاق اسم « بريت » على جزيرة

---

(١) أرنولد توينبي: دراسة في التاريخ، الجزء الثاني، طبعة أوكسفورد سنة ١٩٣٤ الصفحات: ٥٠ ـ ٥٢ ـ ٣٨٦.

الضباب التي نعرفها باسم بريطانيا . أو برتن[1] .

والمؤرخون البريطانيون يعرفون ذلك ولكنهم ينكرونه لأنهم يعادون السامية وأصلهم الكنعاني ، ويقولون عن أنفسهم بأنهم هندو أوروبيون لغرض استعماري ما زال كامناً في نفوسهم . فسكان مقاطعة ويلز هم من السيمريين وكذلك سكان مقاطعة سكوتلاندا فإنهم من الكلت أي السيمريين الكنعانيين نسبة إلى سيمير بن كنعان « راجع الأسباط الكنعانية في التوراة » سفر التكوين الأصحاح العاشر وغيره في جداول أسماء الشعوب السامية « الكنعانية » وكذلك سكان إيرلاندا .

ولست أول من اكتشف هذه الحقيقة إنما اكتشفها المؤرخ الكنعاني ـ الإغريقي بلوتارخ الذي ولد عام ٤٦ وتوفي عام ١٢٠ بعد الميلاد وهو بالأصل من مملكة بوتيا الإغريقية القدموسية .

يقول بلوتارخ وهو يتحدث عن شخصية كايوس ماريوس ما يلي : إن الكلت « CELTI » كانوا يقطعون منطقة واسعة تمتد من المنطقة الشمالية في أوروبا ـ أي المحاذية لبحر البلطيق إلى بحيرة ماؤتيس « Maeotis » الواقعة في الجهة الشرقية من بلاد « سكيتيين » القريبة من بنتوس « بونت » الأروادية[2] . وكان الرومان يطلقون عليهم اسم « كلتو ـ سكاتيين » لكن بعضاً آخر كان يسميهم السيمريين وهذا البعض الآخر هو الإغريق .

وعندما احتل السيمريون أجزاء من إيطاليا عرفوا باسم سيمبري . ولما احتلوا أجزاء أخرى من المانيا كانوا يعرفون باسم الكلت أو السِّلْت وما تزال في المانيا مدن باقية ومؤرخة على أن الكلتيين هم بناتها . . أما الأكثرية من

(١) ألان لويد في كتابه (دمروا قرطاجة) مطبعة سوفينير ١٩٧٧ .
(٢) بلوتارخ : ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

الشعب الألماني فهم من الحثّيين الكنعانيين وهذه حقيقة يعترف بها مؤرخو الألمان أنفسهم .

وثمّة كتاب في الانجليزية يدعى (الحتيون) ومؤلفه مؤرخ إنكليزي ، حاول مراراً استدراج المؤرخين الألمان لكي يتفقوا معه على أن الحتيين الألمان ليسوا من الحتيين الكنعانيين الذين ورد ذكرهم في التوراة عندما كانوا يعيشون في فلسطين . ومدينة حيرون « الخليل » هي من بناهم والمغارة المدفون فيها إبراهيم وسارة كان يملكها بالأصل أحد الحتيين وهو الذي باعها لإبراهيم لكي يدفن فيها زوجته سارة ، وتدعى مغارة مكفيلة واسم صاحبها عفرون الحتّي . واشتراها إبراهيم من عفرون بأربعمائة مثقال . هذا وكان الحتّيون الأقوياء قد رحلوا إلى آسيا الصغرى في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد هروباً من المصريين حيث أنشأوا امبراطورية عظمى كما مر معنا في هذا الفصل .



حتّي عتيق وسليله الأرمني الحديث

رأس حتي قديم كما وجد منحوتاً على أحد جدران هيكل في طيبة بيد نحات مصري منذ ثلاثة آلاف سنة وهو يشبه كل الشبه شكل وجوه الأرمن الساكنين حتى الآن بلاد الحثيين كما يرى في الصورة الى اليمين. وهي حديثة العهد وقد اكتسب الأنف الاقنى من الحثيين، جيرانهم الساميون المقيمون في الجانب الشرقي من البحر المتوسط ومنهم الكنعانيون.

شبكة المدن الفينيقيّة

ونعـود إلـى تقصّـي مـا كتبـه الـدكتـور فيليـب حتّـي حيـث قـال فـي ص ١٣٩ : « كانت مراكب الفينيقيين تمخر عباب البحر المتوسط فتربط بين « المستعمرة » والأخرى وبين « المستعمرات » وبين الوطن أي فينيقيا ـ لبنان . ولم تمضِ برهة من الدهر حتى أصبحت مستعمراتهم منتشرة من دلتا مصر إلى شواطىء كيليكية إلى بلاد الإغريق وإلى بلدان أخرى حول « حوض البحر المتوسط وفي الواقع أن اسم البحر الأبيض المتوسط يدل على أنه كان بحراً يتوسط المستعمرات الفينيقية »[١] .

هذا الاعتراف من الدكتور فيليب حتّي له قيمته ودلالته وعظمته أيضاً ولا بدّ هنـا أن نقـف قليـلاً عنـد إقليـم كيليكيـة فـي آسيـا الصغـرى للتنقـل عـن المؤرّخ هيرودوت حولِ مملكة كيليكية الكنعانية قوله : أنها سميت على اسم كيليك أخي قدموس الصوري .

ونعود إلى الدكتور حتّي حيث يقول : « كانت المستعمرات الفينيقية في قبرص ورودس وكريت وفي أماكن أخرى من شرقي المتوسط أسبق عهداً مـن مستعمـراتهـم فـي مـالطـة وصقليـة وسـردينيـة وأمـاكـن أخـرى مـن القسـم الأوسـط مـن البحـر المتـوسـط . وهـذه بـدورهـا كـانـت أسبـق فـي الـزمـن مـن تـأسيسهـم مستعمـراتهـم فـي شمـال غـرب أفـريقيـا فـي شبـه جـزيـرة إيبيريا « إسبانيا » والبرتغال . إن الجاليت الفينيقية في الجزر الوسطى من البحر المتوسط « كصقلية وسردينيا وخلافهما » يعود تاريخ تأسيسها إلى منتصف القرن الحادي عشر ق . م . إن لـم يكن قبله « وهذا هو الأصح » فإن مـدينـة قـادس فـي إسبـانيـا ومـدينـة يـوتيكـا فـي تـونـس تـأسستـا حـوالـي

---

(١) راجع كتاب فيليب حتّي تاريخ لبنان، ص ١٣٩ .

سنة ١٠٠٠ق .م أو قبل ذلك . ويجب اعتبارهما من أقدم المستعمرات الفينيقية في هذه المنطقة[1] .

ولا بدّ لنا هنا من مناقشة تاريخ تأسيس مدينة يوتيكا التي يقول عنها الدكتور حتّى أنهْا تحريف للفظ « كنعاني » معناه « عتيق » من جذر « عتق » فالتحريف هنا وكما اعتقد كثير من المؤرخين القدماء الذين حرّفوا الإسم من عتيق إلى « يوتيكا » أي القرية العتيقة .

هذه المدينة يوتيكا عندما ثار سكانها الكنعانيون أخضعها أشهر ملوك صور حيرام الأول « ٩٦٩ ـ ٩٢٦ »[2] وهذا معناه أن المدينة كانت في أوج ازدهارها في التاريخ المذكور كما يقول فيليب حتي ص ١٢٠ . وهذا يدلّنا على أنها بنيت قبل ذلك بعدة قرون ، لأنها دُعيت المدينة العتيقة ، كما دعيت قرطاجة التي بنيت عام ٨١٤ق .م المدينة الحديثة مقابلة لها بمدينة يوتيكا .

أمّا اسم قادس فمشتق من لفظ كنعاني ومعناه جدار ـ حائط فيكون معنى الاسم « المدينة المسوَّرة » وقد احتفلت مدينة قادس عام ١٩٥٥ بذكرى تأسيسها كمستعمرة للألف الثالث . .

تأسست قرطاجة سنة ٨١٤ق .م على يد الأميرة اليسار الصورية التي أصبحت بعد تأسيس المدينة ملكة على قرطاجة وغيرها . وقرطاجة أحدث عهداً من جارتها مدينة « هبو » الواقعة إلى الغرب منها ، وكانت مقرّاً للملوك والأمراء ، لذلك لقبت بالمدينة الملكية . وهبو « HIPPO » اسم كنعاني ليبي ، وكان الأغارقة يطلقون اسم ليبيا أولاً على شمال أفريقيا ، ثم

---

(١) الدكتور فيليب حتّي: تاريخ لبنان، ص ١٣٩.
(٢) فلافيوس جوزيفوس: تاريخ اليهود الكتاب الثامن الفصل الثالث.

على القارة كلها ، وليبيا اسم لزوجة بوسيدون إله البحر وهي والدة أغينور (أشنار) ملك صور ، وكان أخوه ويدعى البعل ملك صيدا . وكانت صيدا تفتخر بأنها أم لمدينة « هبّو »[1] في شمال أفريقيا ومدينة كيتيوم في قبرص ، وهذا مثبت كتابة على نقودها كأم لمدينة هبّو .

ثم يقول الدكتور حتّي : « أن الهجرات الكنعانية إلى شمال أفريقيا سبقت التوسّع التجاري الفينيقي مما مهّد السبيل لإخوانهم المهاجرين فيما بعد ، وقد تكون تلك الهجرات السامية بمعنى الكنعانية القديمة جزءاً يسيراً من الهجرة السامية « الكنعانية » التي حدثت في الألف الرابع ق . م[2] .

وقد أنجب البعل أخو أغينور ابنين هما دنايوس واجبتوس ، وكلاهما هرب من مصر بعد سقوطها في يد أحمس الذي ثار على الهكسوس أي الغزاة الكنعانيين وطردهم من وادي النيل وقد حكم دنايوس وذرّيته مملكة أركاديا في بلاد الإغريق وأركاديا اسم كنعاني مشتق من « عرقا نسبة إلى عرقا ابن كنعان »[3] .

(١) الدكتور فيليب حتّي: تاريخ لبنان، ص ١١٨ .

(٢) المصدر السابق. ص ١٤٠.

(٣) راجع بلوتارخ في كتابه بورز، ص ٣٣١.

الفصل الثالث

قرطاجة
والحروب القرطاجية - الرومانية

إذا ألقينا نظرة على الخريطة رأينا أن قرطاجة تقع مقابل روما عبر البحر الأبيض المتوسط التي كانت سفنها التجارية تجوبه ذهاباً وإياباً حاملة البضائع في كل إتجاه دون مزاحم أو منافس. أما وقد ظهرت قرطاجة الآن فإن الأمر انقلب رأساً على عقب وأصبح مقابل روما منافس قوي يخشى جانبه. فقد كان يجري في عروق القرطاجيين دم رجال بادية العرب الأشدّاء أصحاب القوافل السامية الذين جعلوا أسواق بابل مركزاً للتجارة الشرقية القديمة قبل أن اقتنت روما أوّل سفنها بألفي سنة وقد مخّرت سفن أسلافهم (الكنعانيين) تشق لجج البحر المتوسط منذ همجيّة إيطاليي العصر الحجري الذين كانوا يتوقّعون بذاهب الصبر قدوم تاجر الشرق إليهم ومعه الأدوات

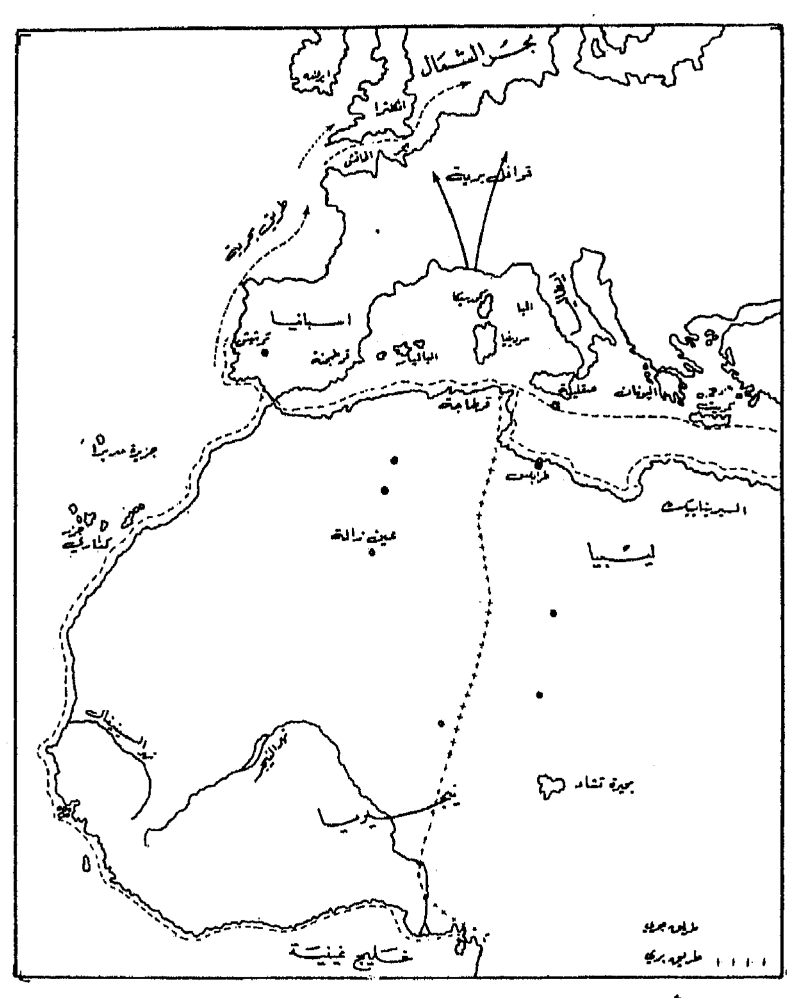
المعدنية ليبيعها منهم. ولمّا كانت روما لا تزال بعد قرية حقيرة محصورة تجارتها في التيبر قبل أن عرف اليونان هذه المياه. كان التجار الفينيقيون أقدم روّاد البحر المتوسط الغربي قد رأوا بعين فراستهم أهمية موقع الرأس الناتىء إلى البحر تجاه صقلية فأسّسوا عند الطرف الغربي من المكان المعروف الآن بتونس المدينة التي صارت ملكة التجارة وأشد منافس لروما.

وكانت قرطاجة كبيرة وجميلة تساوي مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة روما وكانت تمتد إلى الداخل مسافة بعيدة وراء المرافىء والأرصفة المكتظّة بالسفن والبضائع. وكانت لها أسواق فسيحة الجوانب وبيوت لأصحاب الحِرَف والصُنّاع ووراءها منازل أغنياء التجار الفخمة. وكان للمدينة أسوار ضخمة وحصون هائلة[1].

وكانت حدود قرطاجة تمتد من قيريني إلى أعمدة هرقل « جبل طارق وتشمل جزر البليار ومالطة وصقلية وسردينيا وجزر الخالدات وإسبانيا » حتى أنها أصبحت في القرن السادس قبل الميلاد على رأس أمبراطورية ضخمة متّسعة الأرجاء وتشمل بالإضافة إلى ما ذكرنا مدناً منتشرة على شواطىء فرنسا وبريطانيا[2].

---

(١) راجع جايمس هنري برستد: العصور القديمة، ص ٥١٢ و ٥١٥.
(٢) الدكتور فيليب حتّي: تاريخ لبنان، ص ١٤٧.



قرطاجة وأمبراطوريتها

أما المدن[1] الأم مثل صيدا وصور فلم تستطع أن تنشىء لنفسها أمبراطوريات مماثلة لأمبراطورية قرطاجة[2] وأنّى لها ذلك وسيوف مصر وآشور مسلطة فوق رأسها وشبح الاجتياح يهددها مرة بعد أخرى ولكن اتساع الرقعة الجغرافية التي كانت تملكها قرطاجة ، كان لا بد أن يضعها وجهاً لوجه أمام قوّة جديدة وهي روما في أواسط حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكان لا بد لهاتين القوتين من أن تصطدما حول قضية رئيسية ، هي السيادة البحرية ، ذلك لأن أساطيل قرطاجة كانت تعتبر البحر الأبيض المتوسط بحيرة خاصة بها ـ بعدما زال نفوذ صيدا وصور وأرواد وجبيل ـ فكانت قرطاجة تقول للرومانيين أنه لا يحق لهم أن يغسلوا أيديهم بمياهه دون الحصول على إذن من قرطاجة[3] .

طبيعة الحروب القرطاجية الرومانية

بلغ الصراع بين هاتين القوتين أوجه للسيطرة على البحر المتوسط في عهد الأميرال القرطاجي ماجو ومن بعده الأميرال جيسكو ثم أزرو بعل وهملقار والد هنيبعل . وكان بدء الصراع على جزيرة صقلية والمدن الكنعانية القرطاجية . ثم استأنف هنيبعل الحرب ضد الرومان وهو أعظم قادة القرطاجيين على الإطلاق ففي عام ٢١٨ ق .م هاجم بلاد الرومان في عقر ديارهم فقاد جيشه وأفياله نحو إيطاليا تحقيقاً لحلم كان يدغدغ خياله منذ عهد الشباب فاقتحم جبال البيرينيه الوعرة بين إسبانيا وفرنسا مدمراً جيشاً رومانياً بأكمله في غاليسيا ، ثم صعد جبال الألب في ذلك العبور التاريخي بين القمم والهضاب الصخرية المكسوة بالثلوج ، وقد كلفته

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة .
(٢) المصدر السابق . نفس الصفحة .
(٣) المصدر السابق . نفس الصفحة .

المغامرة بضع مئات من جنوده وبعض الأفيال وإحدى عينيه ، ولكنه لم يبال بخسائره بل انقض على شمال إيطاليا كإعصار مدمر فحسق أول جيش روماني اعترض طريقه في تسينوس[١] «Ticinus » ثم انتصر انتصاراً ساحقاً في معركة تريبيا[٢] «Trebia » ثم زحف على روما ، وفي الطريق هزم جيشاً رومانياً ثالثاً قرب بحيرة تراسيمين[٣] عام ٢١٧ق .م ثم قضى على جيش روماني رابع في كاني سنة ٢١٦ق .م .



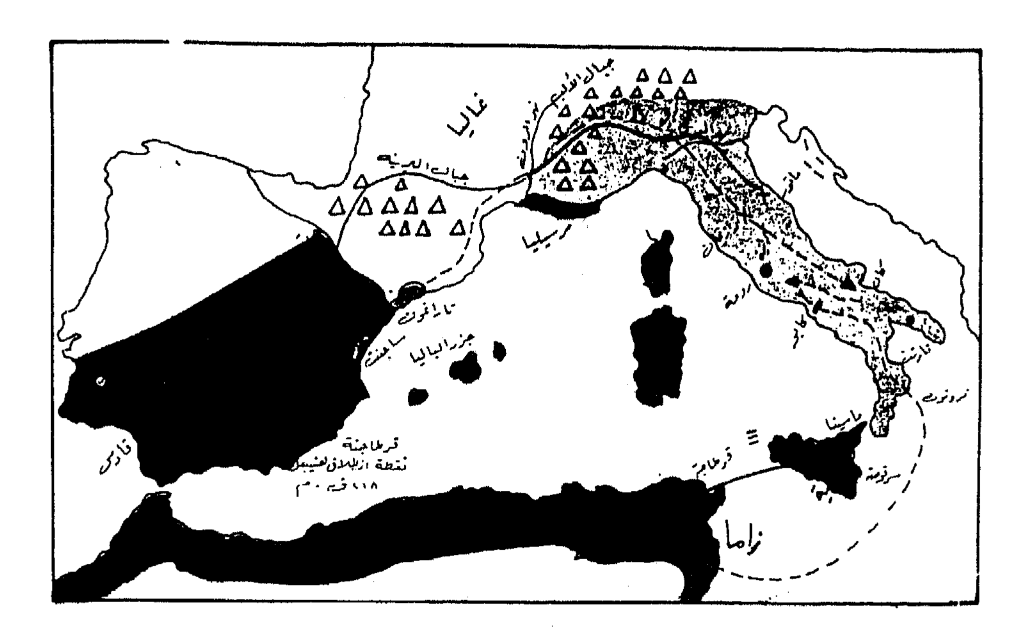
القائد القرطاجي هنيبعل

(١) تسينوس: حالياً TICINO هو نهر بين سويسرا وإيطاليا يبلغ طوله حوالي ٢٤٨ كلم وهو في الحقيقة أحد روافد نهر البو الكبير. ينبع من جبال الألب ويخترق البحيرة الكبرى ويسقي سهول بافيا. على هذا النهر سجل هانيبال انتصاراً ساحقاً على الرومان سنة ٢١٨ق.م (الموسوعة الفرنسية).

(٢) تريبيا: حالياً TREBIE أو TREBIA كما في الإيطالية نهر إيطالي هو أيضاً أحد روافد نهر البو الكبير طوله حوالي ١١٥ كلم عليه أحرز هانيبال انتصاراً ساحقاً على الرومان سنة (٢١٨ق.م) قرب مدينة PLAISANCE أو PLACENZA. (المرجع السابق).

(٣) تراسيمين: TRASIMENE بحيرة كبيرة حوالي ١٢٨كلم² تقع في أواسط إيطاليا على ضفافها سحق هانيبال الجيش الروماني الذي كان بقيادة القنصل فلامينيوس نيبوس عام ٢١٧ق.م.

الطريق التي سلكها هنيبعل في حروبه مع روما





هنيبعل

هنيبعل ينسحب من تحت أسوار روما

ولما وقف تحت أسوار روما آخر معقل بقي للرومان راح يتأمل أسوارها وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة ، ثم أصدر أوامره إلى جيشه بالانكفاء عنها فأثار عمله المستهجن هذا دهشة القادة القرطاجيين فصاح به أحدهم قائلاً : « أنت يا هنيبعل تعرف كيف تنتصر ولكنك لا تحسن الاستفادة من النصر » كان هنيبعل من أعظم قادة الحرب في عصره . فقد سجّل التاريخ اسمه في صفحات المجد والخلود ، وكانت مآثره كثيرة على أعدائه الرومان وهي التي كشفت عن كرم أخلاقه ونبل سجاياه ومنها الحادثة التالية التي جرت على أثر انتصاره في معركة وقعت بين بانتيا وفينوسيا على القنصلين الرومانيين مارسيليوس وكريسبينوس ، وقد قتل الاثنان أثناء المعركة . وكان مارسيليوس من قادة الرومان العظام .

وبعد النصر أمر هنيبعل بإقامة احتفال جنائزي للقائد مارسيليوس الروماني ، فأحضر جثمانه وألبس أفخر الثياب وأحيط بالزينات الجنائزية ، ثم أمر بحرق جثمانه حسب الطقوس الرومانية ثم جمعت عظامه المحترقة ورماده ووضعت كلها في قمقم كبير غطّي بتاج من الذهب[١] .

ولكن هذا الاحتفال الزائد بعدو روماني خطير لم يرق في عين النوميديين الذين كانوا في جيش هنيبعل ، فانتزعوا القمقم ونثروا محتوياته على الأرض .

ولما علم هنيبعل غضب وقال : « هذا عمل من شأنه أن يغضب الآلهة » فأمر بإعادة الرماد إلى القمقم وأرسله إلى ابن مارسيليوس في روما .

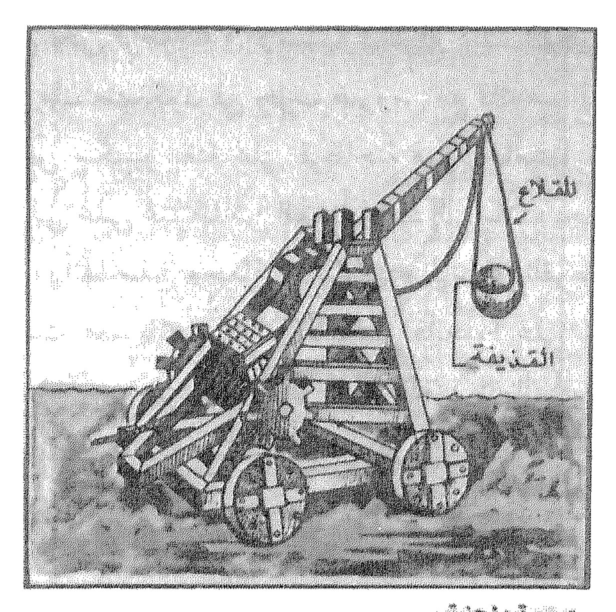
---

(١) بلوتارخ : حياة مرسيليوس ص ٢٦٠ .

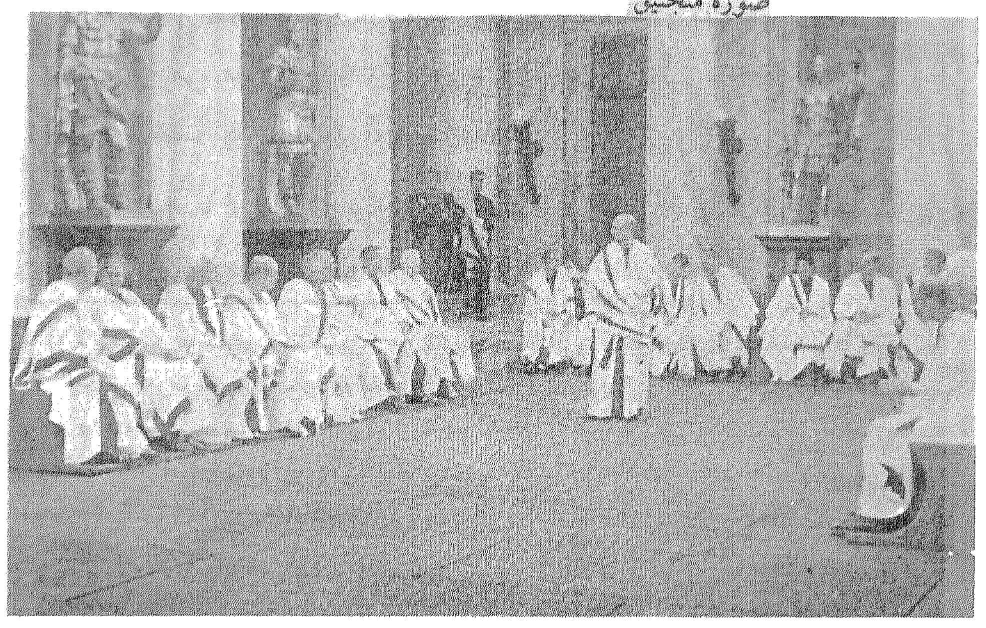
أما الرومان فكانوا من أحطّ البشر أخلاقاً وأكثرهم همجية وحقداً وانتقاماً والدليل على ذلك فيما يلي : في عام ٢٠٧ق .م كان هنيبعل في إقليم ميتوروس Metaurus ، يقضي مع جيشه فترة راحة واستجمام . في حين كان أخوه هاسدروبعل قادماً من قرطاجنة في شبه جزيرة ايبيرية « إسبانيا » على رأس جيش قرطاجي لمساعدة أخيه ، وعلمت روما بمقدمه من جواسيسها ، فنصبت له كميناً ولما اقترب هاسدروبعل من الكمين ولم يكن يعلم بوجوده انقض عليه الجيش الروماني فسحق النجدة القرطاجية سحقاً ، ثم قطع القائد الروماني رأس هاسدروبعل بعد أن وقع أسيراً في يديه ، وجيء بالرأس وقذف به بمنجنيق فسقط في وسط معسكر هنيبعل[1] . هذه الحادثة أثّرت كثيراً على البطل القرطاجي ، ولكنه استمر في القتال لأربع سنوات أخرى قتالاً شديداً مريراً . ولم يرغم على العودة إلى قرطاجة إلا بعد أن استدعته للذود عنها . وكان مجلس الشيوخ الروماني قد اهتدى إلى فكرة نيّرة إذا نجحت أصبح بإمكان روما أن تفتح جبهة جديدة خارج إيطاليا وفي شبه جزيرة ايبيرية لاستدراج هنيبعل وإرغامه على الانسحاب من إيطاليا .

---

(١) تقول إحدى الروايات أنه عندما رأى هانيبال رأس أخيه صاح: آه يا قرطاجة إني أرزح تحت عبء آلامك.



صورة منجنيق


جماعة من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني

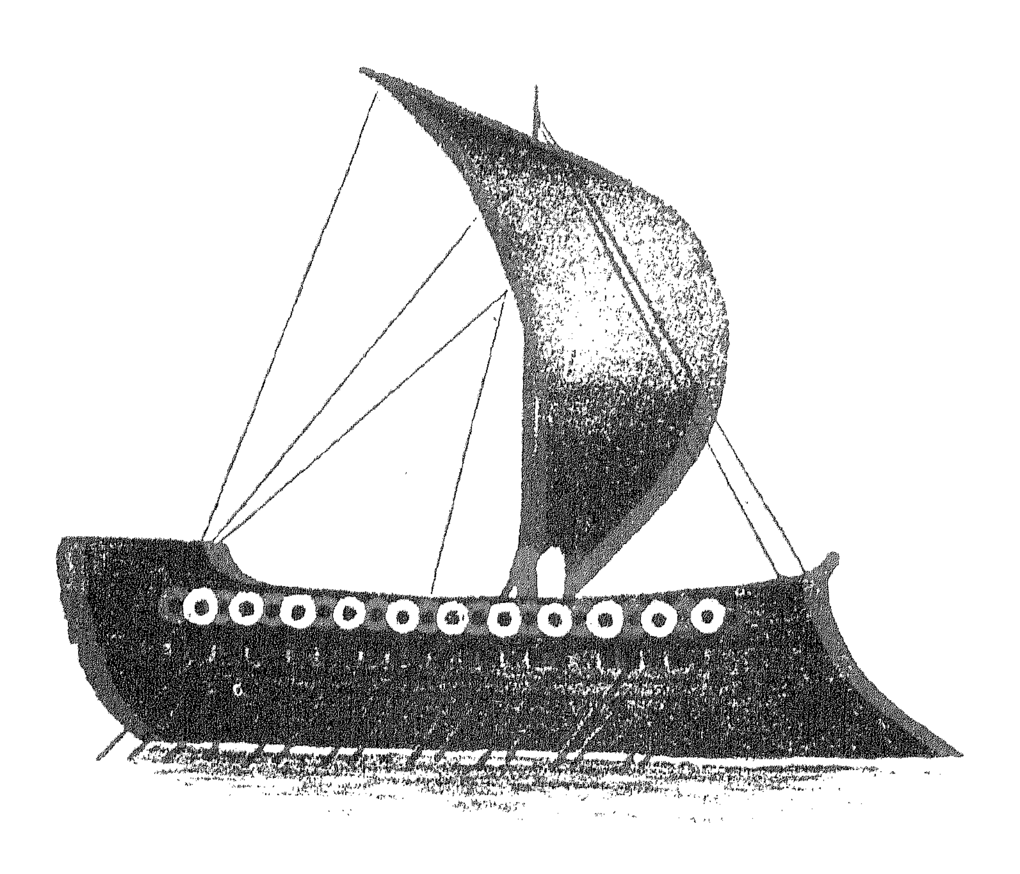
وعلى أساس هذه الفكرة انتدب مجلس الشيوخ الروماني القائد كورنيليوس « سكيبيو »[1] لغزو مدينة قرطاجنة الإيبيرية ابنة قرطاجة الأفريقية . ولم تكن قرطاجنة « الإسبانية » تتوقع ذلك الهجوم ، وأنّى لها أن تتوقعه والرومان منهمكون في حرب ضروس مع قائدهم المظفر في عقر ديارهم . فانقضّ سكيبيو بغتة على قرطاجنة فهزم حاميتها وسلب ونهب المدينة واستولى على غيرها من المدن وعاد إلى بلاده يجر وراءه ذيول الفخار ، ومن ورائها سفن محملة بالأسلاب والأسرى القرطاجنين . فسرّ الرومان وانتعشت معنوياتهم لذلك الانتصار فأنعموا على القائد سكيبيو بلقب قنصل ثم شجّعوه على إعادة الكرة ولكن لغزو شمال أفريقيا بالذات . فأبحر بالأسطول الروماني بعد أن أخذ معه كل الشبان القادرين على حمل السلاح وهاجم نوميديا ، وكانت الفرصة سانحة لهنيبعل أو كما كان يسميه الرومان « الساحر » للانقضاض على روما واحتلالها . لكنه لم يفعل . . وهكذا سجّل سكيبيو انتصاره الثاني في نوميديا فانتهبها وأشعل النيران في معسكرين من معسكراتها وأسر ملك نوميديا حليف قرطاجة بعد مذبحة همجية أصيب بها النوميديون بخسائر فادحة .

عندئذ ، أرسلت قرطاجة بعثة استغاثة لهنيبعل ، وكان في ذلك الحين معسكراً في جنوب إيطاليا وقيل في صقلية ، يناشدونه العودة لإنقاذ وطنه .

(١) سكيبيو أو سيبيو أو شيبيون: من أشهر القواد الرومان وأعظمهم ولد عام (٢٣٤ق.م) حقق لروما انتصارات رائعة على القرطاجيين والنوميديين وأسر ملوكهم ودمّر جيوشهم ولكنه اتّهم فيما بعد بالفساد وتبديد أموال الأمبراطورية. وقد احتج أمام مجلس الشيوخ الروماني ودافع عن نفسه وكذّب التهم الملفقة ضده فلم يفده ذلك في شيء لأن المنافسة بين الحكام وقواد الجيوش كانت عاصفة لذلك حكم عليه بالنفي من البلاد إلى (لترنتة) في حدود العام ١٨٣ق.م فذهب مكرهاً وفي نفسه غصّة ومرارة وبقي فيها إلى أن مات وقد أوصى أن يكتب على قبره (لن تنال رفاتي أيها الوطن الجحود).

وهكذا نجحت خطّة مجلس الشيوخ الروماني ، فاضطر هنيبعل إلى ركوب البحر والعودة بقواته لإنقاذ قرطاجة الوطن المهدد بالاجتياح . بعد أن قضى خمس عشرة سنة في إيطاليا .

من كان يظن أن هنيبعل الذي دوّخ الرومان في بلادهم بانتصاراته المدوية ، ينهزم في الدفاع عن وطنه ، ولكن هنيبعل هو نفسه كان يتوقع هزيمته لعدة أسباب ، فقد كانت قواته منهكة ، أما من الشيخوخة بعد أن طعن قواده وجنوده في السن ، أو من حياة اللهو والانكباب على شرب الخمور ومصاحبة النساء الإيطاليات ، فوهنت عزائمهم وصار على هنيبعل أن يستبدلهم بجنود من الشبان اليفعة . ولكن تدريب هؤلاء الشبان كان يحتاج إلى زمن وهذا الزمن لا يتيحه له القنصل سكيبيو الروماني .



إحدى قطع الأسطول الفينيقي الحربي

المعركة الفاصلة

وفي المعركة الفاصلة بينهما سنة ٢٠٢ق .م أعد هنيبعل خطته على الشكل التالي : إذا استطاع فرسانه جر فرسان الرومان بعيداً عن المعركة لأطول وقت ممكن فإنه قد يستطيع بمشاته وأفياله أن يبيد المشاة الرومان حتى ولو انتصر الفرسان الرومان على فرسانه وعادوا . . فإنه قادر على أن يطحنهم طحناً . .

كان هنيبعل واثقاً من نفسه ولكنه لم يكن واثقاً من فرسانه .

فلما انطلق فرسانه في السهل وقد أرخوا الأعنّة لخيولهم لحق بهم فرسان الرومان ، حتى غاب الفيلقان عن أنظار هنيبعل فانقضّ بمشاته وأفياله على مشاة الرومان وأمعن فيهم ذبحاً وتقتيلاً . وكان على وشك الانتصار لولا عودة فرسان الرومان وحدهم من السهل بعد معركة قاسية استطاعوا فيها الإجهاز على فرسان هنيبعل . . فانقضوا على مشاته فانتعش المشاة الرومان ، فأشرعوا رماحهم الطويلة وسددوها نحو خراطيم الفيلة القرطاجية فجن جنونها بعد أن أصيبت بالجروح فارتدت وهاجمت جنود هنيبعل وما بقي لديه من فرسان وأحدثت فوضى واضطراباً عظيمين أدّيا إلى تحطيم جيش هنيبعل . فاضطر القائد القرطاجي إلى الهرب ، ثم استقل بعض سفنه وتوجّه إلى صور سنة ١٩٦ق .م في فينيقيا ومنها التحق بأنطيوخس السلوقي ملك سوريا[(١)] ، ليكون عوناً له في حربه مع الرومان ولكن النجاح لم يكن

---

(١) انطيوخس السلوقي: هو أنطونيوس الثالث (الأكبر) ملك سوريا (٢٤١ ـ ١٨٧ق.م). عمل على توحيد الامبراطورية السلوقية وتقويتها وإعادة بنائها بعد أن تفكّكت وفصلت بعض الأجزاء عنها. حاول فتح (جوف سوريا) لكن بطليموس الرابع هزمه في موقعه سنة ٢١٧ق.م. فاتجه نحو الشرق ففتح أرمينيا واستعاد بارثيا وباكتريا وذهب وراء كابول عندها سمي بالأكبر. هزمه الرومان بعد فشل المفاوضات معه سنة ١٨٩ق.م،

حليفه وراح يتنقل من مكان إلى آخر وجواسيس روما تلاحقه إلى أن وصل بتينيا « Bithynia »[1] حيث قرّر أن يقدم خدماته إلى ملكها بروسياس .

روما تطارد هنيبعل

وهنا يقول بلوتارخ : لقد كان سكان روما جميعهم يعرفون مكان وجود هنيبعل . عندئذ ، انتدب مجلس الشيوخ الروماني القائد تيتوس ، كسفير للسفر إلى بيتينيا للتفاوض مع الملك بروسياس من أجل القبض على هنيبعل وإعادته إلى روما لمحاكمته .

وكان هنيبعل في أواخر عمره وقد بلغ من الكبر عتيا ، ومع أن بروسياس رفض الإذعان لروما معتبراً هنيبعل صديقاً قديماً نازلاً في ضيافته فلم يستجب إلى إلحاح تيتوس الروماني .

وكان ثمة قرية تدعى ليبيسا تقع على شاطىء بيتينيا الرملي حيث اتخذ هنيبعل القائد العجوز الذي ما تزال روما تحسب حسابه وتخشى من بوادره ، منزلاً لسكناه ، وكان ما يزال حذراً وهو منذ وصوله لم يكن مطمئناً إلى الملك بروسياس لعلمه بأن روما سوف تقنعه بوسيلة أو بأخرى لكي يسلمه إلى سفيرها تيتوس . فاستقدم هنيبعل عمالاً وأمرهم بحفر سبعة أنفاق تحت الأرض من المنزل الذي يسكنه إلى عدة اتجاهات .

ولمّا عرف بسفارة تيتوس حاول الهرب عن طريق الأنفاق الأرضية ،

وأرغموه على التخلي عن كل ممتلكاته شمال طوروس.

(١) بيثينيا: إقليم قديم في الشمال الغربي لآسيا الصغرى يؤلف جزءاً من تركيا الحديثة. نزح السكان الأصليون من تراقيا وأقاموا دولة مستقلة أدمجها قوروش الأكبر في الأمبراطورية الفارسية لكنه منحها استقلالاً ذاتياً. وبعد وفاة الاسكندر الأكبر انتهزت بيثينيا فرصة الصراع بين خلفائه واستقلت عن السلوقيين. ظلّت متمتعة باستقلالها حتى أورثها تيقومدس الثالث (أو الرابع) لروما عام ٧٤ق.م. (الموسوعة الميسرة).

ولكنه وجد عند مخرج كل نفق حراساً أقامهم الملك الغادر بروسياس ، وهكذا أحيط بالأسد وهو في عرينه ، ولم يبق أمام هنيبعل إلا أن ينتحر بالسم الذي كان يحمله معه دائماً تحسباً من وقوع مفاجئات الغدر .

نهاية هنيبعل

وهنا يقول ليفي المؤرخ الروماني الذي نقل عنه بلوتارخ بأنه مزج السم في شرابه ثم رفع كأس السم إلى شفتيه وهو يقول : « فلنخفف عن الرومان فزعهم المتواصل وحرصهم الدائم على مطاردتي ، بعد أن طال انتظارهم الممل لموت رجل عجوز يكرهونه حتى الموت[1] . ثم شرب كأس السم . . ومات كبطل عظيم وتحررت روحه إلى الأبد من مطاردة الرومان عام ١٨٣ق .م .

وهكذا عاد تيتوس وهو يشعر بالخيبة المريرة وحيداً إلى أعضاء مجلس الشيوخ في روما لينعي أمامهم موت العدو هنيبعل المخيف ! .

وهكذا أيضاً تحرّرت روما من مخاوفها ومات البطل الذي أخافها وجوده في قرية نائية على شاطىء آسيا الصغرى تطل على البحر الإيجي على بعد أميال كثيرة من مياه صقلية وروما ، حيث كانت أساطيل قرطاجة تحطم أساطيل الرومان وجيوشهم على مدى ثلاثة أو أربعة قرون . كانت روما تنظر إلى هنيبعل وكأنه النار التي تهددها بالحريق . ولما كان هنيبعل في أوج

(١) جاء في قصة الحضارة ما يلي: عندما أحاط الجنود الرومان هنيبال في مكمنه آثر عندها الموت على الأسر وقال: «دعوني أخفف عن الرومان ما يشغل بالهم من زمن طويل فهم يظنون أنهم لا يطيقون الصبر حتى يلاقي شيخ مثلي منيته» وتجرع السم الذي كان يحمله معه ومات في عام ١٨٤ق.م في السابعة والستين من عمره ثم تبعه سيبيو الذي كان شديد الإعجاب به بعد ذلك ببضعة أشهر. (قصة الحضارة: ١١٦/٩).

عظمته وازدهاره لم يكن جسده هو الذي يسبب لروما ذلك الذعر القاتل ولا يداه ، ولكن روما كانت تخشى من عبقريته ومهارته وتجاربه في قيادة القرطاجيين إلى النصر والفوز والتفوق . مرّة بعد الأخرى .

هنيبعل في أقوال المؤرّخين

إن مطاردة روما لهنيبعل حتى آخر لحظة من لحظات شيخوخته ، أثارت نقمة المؤرخين ضدها منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا . وهنا يقول بلوتارخ : وماذا ترك تيتوس من فخار ومجد في حروبه الطويلة في آسيا ـ كذلك غيره من القادة الرومان ـ فإنهم لم يتركوا سوى تلك السمعة السيّئة عن الاستبداد الروماني ، والعجرفة الرومانية ، والانتصارات الزائفة ، ولكن هنيبعل ترك شهرة واسعة تتحدّث عن بطل هو أعجوبة الأبطال ، والقدوة لكل عمل حربي يتسم بالبطولة . لقد مات هنيبعل بسلام . . ولكن صفحات حياته ما زالت منتشرة ، وصيته ما زال مدوياً في مسامع الأجيال ، فليسترح في مثواه الأخير كبطل مكفّن بفخاره وأمجاده[١] .

شروط الاستسلام القاسية

ولم يكن نصيب قرطاجة بأوفر حظاً من نصيب بطلها هنيبعل وهي التي قصرت عن إمداده بالرجال والمال والسلاح ، بل لقد قصرت عن دفع رواتب ضباطه وجنوده بعد عودته من إيطاليا ليدافع عنها . مع أنها استعادت فوراً قوتها بعد الهزيمة وعادت إلى التألّق والازدهار بعد أن دفعت أكبر غرامة وتعويضات إلى عدوتها اللدودة روما ـ فسلمت حسب شروط الاستسلام ـ الأسطول القرطاجي إلى روما باستثناء عشر سفن وقدمت إلى القائد الروماني سكيبيو المال والحبوب والطعام ومرتبات لجنوده وفرض عليها أن تدفع

(١) بلوتارخ : حياة فلامينيوس ، موت هنيبال ص ٣١١ ـ ٣١٢ ـ ٣١٣ .

مبلغاً خيالياً بالفضة قُسّط عليها أقساطاً لمدة خمسين سنة ، وأمرت بالتنازل عن مقاطعاتها كلها وحرّم عليها أن تباشر الحروب إلا بإذن من روما . هذا بالإضافة إلى عدد قتلاها البالغ عشرين ألفاً وألوف الأسرى الذين باعهم الرومان في سوق النخاسة بيع العبيد[1] .

وبالرغم من أن نوميديا دفعت حصتها من الجزية المفروضة عليها بعد أن صمدت طويلاً للحصار الذي فرضه عليها سكيبيو الروماني . بالرغم من

---

(١) نصّت معاهدة الصلح بين قرطاجة وروما على ما يلي:
١ ـ أن تستبقي قرطاجة ممتلكاتها في أفريقيا وأن تتمتع باستقلالها.
٢ ـ أن تسلم كافة الأسرى والهاربين من الحرب والفارّين من الجنديّة.
٣ ـ أن تسلم كل ما تملكه من سفن حربية وأن تحتفظ بعشر سفن فقط من ذوات الثلاثة صفوف (TRIRÈMES) من المجذفين. وتسلم كذلك جميع الفيلة مع التحجير المطلق عليها بأن تروض أفيالاً أخرى للحرب في المستقبل.
٤ ـ أن لا تثير حرباً خارج أفريقيا أو داخلها دون إذن من روما.
٥ ـ أن يسترد الملك ماسنيسا كل ما فقده هو وأسلافه.
٦ ـ أن تمد قرطاجة جيش روما بالمؤن والأجور حتى يتم الاتفاق على معاهدة الصلح وتنتهي الحرب.
٧ ـ أن تدفع قرطاجة غرامة حربية تبلغ عشرة آلاف وزنة أوبيّة من الفضة تدفع أقساطاً مقسمة على خمسين سنة بمعدل ٢٠٠ وزنة كل عام، وأن تدفع ألفاً منها في الحال قبل وقف القتال.
٨ ـ أن يتخيَّر قائد الرومان مئة رهينة من أبناء أشراف القرطاجيين تسلم إلى روما ضماناً لتنفيذ المعاهدة وصفاء الجو بين البلدين.
ملاحظة: الوزنة الأوبية TALENT EUBOIQUE سميت كذلك نسبة إلى أوبة EUBEE وهي إحدى جزر الأرخبيل اليوناني وهذه الوزنة فارسية الأصل أدخلها صولون في النظام النقدي بأثينا وأوبة. ففي القرن السابع ق.م ضربت النقود بأثينا وأوبة حسب النظام الوزني الأوبي. وهذا النظام استعمله الاسكندر الكبير وانتشر في العالم الهليني بأسره وهو يرتكز في ميزانه على المنّ (MINE) الأوبي الذي يساوي ٤٣٦ غراماً فقط. والوزنة الأوبية تساوي ستين منّاً أ ٢٦١٦٠كلغ. والوزنة ذهباً تساوي ١٠ وزنات فضة.
فتكون الغرامة السنوية على قرطاجة تساوي حوالي ٧٢٠٠٠٠ دولار أميركي اليوم.
(مدنية المغرب العربي ٢٣٤ قصة الحضارة)

كل ذلك فقد عمد الرومان إلى تغيير ملك نوميديا القوي بملك آخر ضعيف عيّنوه لكي يظل متواطئاً معهم وخاضعاً لإرادتهم وفي الوقت نفسه ليظل يتحرّش بقرطاجة ويتجسس عليها . بالرغم من أنهم خفضوا عدد القوات التوحيدية إلى الحد الأدنى وانتزعوا منها بعض أقاليمها .

وكان مسينيسا[1] ملك التوحيديين يعترف بالسيادة الرومانية ، والرومان يشعرون نحوه بأنه صديق عميل لهم .

وكان القرطاجيون غير مرتاحين لموقف مسينيسا نحوهم ، وقد فَسَّرَ هذه المواقف المؤرخ بلوتارخ وهو يروي قصة حياة القائد الروماني كاتو[2] . . فقال : « إن هزيمة قرطاجة أمام القائد سكيبو الملقب بالإفريقي ، لم توهن عزائمها ولم تدفع بها إلى حضيض الخيانة والعمالة والذل كما جرى للتوحيديين ، فقد كانت ما تزال قوية ونعرتها الوطنية لم تمس ، والشيء الجديد الذي طرأ على حياتها هو الإتحاد الجديد الذي شمل الأسرة الملكية والتجّار وأبناء الشعب ، فازدادات قوتها بالرجال المخلصين »[3] .

وتضاعفت ثروتها ما بين عامي ١٩٦ و ١٤٦ق .م ، وامتلأت

---

(١) مسينيا: MASINISSA (٢٣٨ ـ ١٤٨ .) ملك نوميديا كان حليف قرطاجة ثم انقلب عليها فأصبح حليف روما.

(٢) كاتو: كاتو الأكبر أو كاتو الكنسور: (٢٣٤ ـ ١٤٩ق.م) سياسي روماني عُرف ببساطة المعيشة والأمانة والشجاعة والوفاء للأسرة ولروما. كان يهاجم الترف والرخاء والإسراف ويتشدد في إعادة بناء المجتمع الروماني. وقصر عضوية السناتو على الجديرين بها. اشترك في الحرب البونية الثانية ونقل مختلف المناصب العامة. كان قنصلاً عام ١٩٥ وكنسوراً عام ١٨٤ وهو صاحب القول بعد كل خطبة يلقيها (يجب تدمير قرطاجة) ثم تحققت أحلامه فَدُمِّرَتْ قرطاجة في الحرب البونية الثالثة. كتب كثيراً لكن ضاعت أغلب مؤلفاته ومن بينها تاريخ روما. (الموسوعة العربية الميسرة).

(٣) بلوتارخ: حياة كاتو، ص ٢٨٩.

مستودعاتها السرية بكل أنواع الأسلحة . والذخائر والمؤن . . ولكنها سرعان ما اندلعت الحرب بينها وبين النوميديين بسبب موقف ملكهم مسينيسا عميل الرومان[1] .

قرطاجة تقلق روما من جديد

ولمّا وصلت أنباء القتال لمجلس الشيوخ الروماني انتدب القائد ماركوس كاتو لإنهاء الحرب بينهما . وكقائد عسكري أدرك من أول وهلة أن القرطاجيين يناوشون النوميديين ، لتجربة أسلحتهم وتمرين جنودهم على فنون القتال . ولاحظ كاتو أن قرطاجة أصبحت أكثر قوة مما كانت عليه قبل هزيمتها ، ولما زار مسينيسا ، أخبره هذا بكل ما لديه من معلومات عن قوة قرطاجة المستجدة واستعدادها للحرب القادمة ، فعاد كاتو إلى روما ، وهو يحمل إليها الويل والثبور من نقمة قرطاجة واستعدادتها للحرب المقبلة .

ولما وقف أمام أعضاء مجلس الشيوخ الروماني أخبرهم بأن معاهدة السلم مع قرطاجة كانت مسألة لتعليق الحرب مع روما ريثما تتاح لها الفرصة

(١) بإشهار قرطاجة الحرب على ماسينيسا تكون قد خالفت شرطاً من شروط معاهدة الصلح بينها وبين روما وهو البند الرابع منها ـ (راجع شروط المعاهدة). وتكون بالتالي قد خرقت وقف إطلاق النار بلغة أهل اليوم وخلقت سبباً موجباً لاندلاع الحرب من جديد. الأمر الذي حمل روما على تأديبها من جديد فجهزت لذلك جيشاً كبيراً قوامه ٨٠٠٠٠ من المشاة و ٤٠٠٠ من الفرسان و ١٥٠ سفينة من بينها ٥٠ سفينة خماسية. عندها شعرت قرطاجة بالخطر فأرسلت ٣٠٠ رهينة من أشراف العائلات وسلمت ٢٠٠,٠٠٠ قطعة من الأسلحة الخفيفة و ٢٠٠٠ من الأسلحة الثقيلة (عرادات ـ منجنيق) وكذلك جميع ما عندها من السفن فنقل كل ذلك إلى أوتيكة ولما تم كل ذلك أصدر القائد الروماني أمره قائلاً: «أن روما تأمركم بأن تخلوا مدينة قرطاجة نهائياً إذ تقرر تهديمها وإزالتها من الوجود. وأن تقيموا في أي مكان آخر يروق لكم على شرط أن يكون بعيداً عن البحر حوالي (٨٠ استاداً) أي حوالي ١٥ كلم. ثم حاصرها مدة ٢٢ يوماً ثم فتحها عنوة فشهدت مجزرة من أفظع المجازر وأكثرها وحشية على مرّ الدهور. (مدنيّة المغرب العربي في التاريخ ـ أحمد صفر).

الملائمة لخوض القتال من جديد .

وفي أثناء تلاوة تقريره هذا نفض ثوبه فسقطت منه حبّات من التين القرطاجي الناضج من النوع الكبير الحجم ، ولدى رؤية حبات التين المتساقطة أبدى أعضاء مجلس الشيوخ إعجابهم بنضوجها وكبر أحجامها فقال كاتو : إن المكان الذي أعطى هذه الثمرات يبعد عن روما مسافة ثلاثة أيام في البحر . . ثم رفع صوته قائلاً : لا . . إن قرطاجة يجب أن تدمر . .

ولكن بوليبوس سكيبيو نسيكا عارض فكرة تدمير قرطاجة فصاح بدوره : لا . . إن قرطاجة يجب أن تبقى . .

وهكذا . . انطلق كاتو بدعوته المجلجلة لتدمير قرطاجة يؤيده في ذلك لفيف من القادة وأعضاء مجلس الشيوخ ، كما انطلق بوليبوس يدافع عن قرطاجة ويطالب بعدم تدميرها .

ولكن تقرير كاتو كان له الغلبة ، ولمّا اندلعت الحرب للمرة الثالثة والأخيرة بين قرطاجة وروما ، كان كاتو قد مات .

يقول ألان لويد مؤلف كتاب « دمروا قرطاجة »[١] إن تدمير قرطاجة فرض على بوليبوس سكيبيو نسيكا بعد أن ملأ كاتو صياحه الداعي إلى تدمير قرطاجة إيطاليا بأجمعها .

ويضيف قائلاً لو سئلت رأيي الشخصي في هذا الصراع المصيري لفضلت اندحار الحضارة الرومانية وانتصار منافستها قرطاجة ، فقد كانت قرطاجة أنفع للبشرية وأقل قسوة وأوسع نشاطاً في شتى الميادين ولكن للقدر

(١) طبع هذا الكتاب في لندن عام ١٩٧٧ وعنوانه مأخوذ من صيحة كاتو (يجب أن تدمر قرطاجة).

رأياً آخر كثيراً ما خالف المنطق وناقض صالح البشرية لأمر لا ندري مغزاه[1] .

---

(١) نفس المصدر السابق، كتاب دمروا قرطاجة تقديم الدكتور صفاء خلوصي في مقال له نشر في مجلة العربي عدد اكتوبر رقم ٢٣٩ لعام ١٩٧٨ .



موالي قرطاجة كما هي الآن

قرطاجة تنتفض من جديد

حاصر بوليبوس سكيبيو قرطاجة من جديد ، وكان عدد سكانها ٢٠٠ ألف نسمة بما فيهم العبيد المعتقون ، وقد حمل السلاح من هؤلاء ثلاثون ألف رجل ، للدفاع عن مدينتهم ، ومع ذلك فقد فتكت المجاعة بعدد كبير من سكان المدينة وقصّ النساء شعورهن لكي تجدل بها الأقواس . وتزعّم الحرب هاسدروبعل من أسرة هانيبعل الملكية . واحتل القرطاجيون الطوابق العليا من منازلهم إذ كانت المنازل تتألف من ستّة طبقات لكل منزل .

ولما اقتحم الرومان قرطاجة عام ١٤٦ق .م ، دارت المعارك من شارع لشارع ومن منزل لمنزل ومن طابق لطابق ، وكان القرطاجيون يسلّطون أنوارهم في الليل على الجنود الرومانيين لمعرفة أماكنهم بواسطة لفائف مغموسة بالزيت ، ثم يقذفونهم بكتل من النيران المتأججة فتنصب على رؤوسهم كالصواعق . واستعمل القرطاجيون في هذه المعركة الانتحارية كل أنواع السلاح كالنيران والحجارة وقاتل النساء والأولاد كذلك مع آبائهم وأمهاتهم .

وغدت المدينة جحيماً متقداً بالنيران ، وارتعب الرومان أمام تلك البطولات الخارقة ، فراح الجنود الرومانيون يهربون إلى خارج المدينة فتبعث القيادة بمجموعات أخرى بدلاً منهم ، فلا تلبث أن ترتد مذعورة أمام بسالة المحاربين القرطاجيين ، وشجاعة الجرحى منهم ، في مقاومة مثالية لم تشهد لها الدنيا مثيلاً ، ولا سجلت نظائر لها في أي كتاب من كتب التاريخ ، لقد تحولت قرطاجة إلى مدينة من نيران ودماء . فعينت القيادة الرومانية مفارز خاصة لسحب أكوام الجثث المتكدسة في الشوارع والطرقات لإفساح المجال للمشاة الرومان . وفي خلال ثلاثة أيام عجز

الرومان عن أن ينالوا ولو شبه انتصار فاضطر سكيبيو إلى إدخال الفرسان الرومان بخيولهم إلى المعركة ، ولقيت كتائب الفرسان أشكالاً وألواناً من الموت لأن شوارع المدينة كانت موصولة بأدراج يصعب على الخيول ارتقاؤها .

وظل سكيبو خارج المدينة يراقب المعركة وهو على صهوة جواده ليلاً ونهاراً . وأصبح الغضب القرطاجي أعنف من الوحشية الرومانية ، وفقد الرومان كل أثر في نفوسهم للإنسانية ، وتحوّلوا إلى وحوش مفترسة . وقد ظهرت وحشيتهم بدخولهم المنازل وقذفهم النساء والأطفال من النوافذ والأسطحة والشرفات ، ورميهم الجرحى والقتلى في الخنادق لكي يعبروا عليها بمعداتهم الحربية المدمرة . . وأخيراً أَمَرَ الطاغية سكيبيو بإشعال النيران في المدينة الباسلة .

وفي اليوم السادس من المعركة وقف سكيبيو فوق جثث الضحايا الذين استشهدوا دفاعاً عن وطنهم وراح يستعرض الحضارة القرطاجية التي أدت أعظم الخدمات للجنس البشري على مدى ستة أعوام بعد أن أصبحت أنقاضاً وركاماً مختلطاً بالجثث المحترقة في آخر يوم من أيام قرطاجة سيدة البحر الأبيض المتوسط ، وملكة الحضارة الكنعانية الفينيقية .

وفي لحظة من لحظات وخز الضمير بكى القاتل سكيبيو . وهنا يقول المؤلف الإنجليزي ألان لويد : « كلا فما للوحش من ضمير يؤنبه » ثم التفت إلى صديقه بوليبيوس قائلاً : هذه لحظة رائعة يا بوليبيوس ، ولكني خائف ومرتعب من مصير كهذا يحيق ببلادي ويدمر روما !

في الواقع ، لقد صدقت نبوءة سكيبيو ، لأن العقاب الصارم الذي أعدته الأقدار انقضّ على روما عندما اقتحمتها قبائل الهون

الجرمانية[1] وأشعلت فيها النيران بشكل لم يسبق له مثيل إلا في قرطاجة . . وهكذا شربت روما من كؤوس النيران التي جرعتها للقرطاجيين !

لقد ضحّت روما بعشرات الألوف من جنودها لكي تنتصر على قرطاجة . . وفي المشهد الختامي للمأساة صعد سكيبيو وجنوده ستين درجة للوصول إلى هيكل قرطاجة العظيم ، وهنالك التقى مع هاسدروبعل ملك المدينة المحترقة ومعه زوجته وأولاده ، وجهاً لوجه .

وكان هاسدروبعل في آخر القتال قد وافق على الاستسلام لإنقاذ ما تبقى من الأحياء وعددهم خمسون ألف أكثرهم من الشيوخ والعجزة والأطفال من أصل ٢٠٠ ألف عدد سكان المدينة عند محاصرتها .

اللبوة الجريح

وهنا ظهرت زوجة هاسدروبعل وكأنها عملاق من عمالقة التاريخ فنظرت بسخرية إلى سكيبيو ثم إلى زوجها وقالت : « لا أدري أيكما أجدر بالتهنئة أنت على وحشيتك الفظيعة أم زوجي على جبنه وخيانته » ثم احتضنت أولادها وألقت بنفسها معهم في أحضان النيران المضطرمة من ذلك الارتفاع المخيف ، في أسفل المعبد مفضلة الموت بإباء وشرف على عار الهزيمة حتى لا يسوقها سكيبيو أسيرة في شوارع روما ، وهو يستعرض نفسه بخيلاء أثناء مروره من تحت قوس النصر الذي أقيم له خصيصاً . .

---

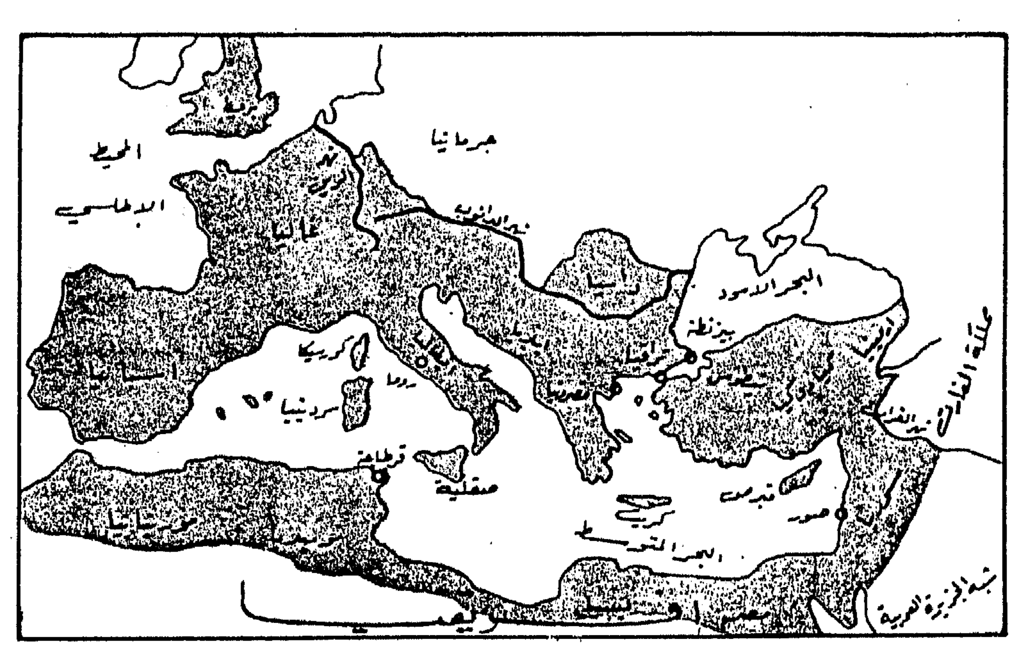
(١) الهون شعب رحل من شمالي آسيا الوسطى كانوا يعيشون خارج البلاد التي يجتاحونها. ظهروا لأول مرة عندما بني سور الصين العظيم لحصرهم. احتلوا الصين ثم غزوا وادي الفولغا وتقدّموا غرباً دافعين القوط الشرقيين والقوط الغربيين أمامهم ثم حطموا الامبراطورية الرومانية وأجبروا أمبراطورها على دفع الجزية ثم تفرّقوا فيما بعد (الموسوعة الميسرة).

وكان من المفروض أن تمر تحت قوس العبودية زوجة هاسدروبعل الذي مرّ من تحته وحيداً وهو يفكر بزوجته التي آثرت الموت حرقاً حتى لا تسخر منها نساء روما . . اللواتي وقفن يهتفن لسكيبيو دون أن يشعر بأي طعم للانتصار منذ أن شاهد ملكة قرطاجة تحتضن أولادها وتلقي بنفسها معهم في أحضان النيران المقدسة التي طهرت قرطاجة من الرجس الروماني .

قضى هاسدروبعل بقية حياته في روما . . ولكن قرطاجة ما لبثت أن أعيد بناؤها من جديد بعد حين . ونالت استقلالاً ذاتياً من عدوتها الثانية القسطنطينية شرط أن تبقى مثل البقرة الحلوب يمتص البيزنطيون لبنها كوسيلة من وسائل امتصاص دماء الشعوب المغلوبة للبقاء على قيد الحياة .

قال فيليب حتّي : نحن إذا حاولنا إصدار حكم على الرومان ، حتى ولو كان حكماً يقوم على عرف تلك العصور ومقاييسها ، فإننا لا نتمالك عن القول بأن قسوة الرومان لم تكن تشرف اسمهم . .

أقول : أن اسم الرومان لم يكن موجوداً في أيّة قائمة من قوائم الشرف في عصور سيطرتهم على الكون .



التوسع الروماني في أقصى امتداده

أسباب سقوط قرطاجة

كتب بعض المؤرخين في الشرق والغرب أن سقوط قرطاجة على أيدي الرومان أسهم فيه بعض البربر الذين كان يغريهم الرومان بالانتفاض على القرطاجيين . وهذا صحيح لحدٍ ما كذلك فإن تجّار قرطاجة وعلى رأسهم حنون وأسرته وغيرهم ساهموا بالتجسس والتآمر ضد وطنهم وقد كان ثمة مراسلات بين التجار الخونة والأرستقراطيين والسلطات الرومانية ـ عندما كان هنيبعل يحتل إيطاليا .

وكان من البديهي أن يسهم الكنعانيون الذين كافأهم الرومان بإطلاق اسم البربر عليهم . بالتأمر ضد الوحدة القرطاجية على اعتبار أن الكنعانيين كانوا لا يعترفون بالوحدة الشاملة فالكنعانيون مؤلفون من أحد عشر سبطاً كل سبط له دولته في فينيقيا وأرض كنعان وفي أي مكان آخر خارج منطقة الشرق الأوسط . والسبب في ذلك أنهم كانوا يعتزون بملوكهم وحكامهم على اعتبار أن كل ملك أو حاكم فإنما هو منحدر من سلالة ملكية متصلة بأحد أسباط كنعان . فملوك صيدا منحدرون من صيدا بن كنعان ، والملوك الأرواديون منحدرون من أرواد بن كنعان ، وملوك السينيين في مصر منحدرون من سين بن كنعان وقس على ذلك بقية الشعوب المتحدِّرة من سائر أبناء كنعان .

ولما كانوا مختلفين في فينيقيا وأرض كنعان « فلسطين » كانوا أيضاً مختلفين في المدن الحضارية التي أنشأوها حول حوض البحر الأبيض المتوسط ، فالصوريون لا يتدخلون في شؤون الصيدونيين في مدنهم ، والأرواديون لا يتدخلون بشؤون المدن الصيدونية أو الصورية أو الحتّية . فدولة المدينة ونظامها المنتشر في فينيقيا كان منتشراً بالمثل في إيطاليا وبلاد

الإغريق وفي فرنسا وإسبانيا ـ لكل سبط من أسباط كنعان دولته وكيانه .

وقد وقع المؤرخون في أغلاط فاحشة عندما كانوا يتحدثون عن الفينيقيين ككل في كتبهم التاريخية لأن الفينيقيين منذ وجدوا لم يتّحدوا إلا في مصر وفي قرطاجة وفيما عدا ذلك فقد كان لكل سبط من أسباطهم الأحد عشر دولته وكيانه .

فلما وحّدت قرطاجة الشمال الأفريقي لقيت في أول الأمر معارضة من المدن التي أنشأها غير الصوريين وغير الصيدونيين من باقي الأسباط الكنعانية ، ولكنها وحّدتها بالقوة ، ولكن هذه الوحدة لم تستطع أن تقضي على الطقوس الدينية لأن كل مدينة كان لها طقوسها الخاصة المتصلة اتصالاً روحياً بالسبط الكنعاني . . ومعنى هذا بقاء النيران تحت الرماد إلى أن تحين الفرصة للانتفاض وتلمس المساعدة من الخارج . فلما احتل الرومان شمالي أفريقيا فضلت بعض الأسباط الكنعانية الأخرى التعاون مع الرومان ضد الصوريين والقرطاجيين .

ونضرب مثلاً آخر على ذلك الخلاف العنصري الذي كان مستشرياً بين الأسباط الكنعانية ، وذلك حين وصل الاسكندر المقدوني إلى صيدا حيث خرج الصيدونيون لاستقباله حكومةً وشعباً لأنه من نسل هرقل المنحدر من نسل دنايوس[1] بن البعل ملك صيدون أو صيدا . أما سكان صور فقد خرجوا كارهين لاستقباله فلما طلب منهم أن يسمحوا له بتقديم بعض الذبائح للإله ملقارت في هيكل صور العظيم رفضوا وقالوا له : « نحن نقدم عنك الذبائح » وأصرّوا على رفضهم لأنهم كانوا لا يسمحون للغزاة المحتلين بدخول « هيكل ملقارت » إلا إذا اقتحمه بقوّة السلاح . . لذلك

(١) دنايوس: هو حسب الأساطير اليونانية ملك أرجوليد وأخ إجيبتوس.

نشبت الحرب بين الصوريين والاسكندر ودامت سبعة أشهر ولم يستطع الاسكندر احتلال جزيرة صور البحرية إلا بعد أن أقام جسراً من الركام والأنقاض بين البر وجزيرة صور .

وبوسعنا آن نضرب أمثالاً عديدة على ذلك لولا ضيق المجال ولكن لا بأس من ضرب مثل واحد يتعلق بمدينة يوتيكا وهي مدينة بناها الأرواديون في تونس وسكانها من الأرواديين فلما ضعف شأن الأرواديين لسبب أو لآخر ، حلّت محلهم صيدا ، ولما ضعفت صيدا حلّ محلها الصوريون الذين كانوا يستوردون منها صدف الموريكس الذي يفرز مادة صنع الأرجوان وكان فيها مصانع لكل أنواع النسيج .



أصداف الموركس

حلة فينيقية اتخذها اليونان لباساً

هذه المدينة ثارت في عهد حيرام[1] ملك صور في القرن العاشر قبل الميلاد ـ كما مرّ معنا ـ لأن شعبها الأروادي تحركت عنصريته ضد الاستغلال الصوري ، فأرسل الملك حيرام حملة تأديبية للمدينة لقمعها وإعادتها إلى حظيرة الطاعة . . وهكذا كان . .

مدن كنعانية في الشمال الأفريقي

إن أي مؤرخ منصف قرأ واطلع على كتب التاريخ القديمة ، لا يستطيع إلا أن يقر خاشعاً بعظمة الكنعانيين الذين عمروا الكرة الأرضية وشواطىء البحار ـ ومنها ـ البحر الأبيض المتوسط ، بذلك العدد الذي لا يحصى من المدن كبيرها وصغيرها . ومنها المدن الرائعة التي أسّسوها على شواطىء أفريقيا الشمالية وفي داخل البلاد ، وقد ذكر سترابون الجغرافي أسماء عشر مدن في ليبيا منها « كراكس » وتقوم على أنقاضها حالياً مدينة « السلطان » بين سرته ونوفليه ، وسرته التي كان يطلق عليها في عصر متأخر « برج يوفر انتاكس » وماكوماكا في خليج تاورغة ، وزوخيس الواقعة إلى الغرب من طرابلس وقد اشتهرت بصنع الأرجوان ، ولبنوس « ليبته » أو لبكي ، وتعرف اليوم باسم لبدة ، وكانت مرفأ صالحاً لرسو السفن الكنعانية وقيعات التي بنيت على أنقاضها واحدة من المدن الثلاثة . والتي قامت عليها طرابلس « تريبوليس » وهي التي أطلق عليها ـ كما قيل ـ اليونان والرومان من بعدهم اسم « أويا » ومدينة سبراتة وما زالت حتى اليوم محتفظة باسمها الكنعاني .

ويذكر المؤرّخ هيرودوتوس « الهاريكارناسي

---

(١) حيرام: أو أحيرام، الأول ملك صور (٩٦٩ ـ ٩٣٥ق.م) وهو الذي أمدَّ حليفه سليمان بخشب الأرز لبناء الهيكل في القدس. وقد امتد عهد سليمان من (٩٨٠ إلى سنة ٩٣١ق.م).

»[1] أن بعض الأغارقة « وهم من أصل كنعاني » أسسوا مستعمرة سيريني « قيريني » في وقت متقدم على شاطىء ليبيا وتعرف اليوم باسم شحات ، ولكن سكان هذه المدينة ما لبثوا أن اصطدموا مع قرطاجة براً وبحراً بسبب الحدود الفاصلة بينهما . ولمّا أقرت الحدود ، عاشت الدولتان المتجاورتان ردحاً من الزمن في سلام ووئام . وكان الاسكندر المقدوني قد طمع باحتلال ليبيا ولكن المنية عاجلته قبل أن يحقق أطماعه ، فقام بالمهمة بعده بطليموس الأول خليفته في مصر ، فغزا ليبيا ، وتمكّن من إخضاع برقة ثم مد حدود دولته إلى سرته الواقعة على بعد ٢٢٠ ميلاً داخل الحدود الليبية .

وقد انشغلت قرطاجة عن قيريني بحروبها مع الرومان في صقلية ، كما لم تستطع مهاجمة المقاطعة بعد أن احتلها بطليموس حتى لا تضطر إلى خوض حرب ضروس على جبهتين إلى أن اضطرت لذلك بعد المحالفة التي عقدها أغاثوكليس[2] ملك سرقوسة[3] « الحتي » مع أوفيلاس الحاكم المكدوني في قيريني عام ٣٠٩ق .م اللذين زحفا على قرطاجة لإزالتها من الوجود ـ كما خيّل إليهما ـ ولكن ملك سرقوسة أغاثوكليس ما لبث أن غدر بملك قيريتي أو فيلاس فقتله غدراً .

---

(١) ليس هيرودوث إغريقياً كما يزعمون ولكنه في الحقيقة من هاريكارناسوس في ليديا. وسكان ليديا الواقعة في آسيا الصغرى هم من صميم الساميين.

(٢) آغاتوكليس: ملك سرقوسة (٣٦١ ـ ٢٨٩ق.م) كان زعيماً ديموقراطياً في الحرب الأهلية بعد (٣٢٥ق.م) أقام نفسه طاغية (٣١٧) واتصف بالقسوة والطموح. اشتبك في حروب طويلة مع قرطاجة وإغريق صقلية. اتخذ لقب ملك (٣٠٤) فكان الملك الوحيد الذي عرفه إغريق الغرب في العصر الهيلينستي. أوصي ألاّ يخفه ملك آخر وأن تستعيد سرقوسة حريتها. (الموسوعة العربية الميسرة).

(٣) سرقوسة أو سراقوصة: كانت هذه المدينة في القرن الرابع ق.م من أكبر المدن اليونانية ثروة وأعظمها قوة رغم ما كان ينتابها من الاضطرابات السياسية الكثيرة. اشتهر بإنتاج الأسلحة الحربية (منجنيق ـ دروع).

وعلى أي حال فإن القرطاجيين أجهزوا على حملة أغاثوكليس إجهازاً تاماً اضطرّه إلى الهرب والعودة إلى جزيرته سرقوسة . واسترد القرطاجيون كل الأراضي التي سبق أن احتلها السرقوسيون والمكدونيون ، ثم هاجموا صقلية واحتلوّها ما عدا سرقوسة .

مظاهر الرقي الكنعاني

ويعود إلى الكنعانيين ـ الفينيقيين ـ الفضل في إدخال زراعة الأشجار المثمرة إلى طرابلس وليبيا كاللوز والتين والخوخ والرمان والعنب والزيتون .

وتحدّث هيرودوتس في الفصل الذي خصصه عن ليبيا ، بأن بعض قبائلها كانت تدعى الناسامونيين ، وأشار مؤرخ إغريقي آخر في حوالي القرن الرابع قبل الميلاد إلى قبيلة ماساي « ماكاي » التي كانت تسكن منطقة « الخمس » كما أشار المؤرخون إلى قبيلة الغارامانت على أنها كانت من أقوى القبائل الكنعانية في ليبيا .

وكانت هذه القبيلة الكنعانية تُربّي نوعاً من الأيائل أو الثيران الطويلة القرون ـ كما يقول هيرودوتس ، وتستعمل عربات تجرّها أربعة من الجياد ، وقد عثر على صور العربات محفورة على الصخور في فزان ، وفي أثناء الحفريات التي قامت بها بعثة أثرية إيطالية في إقليم فزان عثر خلالها على مقبرة وادي العجيل للموتى من قبيلة الغارمنت تضم نحو ٤٥ ألف قبر ثبت منها أن هذه القبيلة كانت تنتمي إلى سلالات شرقي البحر الأبيض المتوسط أي الكنعانيين .

ومن المعروف أن الحتيين هم الذين أدخلوا المركبة الحربية والجواد إلى فينيقيا وسوريا وكنعان [فلسطين] أثناء حملتهم العسكرية على مصر في

أواخر القرن السابع عشر ق.م[1] .

وكانت روما أول من اعترف بمملكة النوميديين الكنعانيين بقيادة ماسينيسا . وعاشت نوميديا حتى بعد سقوط قرطاجة ، وفي سنة ١١١ ق.م نشبت ثورة داخلية في نوميديا التي كانت تسيطر على أقسام من الجزائر وتونس وليبيا مما اضطر الرومان إلى التدخل فاحتلوا المدن الليبية : ليبتوس وأويا وسبراته . ثم ضمّوها بعد ٦٥ عاماً إلى روما في عهد يوليوس قيصر .

ولكن الأنظمة الكنعانية ـ الفينيقية ظلّت سائدة في ليبيا دون تدخل من قبل الرومان . وظلّت مدنهم تتمتع باستقلالها منذ معاهدة سنة ١١١ ، وحتى زمن القيصر تيبيريوس[2] ١٤ ـ ٣٧ ميلادية كانت المدن الكنعانية الليبية تسك نقودها باسمها ولمّا جرّدها الرومان ـ فيما بعد ـ من ذلك الحق ظلّت تنتخب حكامها وقضاتها واحتفظت بعباداتها وآلهتها ولغتها الكنعانية حتى إلى ما بعد الفتح الإسلامي .

ولكن الغارامانتيين ما لبثوا أن ثاروا على الحكم الروماني في سنة ٢٠ق .م ، فانتدبت روما لمحاربتهم كورنيلوس بالبوس ، فاحتل غدامس إحدى مدنهم ، ثم استولى على عاصمتهم جرما ـ Germa ـ ومع ذلك استمر القتال ولم يلق الغارامانتيون السلاح إلا في عام ٢٤ بعد الميلاد عندما شكّلوا وفداً للتفاوض مع الحكومة الرومانية في روما . في سنة ٦٩

---

(١) فيليب حتّي: تاريخ لبنان، ص ٩٠.

(٢) تيبيريوس: أو تيبريوس (٤٢ق.م ـ ٣٧) أمبراطور روماني (١٤ ـ ٣٧) ابن تيبيريوس كلاوديوس نيرون وليفيادروسيلا. تولى حكم بلاد الغال وراء الألب (١٩ق.م) وساعد أخاه دروسوس في حملاته على ضفاف الراين والدانوب (١٢ق.م) تولى قيادة حملات مختلفة في المانيا واليريكون. خلف أغسطس على العرش واقتفى أثر سياسته فنظم الضرائب ودعّم مالية الدولة. كان كثير الخوف على حياته. اتخذ كابري مقراً له. لم يكن في سنواته الأخيرة يتمتع بكامل قواه العقلية. (الموسوعة العربية الميسرة).

للميلاد نشبت الحرب بين مدينتي ليبتيس وأوبا ، وكانت الغلبة لسكان مدينة ليبتيس فاستنجد سكّان أوبا بالغرامانتيين فأسرعوا إلى نجدتهم وضربوا الحصار على ليبتيس . فاستنجدت ليبتيس بالرومان ، وبعد قتال عنيف اضطر الغارامانتييون ومحاربو أوبا إلى فك الحصار عن ليبتيس والانسحاب نحو الجنوب .

وبعد مضي وقت طويل اشترك الغارامانتيون مع الجيش الروماني في غزو أفريقيا الوسطى كحلفاء .

ويقال مثل ذلك عن قبيلة الناسامونيين التي كانت تسكن الجزء الشرقي من إقليم طرابلس فقد ثارت مدن هذه القبيلة على الأمبراطور دوميتبيان[1] « ٨١ ـ ٩٦ » فقتلت عدداً كبيراً من الجنود الرومانيين وجباة الضرائب ، فاضطرت روما إلى محاربتهم بجيش كثيف ولولا ذلك لما استطاعت إخضاعهم بعد أن سجلوا عدداً من الانتصارات على الجيش الروماني .

خضوع طرابلس للحكم الروماني

وفي نهاية القرن الأول الميلادي كانت طرابلس خاضعة للاحتلال الروماني .

وفي عهد الامبراطور تراجان الروماني[2] منحت مدينة طرابلس

---

(١) دوميتيبيان أو دوميتيانوس (٥١ ـ ٩٦) أمبراطور روماني من (٨١ ـ ٩٦) ابن فسباسيانوس وخليفة أخيه تيتوس كان أكثر صلفاً واستبداداً من أبيه فدبرت ضده مؤامرات كثيرة وأخيراً قتلته زوجته وخلفه نرفا.

(٢) تراجان أو ترايانوس ماركوس أو لبيوس (٥٣ ـ ١١٧) امبراطور روماني (٩٨ ـ ١١٧). ولد في إسبانيا وتبنّاه نرفا وتولى الحكم بعده كان قائداً كبيراً وحاكماً رشيداً لم يستخدم سلطته إلا لصالح شعبه دعم حدود الامبراطورية وقام بمنشآت كثيرة في روما. خلفه مادريانوس.

وكانت مؤلفة من ثلاث مدن « تريبوليس » استقلالاً ذاتياً وبذلك تمكن الرومان من بناء ملاعبهم ومسارحهم وحماماتهم في ليبتيس ومسرحهم الفخم في سبراته .

وما زال من آثار مدينة أويا إحدى المدن الثلاثة التي تكوّنت منها طرابلس ، قوس النصر الذي شيده ماركوس أوريليوس[1] .

الأمبراطور سبتيموس سفيروس وخلفاؤه

وتجدر الإشارة إلى أن مدينتين إحداهما حمص في سوريا وليبتيس « لبده » في ليبيا تتنافسان على تبنّي الامبراطور سبتيموس سفيروس[2] . وكل واحدة منهما تدّعي بأنه ابنها ، وكان من قادة الجيش الروماني ، ولكنه ليس من أصل روماني محض .

وفي أثناء المنازعات بين القادة الرومان تمكّن من تنصيب نفسه أمبراطوراً ومع ذلك فقد قضى أربع سنوات حتى استتب له الأمر نهائياً . وقد أنشأ الأمبراطور سبتيموس سفيروس « ١٩٣ ـ ٢١١ » سلسلة من القلاع

---

(١) ماركوس أوريليوس: (١٢١ ـ ١٨٠) امبراطور روماني (١٦١ ـ ١٨٠) وفيلسوف رواقي تبنّاه انطونينوس بيوس واستخلفه مع ابنه بالتبنّي لوكيوس فروس. انفرد بالحكم واشتهر في الفلسفة (بتأملاته) وبالحكم (بإخلاصه لواجبه) فعطف على الفقراء وخفف عنهم الضرائب وتسامح مع أعدائه السياسيين وحدّ من وحشية اللهو فمنع انتهاش الحيوان الكاسر لفرائسه البشرية على مرأى من المتفرجين ولكنه واصل سياسة تراجان في اضطهاد المسيحيين (الموسوعة العربية الميسرة).

(٢) سبتيموس سفيروس: امبراطور روما ولد في ليبتسLEPTIS هي اليوم مدينة لبدة في ليبيا (١٤٦ ـ ٢١١) تولى الامبراطورية الرومانية من (١٩٣ ـ ٢١١) كان إدارياً حكيماً ولكنه حكم بطريقة فيها الكثير من التشدد والتسلط ملغياً بذلك دور السناتو مجلس الشيوخ الروماني. معركته الظافرة ضد البارثيين (١٩٧ ـ ٢٠٢) مكنته من تكوين إقليم ما بين النهرين وضمّه. قاوم المسيحية بضراوة. مات أثناء حملته على الجزر البريطانية.

وصل بينها بطريق يسير بمحاذاة « رأس الجبل » على هيئة قوس كبير يمتد من ليبتيس[1] إلى قابس في تونس ، وبعد وفاته أنشأ ابنه بالتبني الكسندر سفيروس[2] « ٢٢٢ ـ ٢٣٥ » سلسلة أخرى من القلاع في الداخل ـ كان جنودها من الليبيين .

وقد تزوّج الأمبراطور سبتيموس جوليا دومنا السورية ابنة كاهن إله الجبل يوليوس بسيانوس ويعود له الفضل في تقسيم سوريا بعد عامي ١٩٤ و ١٩٨ إلى قسمين : شرقي ويشمل سوريا المجوفة وغربي ويشمل فينيقيا السورية .

وقد أنجب سبتيموس سفيروس من زوجته جوليا دومنا الحمصية ولدين : غيتا « ٢١١ ـ ٢١٢ » وكركلا[3] « ٢١١ ـ ٢١٧ » وكلاهما أصبح أمبراطوراً رومانياً . وتزوّجت جوليا ميزا شقيقة جوليا دومنا ، يوليوس أفيتوس فأنجبا جوليا ماميا التي تزوجت جسيوس ماركيانوس فأنجبا الأمبراطور اسكندر سفيروس .

---

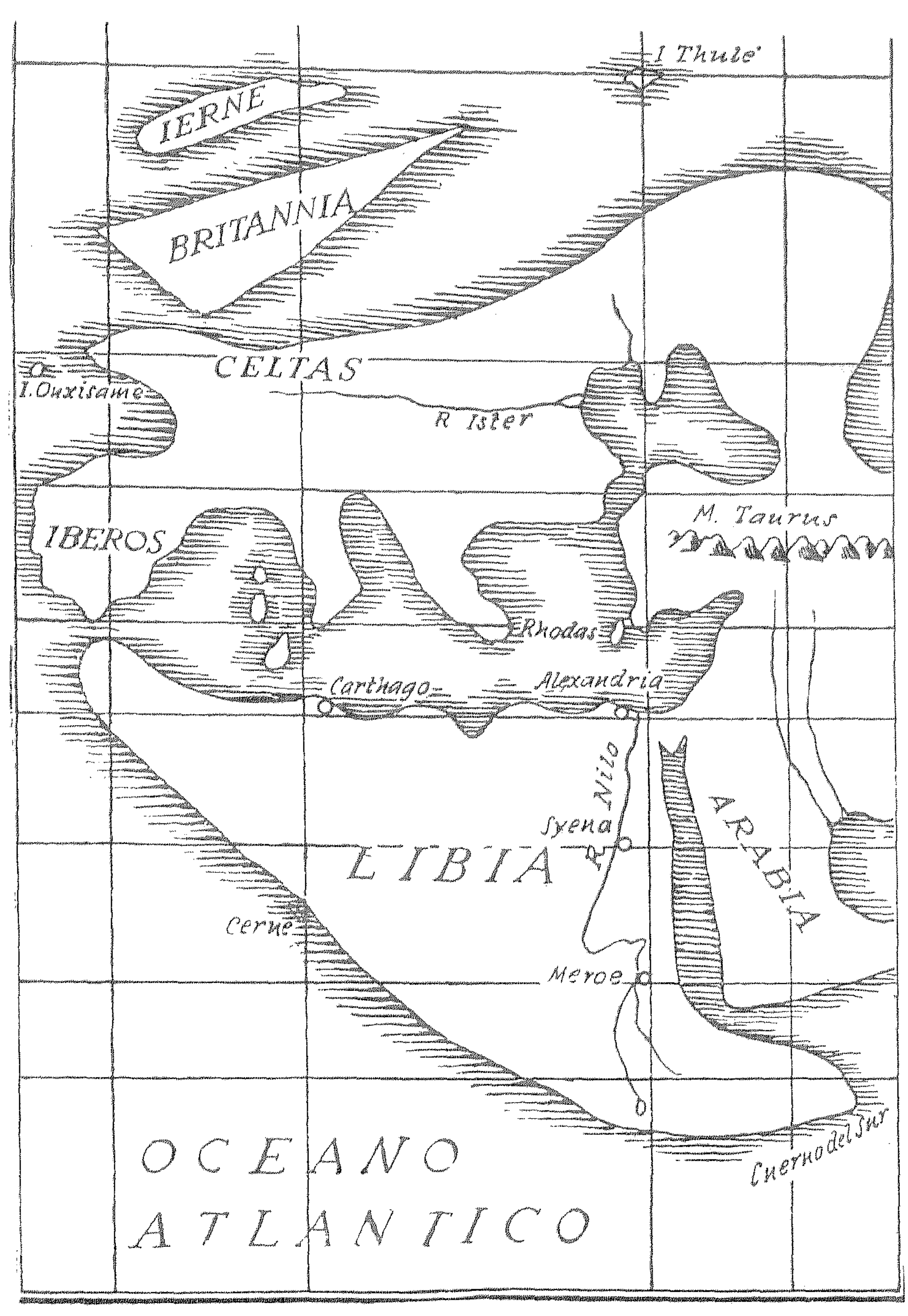
(١) ليبتيس: LEPTIS: اسم لمدينتين قديمتين في أفريقيا الشمالية. الأولى في ليبيا وهي اليوم تدعى لبدة موطن الامبراطور السابق ذكره. والثانية على ساحل تونس وتدعى اليوم لمطة.

(٢) الكسندر سفيروس: امبراطور روماني (٢٢٢ ـ ٢٣٥) ولد في سوريا قام بحملة ناجحة (٢٣١ ـ ٢٣٣) ضد أردشير الأول ملك الفرس. وعندما ثارت القبائل الجرمانية وحاول استرضاءها بالملاينة بدلاً من إخضاعها بالقوة اتّهمه جنوده بالجبن وكانوا ينقمون عليه عطفه على جنوده الشرقيين فقتلوه.

(٣) ٤ ـ كركلا: (١٨٨ ـ ٢١٧) امبراطور روماني (٢١١ ـ ٢١٧) ابن سبتيموس سفيروس. اسمه الحقيقي ماركوس أورليوس انطونينوس لكنه عرف بكركلا بسبب ارتدائه دائماً سترة غالية. ضاق باشتراك أخيه معه في الحكم فقتعله هو وأتباعه (٢١٢) منح الحقوق الرومانية لكل الأحرار من سكان الأمبراطورية ليزيد دخله فيما يظن من الضرائب على المواطنين الجدد. قتله ماكرينوس ليحل مكانه لكنه لم يحكم إلا فترة قصيرة. (الموسوعة العربية).

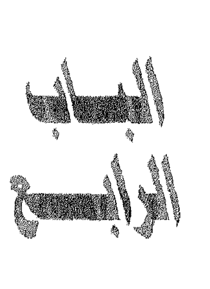
أما جوليا سجمة أخت جوليا ماميا فقد تزوجت فاريوس أفيتوس فأنجبا ابناً أصبح أمبراطوراً باسم إله الجبل « ٢١٨ ـ ٢٢٢ » .

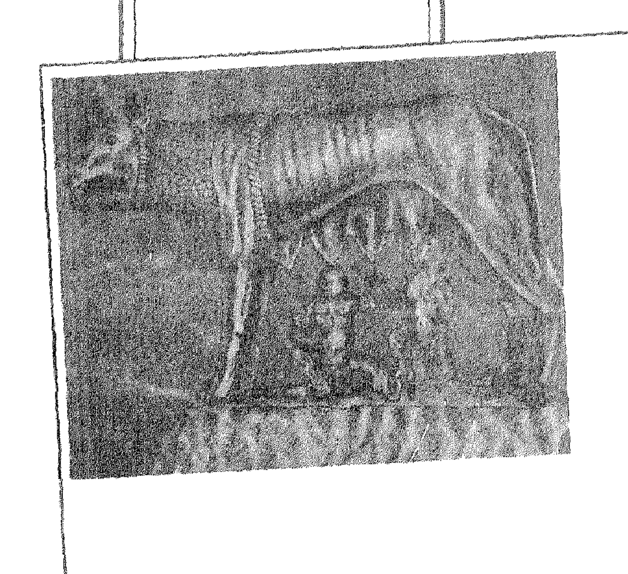
وقد أدّى هؤلاء الأباطرة خدمات جلى للمدن الليبية وسوريا وفينيقيا وفي عهد سبتيموس سفيروس حصلت معظم مدن ليبيا وسوريا وفينيقيا على الاستقلال الذاتي .



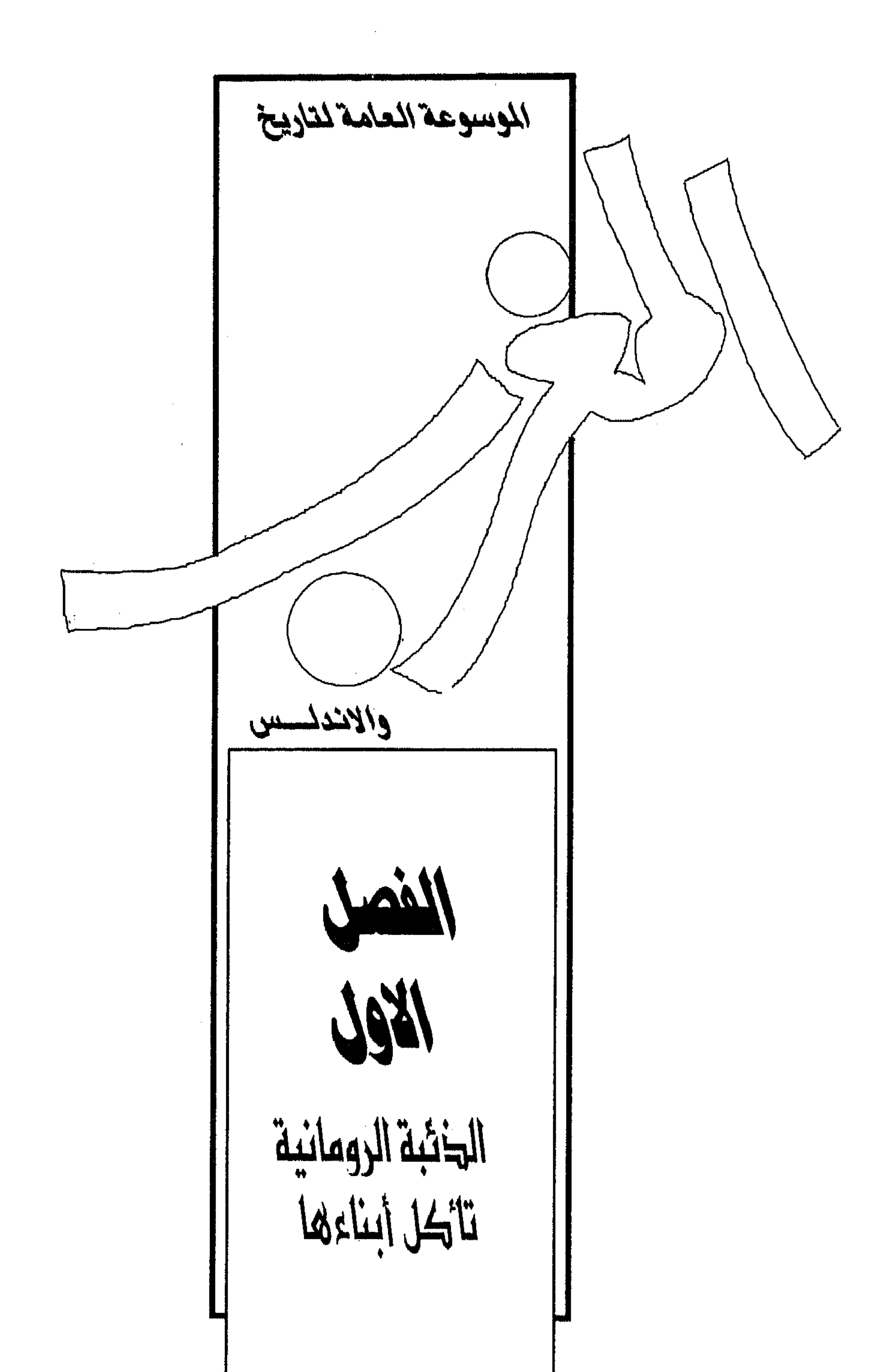
Africa, según Eratóstenes (276-187 a. J. C.)

افريقيا كما رآها أرانوس (٢٧٦ ـ ١٧٨ ق.م)





ذئبة الكابيتول ترضع ريموس ورومولوس



الفصل الاول

الذئبة الرومانية تأكل أبناءها

ظلّت الحروب الطاحنة متواصلة بين المغاربة والقوات الرومانية ومتعاقبة من جيل إلى جيل .

ففي الثلث الأخير من القرن الأول الميلادي حاول الملك جوكورتا[1] ملك موريتانيا توحيد المغاربة لطرد الرومان من بلاده كما أن الكنعانيين في إيبيريه راحوا يبذلون الجهود للغاية نفسها . . حتى اضطرت روما إلى إرسال القاضي « بريتور » كاليوس ماريوس ١٥٧؟ ـ ٨٦ ق . م لضرب الثوار في معاقلهم ـ وراحت تطلق عليهم أسماء لصوص وقطّاع طرق . وهو نفس التعبير الذي استعمله ـ فيما بعد ـ المستعمرون في بلاد العرب خلال القرن العشرين بعد الميلاد . ولكنه فشل في حملته وظلّت الثورة الكنعانية متأجّجة في إيبيريه .

فلما ظهر جوكورتا أرسلت روما لمحاربته كاسيليوس متيللوس فاصطحب معه كايوس ماريوس كضابط في الحملة .

وسجّل جوكورتا الكنعاني المغربي انتصارات باهرة على الجيش الروماني واسترد مدينة « فاجا » وأسر تربيلوس الروماني رئيس سرية الحدّادين والنجارين الرومانية ، ثم توسّط له سكّان مدينة « فاجا » فأطلق سراحه .

وبعد حين انتدبت روما كايوس ماريوس[2] بعد أن رقي إلى رتبة

---

(١) جوكورتا أو يوجورتا: (١٥٦ ـ ١٠٤ق.م) ملك نوميديا حفيد ماسينيسا تبناه عمه ماكيبسا الذي أوصى بالعرش من بعده لابنيه. في سنة (١١٨ق.م) عزل يوجورتا ابني عمه. وبعد حرب طويلة مع الرومان تدخلت فيها الرشوة والغدر وقع يوجورتا في قبضة الرومان وتوفي سجيناً بروما.

(٢) كايوس ماريوس: أو جايوس (١٥٧ ـ ٨٦ق.م) قائد روماني من العامة تولى القنصلية ٧ مرات وهو المنتصر على يوجورتا المذكور أعلاه. كان أكثر جنوده من القنصلية ٧

قنصل . وكان قد وعد مجلس الشيوخ بأنه سيذبح جوكورتا أو يعود به أسيراً . وفي أثناء غيابه كان القائد متيللوس الروماني ينازل الملك جوكورتا منازلة لا هوادة فيها حتى أنهكه ومزق جيشه إرباً . . فلما عاد القنصل كايوس ماريوس ، كان متيللوس قد انتصر على جوكورتا ، ولكن هذا الأخير هرب والتجأ إلى عمّه والد زوجته الملك بوخشوش ملك نوميديا .

وكان القنصل كايوس ماريوس قد اصطحب معه عند عودته للشاطىء الأفريقي لوسيوس سولا[1] وكان مجده ما تزال براعمه لم تتفتّح بعد ، ولكنه نجح في أن أصبح صديقاً للملك بوخشوش ملك نوميديا .

وكان بوخشوش يحسد جوكورتا زوج ابنته على نجاحه في توحيد بلاد

مرات وهو المنتصر على يوجورتا المذكور أعلاه. كان أكثر جنوده من المتطوعين والمغامرين والمرتزقة فأحدث في ذلك بدعة خطيرة إذ أصبح ولاء الجندي له لا لمجلس الشيوخ (الناتو) وتعلق مصير الجنود بمصير قائدهم. تحول تنافسه مع صلا على قيادة الحرب ضد ملك بونتس إلى حرب أهلية انتصر فيها صلا وهرب ماريوس من روما. وبعد ذهاب صلا إلى الشرق تحالف ماريوس مع القنصل كنا وعاد إلى روما حيث قتل أعداءه وصادر ممتلكاتهم (٨٧) توفي في قنصليته السابعة.

(١) لوسيوس كورنيليوس سولا أو سلا (١٣٨ ـ ٧٨ق.م) روماني ينحدر من أسرة رومانية عريقة. اختير ليتولى منصب القنصلية عام ٨٨ق.م وتولى قيادة الجيش الذي يتأهب لقتال مثرداتس حاكم بنتس الذي كان يسعى لهدم سلطة روما في الشرق. ولد صلا فقيراً ولكنه أصبح يدافع عن الأشراف. انتصر صلا على مثرداتس وأرغمه على الانسحاب من بلاد الإغريق وتسليم أسطوله وأعادة الحال إلى ما كانت عليه قبلاً (٨٥) تساهل مع جنوده بتطبيق النظام حارب إيطاليا (٨٣) وانتصر عليها في معركة باب كولينا (٨٢) فأصبح سيد إيطاليا المطاع وعين ديكتاتوراً بصلاحيات غير عادية. قتل خصومه وصادر أملاكهم أهم إصلاحاته تنظيم محاكم الجنايات إذ زاد من عددها ووضع لها نظاماً خاصاً ولكن دستوره لم يعمر أكثر من عشر سنوات. اعتزل الحكم سنة ٧٩ق.م ليقضي خريف حياته في جمع روائع الفن دقيقاً في اختيارها وأمر أن تحمل له من أثينا مؤلفات أرسطوطاليس لتكون جزءاً من أثمن ثروته وكان همّه الوحيد ألا يسمح لإنسان ما أن يفوقه في حكمته وشجاعته.

المغرب في إبان نشاطه وحيويته ، فلما هزم جوكورتا ولجأ إليه ليوفر له الحماية بسبب علاقته الطيّبة مع القادة الرومان ، وعده بالتوسّط لإنقاذ حياته ولكنه كان يضمر له السوء والخيانة ، فأرسل إلى لوسيوس سولا وكان بوظيفة « قسطور » ويُعنى بالإدارة المالية والمؤن ، فلما استعلم جوكورتا من بوخشوش بموجب صك مختوم مكتوب عليه : « بوخشوش خان جوكورتا وسلّمه إليه » ، فاغتاظ القنصل ماريوس وأسرّها في نفسه ضد سولا .

وقبل أن يعود ماريوس إلى روما يجر ذيول الفخر ومعه أسيره الملك جوكورتا . . كان المغرب « والشمال الإفريقي » ما يزال يتمتع باستقلاله الذاتي بموجب معاهدات معقودة مع القناصل الرومانيين المحتلين ـ ناهيك عن المقاومة المستمرة ـ كمقاومة جوكورتا ملك موريتانيا ومن جاء بعده وهكذا دواليك .

وبالرغم من كل هذه المآسي التي نزلت بشعوب شمال أفريقيا كان الحظ ما يزال يرفرف فوق بلادهم . وفي أثناء الأفراح التي أقامها الرومان لمناسبة انتصار قواتهم على جوكورتا وصلت إليهم أنباء مفزعة هزّتهم بعنف ، وذلك أن التوتونيّين والسيميريين هاجموا إيطاليا ، وأن الكلتيين وهم فرع من السيميريين هاجموا الترجانيين في غربي إيطاليا وهزموهم واستولوا على بلادهم . وفي الوقت نفسه هاجم الغوليون إيطاليا من الشمال أي عبر جبال الألب وهزموا الجيوش الرومانية التي تصدّت لغزوهم أبشع هزيمة لهذا السبب أرسل مجلس الشيوخ إلى القنصل ماريوس في شمال أفريقيا للعودة بأقصى سرعة لمنازلة الغزاة الجدد ، وأنعموا عليه « لأسره جوكورتا » بلقب قنصل للمرة الثانية .

فغادر ماريوس شمال أفريقيا جاراً معه كل الفيالق والكتائب

الرومانية . . فأتاح بذلك الفرصة للمغاربة من ليبيا إلى المحيط الأطلسي أن يتنفسوا الصعداء . . أما جوكورتا فقد وضع في السجن وهناك كانت نهايته الحزينة .

في ذلك الوقت وفي المراحل التاريخية الأسبق عهداً كانت بلاد المغرب الساحلية تدعى موريتانيا ، كما كانت نوميديا تقوم في بعض أجزاء من الجزائر وقرطاجة بقيت قرطاجة بعد أن أعيد بناؤها .

وقد استغرقت هزيمة التوتونيين والسيميريين والكلت والغولين زمناً ليس بالقصير ويعود الفضل في إنقاذ إيطاليا من غزواتهم إلى القنصل ماريوس المشار إليه الذي انتدب إلى حربهم فتمكّن بالصبر والحنكة والقيادة الرشيدة من هزيمة الغزاة وتولّى نساء السيميريين بقية المهمة ، ولكن كيف ؟

ثورة النساء

إن النهاية الحزينة التي وصل إليها السيميريون وهم في الأصل من الكنعانيين ، دفعت بهم إلى الهرب واللجوء إلى معسكرهم ، ولكن نساءهم خرجن لاستقبالهم وفي أيديهن السيوف والخناجر ، وانهلن بها على أزواجهنّ المنهزمين طعناً وضرباً فهرب من هرب وقُتِل من قتل . . ثم انتحر النساء حتى لا يقعن أسارى وسبايا في أيدي الرومان ، فسجّلن بثورتهن عملاً بطولياً جعل المؤرّخ بلوتارخ يسجله « في أخبار ماريوس وحروبه »[1] .

وهذه مأثرة خالدة للنساء الكنعانيات تضاف إلى مأثرة النساء القرطاجيات اللواتي أشعلن النار في قرطاجة بعد الهزيمة ، فاحترقن مع مدينتهن في بسالة خارقة سجّلها المؤرّخون . . ولكن السيميريين وفروعهم

---

(١) راجع بلوتارخ في أخباره عن القنصل ماريوس، ص ٣٣٦ ـ ٣٤٤.

تجمّعوا في أماكن أخرى ليشنّوا حروباً متواصلة على الرومان قبل أن يستقر بهم المقام في جرمانيا مع التوتونيين الحثّيين الكنعانيين واسكوتلندا . في شمال بريطانيا ، هؤلاء السيميريون الاسكتلانديون أبادوا فيما بعد جيشاً رومانياً كاملاً في اسكتلاندا .

القواد الرومان يتنازعون على السلطة

بانتهاء مجزرة السيميريين دبّ النزاع والخلاف على السلطة العليا بين القادة الرومان وكان ذلك في صالح المشارق والمغارب . فتوزعت القوات الرومانية بين القادة الرومان : سينا وماريوس وسرتوريوس[1] . ثم تفاقم الخلاف بين سينا وماريوس ، لدرجة جعلت الرومان يترحّمون على عهود انتصاراتهم الذهبية التي كانت تنتهي دون خصومات ونزاعات بين القادة الرومانيين .

وكثيراً ما كانت الحدّة والغضب والعصبية تدفع ببعض القادة الرومان إلى محاربة بعضهم بعضاً حتى الموت . باستثناء سرتوريوس « ١٣٠؟ ـ ٧٢ب .م » فقد كان أهدأهم طبعاً وأصبرهم على الحرب ، وأنصفهم في حروب الخصومات الرومانية .

وبعد موت ماريوس ومقتل سينا من بعده بوقت قصير ، انتخب ماريوس الصغير بل ماريوس الكبير قنصلاً لمحاربة كوينتوس سرتوريوس وكان أعور ، وأصله من القبيلة السَّبينية التي ترجع بأصلها إلى السينيين

---

(١) سرتوريوس كوينتوس (١٣٠ ـ ٧٢ق.م) قائد روماني كان يناصر ماريوس لكنه فر إلى أفريقيا عقب عودة صلا من الشرق في عام ٨٠ق.م استدعاه إلى اسبانيا أهلها الذين ثاروا على روما. كوّن قوة كبيرة واستطاع أن يسيطر على الجانب الأكبر ممن إسبانيا ويقاوم الجيوش الرومانية التي أرسلت ضده إلى أن قتله أحد رجاله سنة (٧٢ق.م) (المرجع السابق).

القدماء[١] .

حارب من قبل السيميريين والتوتونيين مع القائد الروماني كابيو في جرمانيا ثم حارب الجرجاشيين في كلتي ايبيريا أي المقاطعة التي احتلها الكلت في إيبيريه تحت إمرة القائد الروماني ديديوس[٢] . وأمضى شتاءً قاسياً في مدينة « كاستولو » قسطلة حيث انغمس الجنود الرومان في الملذات وشرب الخمور بإسراف ، حتى أنهم خرجوا عن النظام فاستنجد سكان المدينة بالجرجاشيين جيرانهم فجاؤوا ليلاً وانقضوا على الجنود الرومانيين وذبحوا منهم عدداً غفيراً ، ونجا سرتوريوس وبعض أعوانه بمعجزة ، وقام يدور حول الأسوار إلى أن اكتشف الباب السري الذي دخل منه الجرجاشيون إلى المدينة فأقام حوله الحرس وانقض على المدينة وأعمل السيف بأهلها فلم يرحم أحداً . ثم أمر جنوده أن يخلعوا ملابسهم ويلبسوا ملابس سكان المدينة وزحف على مدينة الجرجاشيين . فوجد أبوابها مفتوحة ، وكان السكان قد خرجوا لاستقبال حلفائهم سكان مدينة قسطلة الذين ذبحهم سرتوريوس في الليلة الماضية ، فانقض عليهم جنوده وأسروا عدداً كبيراً منهم أما باقي سكان المدينة فقد باعهم بيع العبيد .

وفيما كانت هذه المعارك دائرة الرحى في إيبيرية كانت الحروب الداخلية بين القادة الرومان ما تزال مستمرة فتغلب سولا على ماريوس الصغير ، فانطلق هذا هارباً إلى أفريقيا ، بينما توجّه سولا لمحاربة

(١) راجع بلوتارخ : ص ٤٥٨ .

(٢) ديديوس يوليانوس واسمه الكامل (ماركوس ديديوس سالڤيوس يوليانوس) ت ١٩٣) امبراطور روماني (١٩٣) كان قنصلاً في عهد الامبراطور برتيناكس وخلفه على العرش بعد وفاته لأن عطاءه (٢٥٠٠٠) ستركس للحرس الامبراطوري فاق عطاء غيره من الطامعين في العرش، لكنه قتل بعد بضعة شهور عندما تبين أن سبتيموس سڤروس يرفض الاعتراف به وخلفه سڤروس (المرجع السابق).

ميتريداتيس الفارسي[1] في آسيا الصغرى مصطحباً معه القنصلين أوكتافيوس وسينا .

وعاد سولا من تلك الحرب إلى روما حيث قبض بيديه على زمام الحكم وصار سيد روما المطاع .

وتولى كايوس آينوس الحرب في جبال البيرينيه « هذه الجبال الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا وقد سمّيت باسم بيرينيس أخت قدموس الصوري في الأزمنة السابقة ، ولصالح سولا لم تستطع قوات يوليوس وقوّات سرتوريوس اعتراض طريقه . فأما سرتوريوس فقد انهزم إلى قرطاجنة على ساحل إيبيريه ومعه ثلاثة آلاف جندي ومن هناك عثر على مراكب أقلته إلى شواطىء موريتانيا .

حقول الفردوس

وانطلق جنود سرتوريوس إلى الشاطىء الموريتاني بحثاً عن الماء . ولكن الجنود الموريتانيّين اعترضوا طريقهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً فاضطر سرتوريوس إلى أن يعود بالمراكب التي أقلّته إلى شواطىء إيبيريه ولكنه طرد منها فعاد إلى المراكب المأجورة وأبحر في المحيط الأطلنطي هائماً على

---

(١) ميريداتيس أو ميثراداتس السادس ملك بونتس القديمة ويعرف بمثير داتس الأكبر اشتبك مع الرومان في ثلاث حروب عرفت باسمه في الحرب الأولى (٨٨ ـ ٨٤ق.م) استولى على أكثر آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه عدا رودس وجانب كبير من بلاد الإغريق هزمه صلا وأرغمه على التنازل عن كل فتوحاته (٨٤). وفي الحرب الثانية (٨٣ ـ ٨١ق.م) هزم الرومان وفي الاحرب الثالثة (٧٤ ـ ٦٣ق.م) هزم لوكلس ثم بومبي وانسحب إلى القرم التي ثارت عليه بقيادة ابنه فرناكس وقتله أحد أتباعه بأمر منه. جعله دهاؤه وشجاعته وحنكته وقدرته على التنظيم أخطر خصوم روما الشرقي. لكن أضعفه تصوره في فنون القيادة وعجزه عن الاحتفاظ بولاء إخوانه. (المرجع السابق).

وجهه وعلى مسافة بعيدة في المحيط الأطلسي عثر على « جزيرتي السعادة » اللتين ذكرهما الشاعر هوميروس باسم « حقول الفردوس » وكانتا آهلتين بالسكّان الذين يعيشون على الأثمار في الغالب فأدرك سرتوريوس بأن هاتين الجزيرتين هما اللتان يرغب محبّو الدعة والسلام السكنى فيهما والعيش بسلام بعيداً عن الحروب والكوارث . ولمّا أعرب سرتوريوس عن رغبته في البقاء فيهما اعترض عليه البحارة الفينيقيون الذين أقلّوه وكانوا من كيليلية الفينيقية « غربي آسيا الصغرى » فلم ترقهم ملاحظته فتخلّوا عن مساعدته وأبحروا بمراكبهم إلى الشاطىء الأفريقي لمساعدة الملك اسكاليس بن إفتا ـ Iphtha ـ لاسترداد مملكته موريتانيا ، فاغتاظ سرتوريوس وقرّر بدوره مساعدة أعداء الملك إسكاليس .

وبعد استراحة قصيرة في جزيرتي « حقول الفردوس » المعروفتين الآن باسم رأس فردي وجزر الكنار أبحر سرتوريوس إلى شواطىء موريتانيا فاستقبله « المور » الشعب المغربي بالترحاب ، وكانوا يبغضون إسكاليس فساعدهم على التخلص منه ، في معركة حربية كان النصر فيها حليف سرتوريوس . فاعتصم إسكاليس بمدينة طنجة .

وفي هذه الأثناء وصل القائد الروماني باكسيانوس مع المؤن والإمدادات لرفع الحصار عن طنجة . . مرسلاً من قبل القائد سولا . ولكن سرتوريوس تصدّى له وتغلّب عليه واحتل مدينة طنجة ، فهرب إسكاليس بحثاً عن ملجأ جديد .

طنجة زوجة انتايوس

يقترن اسم مدينة طنجة باسم طنجة زوجة إنتايوس وهو شخصية أسطورية عاش في القرن الثالث عشر تقريباً ولكنه لم يكن الباني لمدينة

طنجة ، لأن الرواية التاريخية تقول أن الفينيقيين هم الذين بنوا طنجة حوالي سنة ١٥٠٠ق .م[١] .

وأخبر الموريتانيون القائد سرتوريوس بأن انتايوس المشار إليه مدفون في طنجة وقادوه إلى ضريحه فأمر بفتح الضريح للتأكّد من ذلك لأن الضريح كان طويلاً وضخماً جداً وهنا يقول المؤرخ بلوتارخ[٢] بأنه عثر على جثّة انتايوس وطولها ٦٠ ذراعاً[٣] فاندهش لطوله وأمر في الحال بتقديم ذبيحة عن روحه .

والموريتانيون سكّان طنجة يقصون الحكاية التالية : بعد موت انتايوس عاشت زوجته طنجة مع هرقل . « ذكرنا نسب هرقل باختصار في الصفحات الماضية » وأنجبت منه ابناً أسمته سوفاكس الذي أصبح ملكاً على تلك البلاد وأنجب سوفاكس إبناً هو ديودوروس . ومن نسل ديودوروس ، الملك جوبا ملك نوميديا .

سرتوريوس يحطم الجيوش الرومانية

ولما غدا سرتوريوس مطلق اليد في موريتانيا راح يعمل على إعادة المظلومين المنفيين من أبناء البلاد فأعادهم إلى وطنهم كما أعاد الحكومات القديمة إلى مدنها ولم يطالبهم بشيء لقاء ذلك سوى اعترافهم بأنه حررهم .

وفيما كان يفكر إلى أين عساه يوجّه حملته الجديدة وصل إليه سفراء اللوسيتانيين[٤] فجأة وناشدوه مساعدتهم على الرومان المغتصبين ، فأبحر إليهم . . فدانت له الشعوب الخائفة من الرومان تلقائياً ، ثم اعترفت به

(١) تاريخ المغرب في القرن العشرين تأيف روم لاندو تعريب نقولا زيادة، ص ١٧ .
(٢) راجع بلوتارخ: ص ٤٦١ .
(٣) الذراع القديم يساوي ١٨ بوصة.
(٤) اللوسيتانيون هم سكان لوسيتانيا وهي إحدى المقاطعات الايبيرية آنذاك.

حاكماً مطلق السيادة على كل ايبيريا نكاية بالرومان ـ لأنه قائد روماني منشق عن القادة الآخرين من الرومان الذين يعيشون على السلب والنهب واستعباد السكان وبيعهم ـ في أسواق العبيد إذا ما عصوا وتمرّدوا .

وراحت روما ترسل جيوشها لمحاربته وهو يحطمها واحداً بعد الآخر ، فهزم القائد الروماني « كوتا » في معركة بحرية في مضيق يقع قريباً من مدينة « ملاريا » ومزق جيش فوفيديوس الروماني أيضاً قرب نهر باتيس في إيبيريه وكان حاكماً لمقاطعة باتيكا .

ودحر الجيش الروماني بقيادة لوسيوس دوميتيوس في إقليم آخر وذبح القائد الروماني تورانيوس الذي أرسله ماتيللوس لحربه ، ثم هزم ماتيللوس القائد الروماني الكبير في عدد من المعارك الطاحنة ، فأرسلت روما قائدين كبيرين لمحاربته هما لوسيوس مانيليوس وبومبي[1] القائد المشهور فهزمهما سرتوريوس في عدد من المعارك أيضاً انتهت ببومبي إلى الإفلاس

(١) بومبي الأكبر : (١٠٦ ـ ٤٨ق.م) قائد روماني أدى خدمات جليلة لصلا في عدة ساحات للقتال فمنحه لقب الأكبر. كان مرهف الشعور شديد الحياء وكان باسلاً مقداماً يخوض الحروب ولا يبالي بما يتعرض له من الأخطار. وكان متردداً وكان تردده سبباً في هزائمه وكان من أبرز عيوبه غروره وكبرياؤه. منح سنة (٧٦) سلطة برو قنصل للقضاء على بقايا أتباع ماريوس في إسبانيا. وعند عودته إلى إيطاليا سنة (٧٢) قضى على بقايا ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس. تولى قنصلية سنة (٧٠ق.م) برغم مخالفة ذلك للدستور وفي سنة (٦٧) منح لمدة ثلاث سنوات سلطات غير عادية لتحرير البحار من القراصنة. فاز بومبي بانتصارات باهرة في الشرق لكنه ما كاد يصل إلى برنديزي (٦٢) حتى أدهش الجميع بتسريح جيشه فتحداه السناتو فتحالف مع قيصر وكراسوس وتكونت منهم الحكومة الثلاثية الأولى (٦٠ق.م) ثم ما لبث النزاع أن دب بين المتحالفين فانحاز السناتو لبومبي واتخذه زعيماً وأمده بجيش مجهز من ١٢٥٠٠٠ مقاتل وأسطول مؤلف من ٥٠٠ سفينة ووضعت خزينة الدولة بتصرفه وتولى بومبي قيادة قوات السناتو وبعد هزيمته في فارساليا عام (٤٨) فرَّ إلى مصر حيث قتل عند وصوله (قصة الحضارة ـ الموسوعة العربية الميسرة).

فطلب من روما نجدة من الأموال والرجال .



الامبراطور أوكتافيوس



القائد الروماني الكبير بومبي أوبومبيوس

وأخيراً جاءت نهاية سرتوريوس على أيدي أعوانه الرومانيين الذين غدروا به في إحدى الحفلات فطعنه أحدهم وهو يحاول احتساء كأسه وأجهز عليه مساعده القائد بربينا. وهكذا قتل سرتوريوس الذي وقف بوجه روما وحارب أشهر قادتها وتغلّب عليهم بسبب الخصومات التي نشبت بين القادة على تولي السلطة العليا في روما .

وعندئذ زحف بومبي على الخائن بربينا وهزمه من أول المعركة ثم قبض عليه وأمر بقتله فوراً بسبب خيانته لسيّده . كان القائد بومبي نبيلاً تجري في عروقه دماء النبلاء الشرفاء وكان قد عزّ عليه قتل قائد روماني كبير غدراً بأيدي أعوانه ومساعديه حتى ولو كان من خصومه الألداء .

وعثر بومبي على رسائل كانت تصل إلى سرتوريوس من أعضاء مجلس الشيوخ ومن أشراف روما يناشدونه العودة لإنقاذ الوطن من القادة المتمردين ولكنه خزقها كلها دون أن يطلع على معظمها حتى يُجنّب روما هزّة جديدة قد تودي بها إلى الدمار .

بعد مصرع سرتوريوس استسلم لبومبي حكام المقاطعات الإيبيرية وبذلك دانت له البلاد كلها كحاكم مطلق اليد .

في هذا الوقت اغتنم دوميتيوس فرصة انشغال بومبي في إيبيريه وغيرها فغادر شواطىء أفريقيا الشمالية متوجّهاً إلى روما وهناك أعلن نفسه حاكماً مستبدّاً على إيطاليا . وكان بومبي أثناء ذلك في صقلية فعيّن عليها حاكماً هو ميميوس زوج أخته وأبحر بجيشه في ١٢٠ سفينة حربية و ٨٠٠ سفينة شحن فيها ذخائره ومؤنه وأمواله وآلات الحصار متوجهاً إلى الشاطىء الأفريقي ، فأنزل نصف قوّاته في مدينة يوتيكا القديمة[١] القريبة من تونس

---

(١) أشرنا إليها سابقاً.

وأنزل النصف الآخر في قرطاجة التي كان قد أعيد بناؤها .

فأسرع دوميتيوس إلى نوميديا فوصلها قبل وصول بومبي وراح يحشد قوّاته للمعركة الفاصلة ولكن سرعان ما تغلّب عليه بومبي وكان من جملة الذين قتلوا في المعركة دوميتيوس نفسه ، أما الملك بارباس وهو من الملوك التوحيديين وكان مساعداً لدوميتيوس فقد أُخذ أسيراً . وعيّن محلّه هيمباسال ملكاً على نوميديا . ثم أعاد تنظيم ممالك شمال أفريقيا ، فأقر فيها العروش والنظام تحت الحكم الروماني ، وكان معظم تلك الممالك قد استقل عن روما خلال المنازعات والحروب بين القادة الرومان أنفسهم .

ولمّا عاد بومبي إلى يوتيكا وجد بانتظاره رسالة من سولا يأمره فيها بحل جيشه والاكتفاء بفرقة واحدة ، كما يأمره بالخضوع إلى القائد الجديد الذي سيرسله ليحل محله في شمال أفريقيا .

وحاول بومبي في أول الأمر إطاعة الأوامر الصادرة إليه ولكن الجيش ثار وراح يندّد بسولا ، وأعلنوا عزمهم على أنهم لن يتركوه « أي بومبي » وطلبوا إليه ألا يخضع لأوامر سولا المستبد .

عندئذ أبحر بومبي بقواته متوجّهاً إلى روما . . وشعر سولا بالخطر عندما وجد الشعب كله يقيم الزينات احتفالاً بوصول بومبي ، فقرّر أن يلجأ إلى أسلوب المهادنة . فلمّا وصل بومبي كان سولا على رأس مستقبليه فصاح مرحّباً به : مرحباً ببومبي « العظيم » « ماجنوس » وطلب من الشعب تلقيب بومبي بالعظيم أي « ماجنوس » وكان بومبي بعد أن دان له الشمال الأفريقي قد هتف له الشعب ملقباً إياه بـ « الأمبراطور » ولكن بومبي رفض اللقب ، أما الآن فقد أصبح « بومبي العظيم » وعمره ٢٤ سنة فقط .

ترتيبات بومبي العظيم

وكان لقب « ماجنوس » يعني الأعظم وأيضاً « ماكسيموس » هذا اللقب لم ينله من قبل سوى فاليريوس الذي أصلح ما بين الشعب الروماني وأعضاء مجلس الشيوخ . وفابيوس روللوس الذي حرّم على أعضاء مجلس الشيوخ تشريف أبنائهم الخلاسين[1] ، كما طرد من مجلس الشيوخ العبيد المتحرّرين الذين وصلوا إلى عضوية المجلس بأموالهم .

وبعد موت سولا تجدّد النزاع بين القادة الرومان ومنهم القائد بروتوس[2] ولكنه ما لبث أن سلم نفسه إلى بومبي ، وبروتوس هذا مع كاسيوس هما اللذان قتلا يوليوس قيصر فيما بعد .

وأصبح بومبي بعد كل تلك الحروب قنصلاً للمرة الثانية . وبعد أن خاض حروباً موفّقة في آسيا والبحر الأبيض المتوسط ، قسم جميع البحور ومنها البحر المتوسط إلى ١٣ قسماً وعيّن على كل قسم كتيبة « سكوادرون » تحت إمرة ضابط أو قائد من قادته وهكذا وزّع نفوذه على جميع البحار فأخضع الفينيقيين في كيليكيا شخصياً فقاد الحملات ضدهم بنفسه لإخضاعهم . وقضى على القراصنة والثوّار حول سردينيا والشواطىء الأفريقية .

---

(١) الخلاسي: هو المولود من أبوين من جنسين مختلفين.

(٢) بروتوس: هو في الحقيقة لقب لعشيرة رومانية قديمة كان هذا أحد أبنائها واسمه الكامل ماركوس يونيوس بروتوس: (٨٥ ـ ٤٢ق.م) كان من مناصري بومبي ضد قيصر وعندما انتصر الأخير على غريمه كما مرَّ معنا قبلاً عفا عن بروتس وقرّبه إليه ومع ذلك انضم بروتس إلى المؤامرة التي أودت بحياة قيصر سنة (٤٤ق.م) فانتصر أوكتافيوس وانطونيوس على الجمهوريين وانتحر بروتوس سنة (٤٢ق.م) وكذلك كان أحد أقاربه دكيموس يونيوس بروتس عضواً في تلك المؤامرة حاصره انطونيوس عند موتينا وقتل وهو يحاول الفرار سنة (٤٣ ق.م) .. (المرجع السابق).

الشعوب التي انتصر بومبي عليها

ومن قبيل التفاخر كان يحمل معه دائماً جداول تضم أسماء الشعوب التي تغلب عليها وهي : بونتوس دولة كنعانية سكانها من عرقا وموقعها في آسيا الصغرى وأرمينيا «وكايدوشيا وبافلاغونيا في آسيا الصغرى، وميديا في فارس وكوشيا في شمال آسيا الصغرى ، وإيبيريا القطر الذي أسسه عابر بن أرفخشاد بن سام بن نوح، وموقعه شمال فارس، والبانيا، وهي البيريا سابقاً سكّانها من لباب الكنعانيين، وسوريا وكيليكيا الكنعانية ومسبّوتاميا[1] وفينيقيا ـ لبنان حالياً ـ وفلسطين وسكانها من البلاسجيين[2] وتمت من غزّة إلى حيفا على ساحل البحر ، واليهودية «القدس وما حولها من القرى فقط» هذا بالإضافة إلى قوائم بأموال الجزية المفروضة على تلك البلاد ومقدارها خمسون مليوناً من الذهب والفضّة، وكان معه من الأسرى ابن تيغرانيس ملك أرمينيا وزوجته وابنته وزوجة الملك تيغرانيس نفسه واريستوبولوس ملك جوديا القدس أي اليهودية[3] . وشقيقه الملك ميتريداتيس ملك بونتسو وأولادها الخمسة .

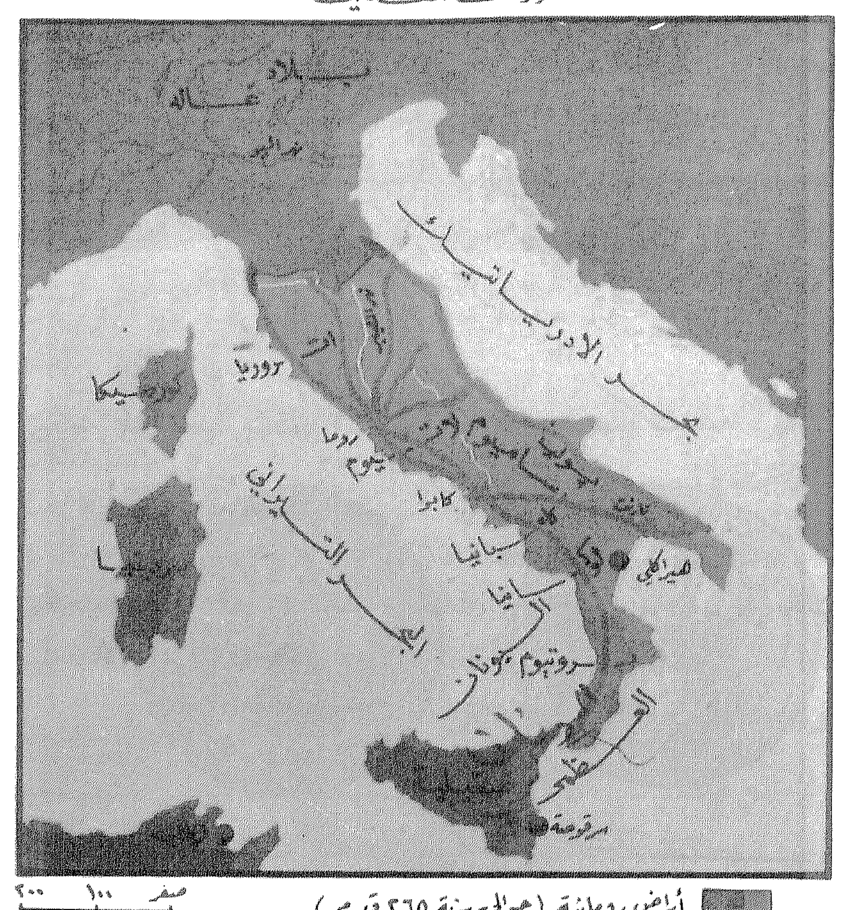
---

(١) مسبوتاميا: هي في اليونانية بلاد الرافدين أو كما عرفت ببلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وهو إقليم بغرب آسيا حول نهري دجلة والفرات الأدنيين يقع الآن بالعراق. كان هذا الإقليم مهداً لحضارات ترجع إلى الألف الرابعة ق.م حيث ازدهرت مدن أردو وأور ولجش وأكاد وبابل كما شهد قيام الامبراطورية البابلية والآشورية. تدهور الإقليم من بعد لكنه احتفظ بأهميته في عهد الدولة البيزنطية. اجتاحته جيوش المغول بقيادة هولاكو خان تخريباً وسلباً (١٢٩٨م) وهو اليوم قاحل أجرد في معظمه وإن حفل بآبار البترول الغنية. (الموسوعة العربية الميسرة).

(٢) البلاسجيين: أو البلاستيين، وهم من شعوب البحر الأبيض المتوسط، هاجمت هذه الشعوب مصر في أيام الأسرتين (١٩ و ٢٠) واستقروا على الشاطىء الشرقي للبحر بعد هزيمتهم (١١٨٧ق.م) أمام رمسيس الثالث وباسمهم سميت فلسطين ويقال بأنهم السكان الأصليّون الذين سكنوا شبه جزيرة البلقان قبل قدوم الإغريق إليها.

(٣) اريستوبولوس هو في الحقيقة اسم لعدد من ملوك جودايا أو اليهودية كان أشهرهم آخاهير كانوس.

روما القديمة






دينار روماني فضي

نهاية بومبي

في هذا الوقت كان قيصر قد عاد من الخدمة العسكرية فانتخب قنصلاً . . ثم راح نجمه يتألّق في الحروب والمعارك ومع هذا التألق كان التباعد يزداد بينه وبين بومبي الكبير أعظم شخصية عسكرية رومانية في عصره . وهو الآن في الستين من عمره ، ثم ما لبث التباعد أن أصبح عداوة بين الاثنين وكان لا بد لأحدهما من أن يمشي فوق جثّة الآخر حتى تستقر الأوضاع .

وأخيراً حسمت بينهما معركة « فارسيليا » فانتصر قيصر على بومبي لدرجة أن جنود قيصر استولوا على معسكر بومبي ، فتسلّل بومبي من المعسكر هارباً فلمّا ابتعد عن المعسكر تخلّى عن جواده وانطلق على قدميه ماشياً وهو يفكّر بانتصاراته السابقة والأربع والثلاثين سنة من عمره التي قضاها متنقلاً من بلد إلى آخر إلى أن تمكّن من العثور على سفينة أقلّته إلى قبرص ومن هناك أقلع بسفينة أخرى إلى مصر .

وأرسل قيصر في أثره عدداً من الضبّاط لقتله منهم سبتيميوس وسالفيوس ، وصادف أن كان بومبي في مركبه على شاطىء بليوزيوم جنوبي الدلتا عندما اقترب قارب مصري يقلّ سبتيموس والعصابة المكلفة بقتله ، من أقاربه ، ثم انتقل سبتيموس إلى مركب بومبي ، وبينما كان بومبي يهم بالوقوف بمساعدة فيليب خادمه طعنه سبتيموس بسيفه في ظهره . ثم تقدم سالفيوس وأخيلاس المصري فأجهزا عليه في الوقت الذي رفع فيه بومبي طرف عباءته فوق وجهه . . بعد ذلك انطلقت من فمه حشرجة سقط على أثرها ميتاً . عندها تقدم أحد القتلة وقطع رأس بومبي وحمل الباقون جثّته وقذفوا بها عارية إلى الشاطىء . . وقام فيليب خادمه بحرق الجثة وفقاً

للطقوس المتّبعة وأرسل رماد بومبي إلى زوجته كورنيلا بنهاية لم تكن متوقّعة لقائد روماني فتح الأمصار وأذل الملوك وخضعت له الرقاب .

يوليوس قيصر يوحّد الجيش الروماني

هذه الحروب المتواصلة شغلت الرومان زمناً طويلاً عن ممالك شمال أفريقيا ، وإن ظلت مرتبطة بروما على شكل « كومنويلث » يدفع ملوكها الجزية إلى القادة الرومانيين الذين كانوا لا يتدخلون كثيراً في شؤون البلاد . ولكن أولئك الملوك كانوا يمثلون مع جيوشهم احتياطياً للحاكم الروماني يمكن أن يستغلّه لصالحه في حروبه مع منافسيه القادة الرومانيين الطموحين .

ولما خلا الجو ليوليوس قيصر بموت عدوّيه : كراسوس الذي قتل أثناء المعركة الفاصلة بينه وبين البارثين الفرس في آسيا ، وبومبي الكبير زوج ابنته جوليا . ضم يوليوس قيصر سنة « ١٠٠ ـ ٤٤ بعد الميلاد » جنود بومبي إلى جيشه ، وأصدر عفواً عن عدد من الضباط المخلصين لبومبي ومنهم الضابط بروتوس الذي اغتال قيصر فيما بعد .

ثم توجّه بعد ذلك إلى الاسكندرية وهناك قدم إليه تيودوتس رأس بومبي فأشاح عنه وأجهش في البكاء . ولكنه أخذ خاتم بومبي وكان محفوراً عليه صورة أسد يحمل سيفاً . وعفا عن أصدقاء بومبي الذين قبض عليهم بطليموس ملك مصر أثناء هروبهم وتشرّدهم في مصر .

ولكن بطليموس ملك مصر وهو من نسل بطليموس الأول أحد قادة الاسكندر الثلاثة الذين ورثوا امبراطوريته لم يكن راضياً عن الاحتلال الروماني لبلاده والممثل حالياً بوجود قيصر الروماني وجيشه .

ويقال بأنه اشترك بمؤامرة مع وزرائه ومنهم قائد الجيش المصري

أخيلا[1] والخصيّ بوثينوس وكلاهما اشترك بقتل القائد الكبير بومبي . . وكانت المؤامرة تقضي بقتل قيصر أثناء الاحتفال الذي سيقام على شرفه .

كليوبترا والقيصر

وكان الخصي بوثينوس قد نفى كليوبترا أخت الملك بطليموس إلى إحدى المدن الداخلية ، فأرسل قيصر يستدعيها إليه بعد أن وصف له جمالها ورقّة أنوثتها ، فجاءت خفية مع خادمها أبوللودوروس الصقلي ، ونقلها أبوللودوروس إلى جناح قيصر ملفوفة بحشيّة « فرشة » كأنها حزمة فراش كبيرة ، فسحرت قيصر بفتنتها الطاغية وحديثها العذب ، فصالحها مع أخيها الملك على شرط أن تكون شريكته في الحكم . وتأخّر موعد الاحتفال بقيصر بسبب المصالحة . وفي أثناء ذلك علم حلّاق قيصر بقصّة المؤامرة المدبّرة لقتله ، فأوعز قيصر لرئيس استخباراته بقتل الخصي بوثينوس عند دخوله قاعة الاحتفال . فلما قتل الخصي هرب أخيلاس قائد الجيش المصري واستنفر قوّاته للقتال . ولكن قيصر فوّت عليه الفرصة فحاصر أسطوله البحري وضيّق عليه الخناق ، عندئذ أشعل أخيلاس النار بأسطحة بعض المراكب ثم علق اللهب المتصاعد بمكتبة الإسكندرية الكبرى فأحرقها .

وفي المعركة التي جرت قريباً من فاروس قفز أخيلاس إلى قارب صغير لمساعدة جنوده المطوقين ولكن قاربه غطس في الماء فحاول النجاة سباحة ولكنه غرق . وهاجم قيصر الملك بطليموس ومن معه ونشبت معركة

---

(١) أخيلا أو أخيلاس أحد ثلاثة من رجال البلاط البطلمي أرادوا الاستئثار بالسلطة حين كانت كليوباترة السابعة تتوق إلى الانفراد بالحكم. تولى قيادة جيش أخيها بطليموس الثالث عشر ضدها. ثم ضد قيصر في (حرب الاسكندرية) حتى أعدمته أرسينوي أخت كليوباترا سنة (٤٨ق.م) (الموسوعة العربية الميسرة).

صغيرة قتل فيها عدد من أنصار الملك واستسلم الباقون واختفى الملك إلى الأبد ، إذ لم يعثر له على أثر .

وعاش قيصر بعض الوقت مع كليوبترا فأنجبت له ابنة قيصرون وقبل أن يغادر مصر أصبحت كليوبترا ملكة على عرش النيل .

وانطلق قيصر بجيشه وأسطوله إلى سوريا بعدما علم بأن الملك فرنسيس بن ميثريداتيس ملك بونتوس « بونت » هزم القائد الروماني دوميتيوس ففر من أمامه وفي أثناء مطاردته استردّ فرناسيس « بيثينيا »[1] وكابدوشيا . ولكن قيصر عاد وهزم فرناسيس في معركة « زيلا » ثم عاد إلى روما فانتخب مرة ثانية دكتاتوراً . كذلك أعيد انتخابه قنصلاً مرة أخرى .

بعد معركة فارساليا التي انتصر فيها قيصر على بومبي هرب القائدان كاتو وسكيبيو ، والأخير من نسل سكيبيو الذي هزم هنيبعل في شمال أفريقيا ، لأنهما كانا نصيرين وصديقين لبومبي الكبير . وهناك بالاتفاق مع جوبا ملك نوميديا حشدوا قوات ضخمة ، فأسرع قيصر بأسطوله إلى صقلية في فصل الشتاء ، ثم أقلع منها مع رياح صاعقة . إلى الشاطىء الأفريقي ، وكانت قواته مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي من المشاة وبعض الفرسان ، ثم قفل عائداً إلى صقلية سراً ومتخفّياً لإحضار بقية الجيش ولكنه التقى بجيشه قادماً في البحر فعاد معهم إلى الشاطىء الأفريقي .

وكان ثمة استطلاع أوحاه بعض العرّافين يقول : بأن عائلة سكيبيو سيكون النصر حليفها دائماً ، ويبدو أن الحظ كان إلى جانب كاتو وسكيبيو والملك جوبا لأنهم ظفروا مرتين بقوات قيصر بسبب تهاونها بتشديد الحراسة ولعدم يقظتها أيضاً .

---

(١) بيثينيا هي في الحقيقة بيت عنيا.

القيصر يحطم أعداءه

بعد هذين الانتصارين انتعش سكيبيو فقرر أن يقوم وحده بعمل خارق فترك افرانيوس والملك جوبا وتوجّه بقوّاته إلى تابسوس لبناء حصن فوق إحدى البحيرات لاستخدامه في حالة قيامه بهجوم معاكس .

فزحف قيصر مخترقاً إحدى الغابات الكثيفة ومن خلال مقاطعة كان يفترض أنه من الصعب على أي جيش عدو أن يجتازها . وفجأة فصل بين جيشي أعدائه منقضاً على معسكر فرانيوس فدمّره ثم ارتدّ إلى معسكر الملك جوبا فقوضه وفعل مثل ذلك بمعسكر سكيبيو . .

وهكذا تمكّن في يوم واحد من السيطرة على ثلاثة معسكرات . بعد مجزرة قتل فيها خمسين ألف جندي من أعدائه وخسر من جيشه خمسين جندياً فقط . ولكنه في النهاية قضى على أعدائه الرومانيين ما عدا الملك جوبا الذي هرب واختفى في نوميديا .

ولما عاد قيصر إلى روما قدم للشعب حصيلة معاركه الأخيرة قائلاً : لقد أخضعت بلاداً غنية ستموّن الشعب الروماني بمئتي ألف بوشل من القمح وثلاثة ملايين رطل من الزيت ، ثم حدّثهم عن غزو مصر وبونت ونوميديا الأفريقية وتبجح بانتصاره على جوبا ملك نوميديا ، وكان قد أسر ابنه وأحضره معه في موكب النصر ، ابن جوبا هذا يقول المؤرخ بلوتارخ في ص ٥٩٨ ساعده الحظ ليحتل مركزاً مرموقاً بين معظم العلماء مؤرخي الإغريق .

وانتخب قيصر للمرة الرابعة قنصلاً فغادر روما لمحاربة ابني القائد بومبي اللذين اعتصما في إسبانيا .

وقد خاض قيصر أعظم معاركه وأصعبها في هذه الحرب ضد ابني بومبي لأنهما في الحقيقة كانا من الفرسان الأشدّاء ، ولأنهما ضمّا إليهما كل أعداء الرومان من الكنعانيين في إيبيرية وعندما اشتدت المعركة تسرب الضعف والخور إلى جنود قيصر فاضطر إلى أن يدافع عن نفسه بحسامه وفي أثناء ذلك صاح بجنوده موبخاً : أليس من العار أن تسلموني إلى يدي ولدين موتورين . وبعد جهد جهيد تمكّن من الانتصار ، وقتل من جنود ابني بومبي ، ثلاثين ألفاً وعند عودته إلى معسكره قال قيصر كلمته المشهورة : « في هذه المعركة لم أحارب من أجل كسب الانتصار ولكن للدفاع عن حياتي . . وذلك لأول مرة » .

وقد تمكّن ابن بومبي الأصغر من الهروب ، ولكن ديديوس أحضر إليه بعد مدة رأس أخيه الأكبر .

ولمّا أقام قيصر احتفالاً لمناسبة انتصاره على الأخوين ابني بومبي تصاعدت صيحات الهياج والاستنكار في روما غضباً واستياءً من قيصر ، وراح الخطباء في روما يندِّدون بتلك المذبحة التي قتل فيها عدد كبير من الرومان ، وليس من « البرابرة الأفريقيين » بقصد تدمير ابني بومبي أعظم قائد في التاريخ الروماني .

هذه المعركة حركت الضغائن والأحقاد في صدور عائلة بومبي وأنسبائها والقادة والضباط الذين حاربوا مع بومبي وبدأ الجميع يحيكون مؤامرة للتخلص من قيصر .

وشيّد قيصر مستوطنات خصّ بها كبار المحاربين والأبطال وتصالح مع جوبا الثاني ملك نوميديا .

المغرب يثور ضد الحكم الروماني

وكانت ردّة الفعل في المغرب ، ثورة شعواء ضد الحكم الروماني أشعلت نيرانها القبائل الكنعانية التي يطلق عليها الرومان اسم البرابرة أو البربر . . ولكن الثورة قمعت مرة بعنف وأخرى بالملاينة فألحق شمال المغرب بروما بمعنى أنه صار جزءاً من الأمبراطورية الرومانية وأصبح ولاية أطلق عليها اسم « موريتانيا تينجيتانا » أصبحت عاصمتها « طنجة » وذلك عام ٤٦ بعد الميلاد . ولكن روما لم تتمكّن من فرض سيطرتها على البلاد المغربية الداخلية الوعرة المسالك كجبال الأطلس والصحراء المغربية حيث يقطن رجال أشدّاء وقبائل أشد قوّة من قوّات روما . لهذا بسطت نفوذها على الساحل أي مملكة موريتانيا الشاطئية ، من جبل طارق إلى ما يسمى حالياً بالرباط ثم مكناس حيث كانت توجد بلدة « فيلوبوليس »[١] التي ما تزال أطلالها قائمة وبقيت هذه الولاية تحت الحكم الروماني زهاء مئتي عام . . ولكنها لم تكن أعوام استقرار وسلام بالنسبة للرومان . في حين كانت نوميديا مكان دولة الجزائر الآن وتونس مملكة تتعاون مع الرومان ولكن ليست مستعمرة لأنها مملكة والمملكة لا تكون مستعمرة .

أصدقاء بومبي يثأرون من قيصر

ظلّت ردّة الفعل الرومانية ضد قيصر بسبب معركته الأخيرة مع ابني بومبي ، على أشدها . القاضيان بروتوس وكاسيوس أعادا صُوَر بومبي المحفورة على الرخام الرقيق إلى أماكنها بعد أن كان قد طُوّح بها من قبل ،

---

(١) فيلوبوليس أو Volubilis وهي مدينة وليلي التي تعد من أبرز وأهم المدن الأثرية المغربية تقع على بعد ٣ كلم من مولاي إدريس. أسسها المغاربة القدماء (الموريطانيون) وجعل منها الرومان مدينة زاهرة خصوصاً في عهد الامبراطورية.

وشيشرون خطيب روما وعضو مجلس الشيوخ أعاد تمثال بومبي إلى مكانه . وحاول قيصر أن يخفف من حدّة هياج روما ضده بإرسال الهدايا الثمينة والقمح وغير ذلك إلى عدد كبير من الناس من كل الطبقات .

وفي الوقت نفسه جدد بناء قرطاجة للمرة الثالثة ومدينة كورنت الحتّية في اليونان .

وظل قيصر مشغول الفكر دائماً ، بينه وبين نفسه كان يحسب حساب أنه سيغتال في يوم ما . . لذلك كان يخشى من بروتوس الذي كان يتظاهر بالولاء له ويطوي كشحه على حقد دفين ومن كاسيوس أيضاً وبعد عودته إلى روما وهي الأخيرة ، تربص له أعداؤه عند دخوله مجلس الشيوخ وبعد جلوسه بقليل على مقعده هاجموه بسيوفهم وخناجرهم . وكان أول من هاجمه كاسكا طعنه في عنقه وطعنه بروتوس في أُربيته[1] وانهالت عليه الطعنات وعددها ٢٣ طعنة فسقط تحت تمثاله حيث لفظ أنفاسه الأخيرة . .

وهكذا انتقم أصدقاء بومبي من قيصر قاتل بومبي الكبير .

كان يوليوس قيصر بين العديدين من قناصل روما من أصل كنعاني لأنه متحدر من « إينياس » الذي هرب من طروادة بعد سقوطها وأنشأ أسرة ملكية أنجبت عدداً من الملوك والأباطرة .

أنطوني يخلف يوليوس قيصر ويتوج كليوباترة ملكة

مارك أنطوني[2] صديق يوليوس قيصر ، حلّ محله قنصلاً وقيصر

(١) أربيّته: الأربيّة هنا أصل الفخذ مما يلي البطن أو لحمة فيه. والأربيّة أيضاً أهل بيت الرجل وبنو عمّه يقال: جاء في أربية من قومه (المعجم الوسيط).

(٢) مارك أنطوني أو أنطونيوس ماركوس انطونيوس (٨٣ ـ ٣٠ق.م) سياسي وجندي روماني من أسرة بارزة اتصف منذ شبابه بحب المجون والشجاعة كان في شبابه ضابطاً

سيّداً على إيطاليا والبلاد التي تحتلها أو الخاضعة لنفوذها . كما اتخذته كليوبترا الإغريقية الأصل ملكة مصر عشيقاً بديلاً لقيصر . . وقد شهدت في زمنه عزّاً لم تشهده من قبل . وقد أقام في مصر عرشين من الفضّة أحدهما له والثاني لكليوبترا ثم أصدر مرسوماً أعلن فيه كليوبترا ملكة على مصر وقبرص وليبيا وسوريا المجوفة . ويتقاسم معها هذا الملك العريض ابنها قيصرون بن يوليوس قيصر .

أما أبناؤه ـ أي أبناء أنطونيوس من كليوبترا ـ فقد أنعم على كل واحد منهم بلقب « ملك الملوك » فمنح ابنه الكسندر « منها » أرمينيا وميديا وزوَّجه ابنة ملك ميديا ومنح ابنه الثاني منها « بطلومي » فينيقيا « لبنان » وسوريا وكيليكيا كما أهداها كالفيسيوس الروماني أحد أتباع يوليوس قيصر ٢٠٠ ألف مجلّد من مكتبة برق ـ أموس إحدى ممالك آسيا الصغرى تعويضاً لها عن مكتبة الاسكندرية التي أحرقت كما مر معنا » .

التنافس الشديد بين أنطونيوس وأوكتافيوس

ولكن الأجواء في « روما » سرعان ما تعكّرت بعد أن دبت الغيرة في قلبها من منافستها مصر . وبعد أن أصبح أنطونيوس العشيق المدنف لا يهتم

نابهاً. حارب مع قيصر في بلاد الغال وحاز إعجابه ولما استفحل النزاع بين قيصر والسناتو انحاز لقيصر وانضم إليه في رافنا قبل بداية الحرب الأهلية وخاض معه معاركها في إيطاليا وبلاد الإغريق. وفي فارسالوس قاد قيصر الجناح الأيمن وقاد انطونيوس الجناح الأيسر وأظهر كفاية عالية. بعند قدوم أوكتافيوس ابن قيصر بالتبني ووريثه انضم إليه لكن الخلاف دب بينهما سريعاً وتكوّنت الحكومة الثلاثية منهما ومن البيدوس. وبعد انتصار أوكتافيوس وأنطونيوس على الجمهوريين في معركة فيليبي عهد إلى أنطونيوس بتنظيم شؤون الشرق حيث قابل كليوباترة وهام بحبها عام (٤١ق.م). وفي عام (٣١ق.م) هزم أنطونيوس وكليوباترة في موقعة اكتيوم وفي العام ٣٠ق.م وقبيل دخول أوكتافيوس إلى الاسكندرية انتحر أنطونيوس (الموسوعة العربية الميسرة).

بروما ولا بزوجته شقيقة أوكتافيوس الذي أصبح بدوره قيصر على روما ـ بعد أن أعلنت طلاقها وانفصالها عن مارك أنطونيوس .

وأعلنت الحرب بين القيصرين : أوكتافيوس قيصر روما ومارك أنطونيوس القيصر الشرعي المغضوب عليه ، فأما روما فقد جهزت أوكتافيوس بالمال والرجال ، وقامت كليوبترا بتجهيز مارك أنطونيوس بأسطول جديد وبالأموال والعتاد . .

واستعد أنطونيوس للحرب فحشد جيشاً ضخماً وأسطولاً كبيراً ضمّ إليه حلفاءه من الملوك والأمراء الأتباع أمثال : بوخشوش الثاني ملك موريتانيا «وتاركومندوس ملك كيليكيا العليا ملك كوماجيني وسعد الله ملك تراقيا «بلغاريا»[1] هؤلاء الملوك جميعاً انضمّوا تحت لوائه مع جيوشهم . . وزوّده « بوليمون » أمير بونت ، ببعض كتائبه كذلك فإن « ملكوس » « ملك العرب » بعث إليه بقوات عربية مجهّزة أحسن تجهيز ، وفعل مثل ذلك هيرود الأدومي ملك القدس وأمينتوس ملك ليكونيا وغلاطيا بالإضافة إلى ملك ميديا الذي أرسل إليه بعض الكتائب الميدية . لقد كانت أمبراطورية مارك أنطونيوس تمتد من الفرات إلى أرمينيا وآسيا الصغرى والبحر الإيجي والبانيا « اليريا » والبحر المقابل لتوسكانيا في إيطاليا وبحر صقلية . .

وكان قيصر يملك الشواطىء المقابلة لإيطاليا « غاليا » وهي فرنسا وإيبيريه لغاية أعمدة هرقل « جبل طارق » كما كان أنطونيوس

(١) تراقيا: إقليم يقع جنوب شرق أوروبا ويشمل جنوب شرق طرف شبه جزيرة البلقان ويشمل شرق اليونان وجنوب بلغاريا وتركيا في أوروبا. أهم مدنه استانبول وأدرنة وغاليبولي وهو إقليم زراعي إلى حد كبير. استوطن التراقيون الأوائل الجهة غرباً إلى البحر الأدرياني ولكن الأليريين دفعوهم شرقاً حوالي سنة (١٣٠٠ق.م) ثم المقدونيين القرن الخامس ق.م ومع أن الإغريق أسسوا مستعمرات مثل بيزنطة إلا أن تراقيا لم تقتبس الثقافة الإغريقية (المرجع السابق).

من « قيريني » في ليبيا إلى أثيوبيا .

وكان قائد جيوش أنطونيوس القائد الروماني كانيديوس ، وقاد جيوش أوكتافيوس القائد طوروس .

انسحاب كليوباترة وهزيمة أنطونيوس

ولكن كليوبترا التي لم تكن واثقة من نفسها ، بقيادة أسطولها المؤلف من ٦٠ مركباً حربياً ، اغتنمت فرصة تعادل الأسطولين في معركة « أكتيوم »[1] فأمرت قائد أسطولها بالتراجع والعودة إلى الاسكندرية ، فصعق أنطونيوس وفجأة شعر هو نفسه بالتخاذل فولى الإدبار مصطحباً معه في سفينته أبيه الكسندر ملك سوريا وانطلق وراء سفينة كليوبترا تاركاً أسطوله تحت رحمة أوكتافيوس . وبعد حين هرب كانديوس قائد جيش أنطونيوس ، فانضم الضباط والجنود إلى أوكتافيوس وهرب هيرود الآدوفي[2] ملك القدس وانضم بالمثل إلى أوكتافيوس وهكذا سجل مارك أنطونيوس على نفسه أفظع هزيمة في التاريخ الروماني . كل ذلك بسبب غرامة بكليوبترا الملكة اللعوب . . التي انتحرت بعد ذلك بلسعة « صل سام » حتى لا تقع أسيرة في يدي أوكتافيوس الذي كان ينوي أن يقودها إلى روما كإحدى السبايا . وانتحر من بعدها أنطونيوس فاستردّت روما ما تبقّى لها من هيبة وعظمة واطمأن قلبها بعد موت منافستها

---

(١) أكتيوم: رأس في الشمال الغربي ببلاد الإغريق حيث انتصر أوكتافيوس (فيما بعد أوغسطس) على أنطونيوس وكليوباترا عام (٣١ق.م).

(٢) هيرود: أسرة أسسها انتباتروس أحد المقربين إلى قيصر بعد هزيمة بومبي وقد أحرز نفوذاً في فلسطين خلع ابنه هيرود الأكبر اسمه على الأسرة. عاونه انطونيوس على تنصيبه ملكاً على جودايا أرض اليهود سنة (٣٧ق.م) وبعد معركة اكتيوم وقع هيرود الصلح مع أوكتافيوس. ولد في أيامه السيد المسيح. وهو الذي أمر بقطع رأس يوحنّا المعمداني وجرى في عهده صلب المسيح (المرجع السابق).

كليوبترا . . بفضل ابنها البار أوكتافيوس الذي أصبح قيصر على المشارق والمغارب بالإضافة إلى أوروبا .

خلفاء أنطونيوس

وخلف أنطونيوس سبعة من الأبناء والبنات : انتيللوس وهو الأكبر قتله أوكتافيوس ، وتبنّت أوكتافيا زوجة أنطونيوس وأخت القيصر أوكتافيوس المنتصر تبنّت الستة الباقين ، أما الحسناء كليوبترا بنت الملكة كليوبترا من أنطونيوس فقد زوجت إلى جوبا الثاني[1] ملك النوميديين الذي بلغ في ذلك العصر ذروة الأبّهة والعظمة بسبب ولائه لروما والقيصر أوكتافيوس .

وكانت أوكتافيا قد أنجبت من أنطونيوس فتاتين : إحداهما تزوّجت دوميتيوس اهينوباريوس والثانية أنطونيا التي اشتهرت بجمالها وفضائحها . تزوّجها دروسوس بن ليفيا الابن المتبنّى لأوكتافيوس وأنجبت أنطونيا من دروسوس ، جرمانيكوس وكلوديوس ـ وهذا الأخير أصبح قيصر في عصره ـ وأنجب جرمانيكوس ابناً هو كايوس الذي نادى بنفسه امبراطوراً وادّعى الألوهية وكان مختل العقل ، فقُتل مع زوجته ، وكان قد أنجب فتاة هي أغريبينا وهذه أنجبت ابناً هو لوسيوس ميتوس من زوجها اهينوباربوس ، ثم تزوّجت مرة أخرى كلوديوس قيصر الذي تبنّى دوميتيوس ، بعد أن أطلق عليه اسماً جديداً هو « نيرون جرمانيكوس »[2]

---

(١) جوبا أو يوبا الثاني (ت ٢٠ق.م) ابن يوبا الأول ملك نوميديا تربى بروما وقد أقامه أغسطس حاكماً على نوميديا ثم موريتانيا تزوج أولاً كليوباترا سليني ابنة انطونيوس من كليوباترا وبعدها كلافورا ابنة أرخيلاوس ملك كابادوكيا اشتهر بعلمه وثقافته وحاول إدخال أساليب الحياة الإغريقية والرومانية إلى بلاده. (المرجع السابق).

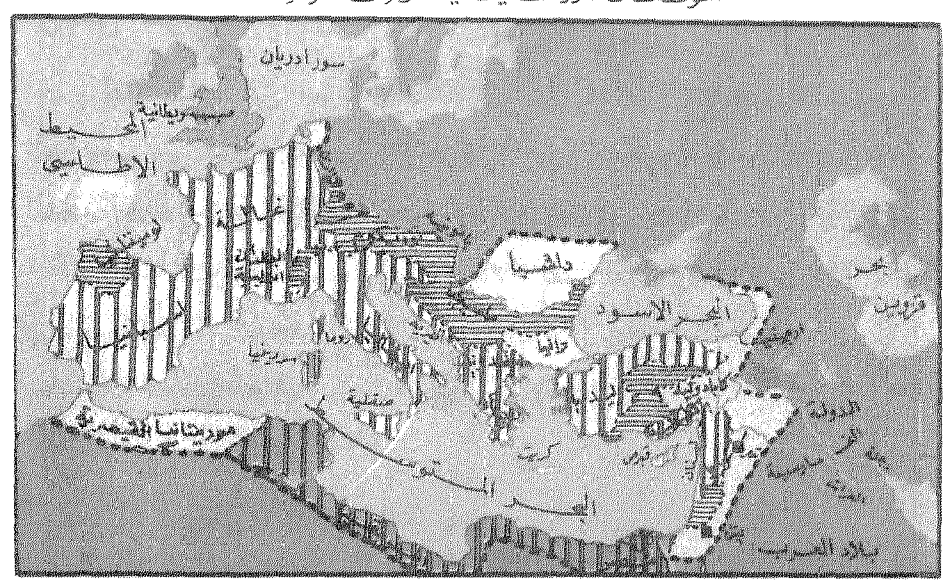
(٢) نيرون كلاوديوس قيصر (٣٧ ـ ٦٨) امبراطور روماني من (٥٤ ـ ٦٨) ابن دوميتيوس وأكريبينا الثانية. اتسمت تصرفاته بالوحشية التي جعلته مضرباً للأمثال فقد قتل أمه ثم

الذي أصبح امبراطوراً . وكان هو الآخر مختل العقل مجنوناً قتل أمّه وحاول إحراق روما في ليلة من ليالي لهوه . . وهو آخر الملوك والأباطرة من نسل انطونيوس من زوجته أوكتافيا الرومانية .

لقد اتّبعنا في سرد هذه الوقائع والأحداث التاريخية الأسلوب المختصر على قدر ما لدينا من المصادر التاريخية القديمة وليس المستحدثة المنقولة والمصوغة بقوالب غربية استعمارية لأغراض مفهومة ومعروفة .

زوجته أوكتافيا وتلقى عليه تبعة إحراق روما الكبير سنة (٦٤) ارتكب سلسلة من أعمال القتل الوحشية كان من ضحايا (سنيكا ويوبايا) كان يعتقد أنه شاعر وفنان كبير فقال وهو يحتضر «ما أعظم الفنان الذي سيخسره العالم بموتي». (المرجع السابق).

التوسعات الرومانية في حوض المتوسط



الفصل الثاني

مقارنة بين الكنعانيين والرومان

ممّا تقدّم من هذه الدراسة يتبين الفرق الكبير بين حياة الكنعانيين في شمال أفريقيا وحياة المستعمرين الرومان بعد سقوط قرطاجة ولبيان ذلك نقول : أن الكنعانيين الذين جاؤوا من أرض كنعان « فلسطين » ومن فينيقيا « لبنان » ومن سوريا وأجزاء أخرى من البلاد الكنعانية في آسيا الصغرى وتراقيا وغيرها . كانوا بناة مدن ومؤسسي حضارة . جاؤوا ليقيموا وينظموا حياة جديدة ، فأقاموا المصانع والمزارع وجعلوا التجارة سبيلاً للارتزاق على عكس الرومان الذين جاؤوا مستعمرين لسلب محاصيل البلاد ونقلها إلى روما ، وبالرغم من أن موريتانيا ونوميديا كانتا دولتين أو مملكتين إلا أنهما كانتا عاجزتين عن تحرير بلديهما من السيطرة الرومانية ، ولكنهما على عادة الدول الضعيفة انسجمتا لحدٍّ ما مع الحكم الروماني ، في استقلال ذاتي

لم يكن الرومان يراعون شروطه ومعاهداته في أكثر الأحيان .

وكان ملوك موريتانيا ونوميديا يتحزّبون مع حكام روما ويقاتلون في صفوفهم إن في حروبهم الاستعمارية أو في حروبهم الداخلية انسجاماً مع المثل القائل مرغم أخوك لا بطل .

ونحن لا نستطيع أن نسلّم بأن ملوك موريتانيا الكنعانيين كانوا من سَلالة سوفاكس بن هرقل تسليماً كلياً وإلا كان علينا أن نصدق كل الأساطير المنسوبة لهرقل . ولكن الغربيين يختارون من أساطير هرقل ما يوافق مزاجهم الاستعماري ويضربون صفحاً عن التاريخ . وكنا ذكرنا أن هرقل كما هو مدوّن في تاريخ اليونان من أحفاد دنايوس بن البعل ملك صيدا أو صيدون الكنعانية الفينيقية ، وهذه الحقيقة مدوّنة حتى في الكتب التي ألّفها الغربيون ووضعوا جداول لنسب دنايوس وهرقل ولكن على اعتبار أنها أساطير . . وعلى أي الحالين فإن سوفاكس بن هرقل هو كنعاني وأمّه « طنجة » مغربية كنعانية ، ومن هنا يكون كل شيء قد عاد إلى أصوله دون أكاذيب وتمويهات .

وهناك فرق آخر نريد أن نسجّله وهو الفرق بين حياة الكنعانيين وحياة المستعمرين الرومان في شمال أفريقيا . . فالعهود الكنعانية حيث كانت ـ في العصور القديمة ـ حافلة بالبناء وتأسيس الحضارة في أجواء يخيّم عليها الهدوء ، لأن الإنتاج لا يزدهر والتجارة لا تعطي فوائدها إلا في أجواء هادئة خالية من النزاعات والخلافات والحروب . فكل مدينة أنشئت في شمال أفريقيا بناها الكنعانيون ، والصناعة والتجارة اختراعان كنعانيان . وكانت التجارة والصناعة يُستثمران لصالح سكان البلاد ، وكان سكان البلاد يتعاطفون مع أقاربهم الكنعانيين في بلادهم الأصلية في الشرق الأدنى ، فيرسلون إليهم مساعدات سنوية لأن التجارة كانت حركة متواصلة بين الشرق

الأدنى وبلدان الشمال الأفريقي . . وعندما اشتدت المنافسة بين قرطاجة وروما ، شعر القرطاجيون بالخطر الشديد الذي يهدد بلدان شمال أفريقيا فقرروا توحيدها في وجه الخطر الروماني القادم من إيطاليا لفرض السيطرة الرومانية على بلادهم وسلب ونهب الإنتاج الصناعي والزراعي والتجاري . .

فالاستعمار ، إذن ، يعني التسلط على الشعوب بغية إخضاعها لتعمل وتجني لا لحسابها بل لحساب المستعمرين ، فعندما خطب يوليوس قيصر في مجلس الشيوخ في روما قال لهم : لقد احتليت بلداناً بوسعها أن تزوّد روما بـ ٢٠٠ ألف بوشل من القمح وخمسة ملايين رطل من الزيت ـ وهذا يعني معظم المحاصيل في شمال أفريقيا إذا أضفنا إليها محاصيل مصر المحتلة . . هذا ما عدا الجزى المفروضة على بلدان الشمال الأفريقي . . كذا وزنات من الذهب . . وكذا وزنات من الفضّة . . وكذا حيوانات ومواش ، وخيول ومتطوعين لا بد من تجنيدهم وضمّهم إلى الجيش الروماني سواء كان ذا صبغة رومانية بحتة أو جيشاً أفريقياً يقوده قادة من الرومانيين .

فمن أجل إسعاد روما وزيادة ثروتها لا بد من إفقار الشعوب المغلوبة على أمرها في أفريقيا الشمالية ، وتنغيص حياة السكان وإشاعة القلاقل والاضطرابات في البلاد . وبعد أن وحّد القرطاجيون شمال أفريقيا ، كانت تلك البلاد شبيهة ببحيرة هادئة صافية . . ثم جاء الرومان فعكّروا مياهها بوجودهم وحروبهم المتواصلة دون انقطاع .

مهلاً أيها المستكتبون !

فالكنعانيون كانوا بناة حضارة والرومان جاؤوا لتقويض أسس تلك

الحضارة . ومع ذلك فإن المؤرّخ الواعي لا يستطيع أن يكتم آلامه عندما يجد المستكتبين العرب الذين تثقّفوا بالثقافة الأوروبية وعملوا في خدمة من ثقّفوهم يتبجحون بالكتب المنقولة والمترجحة عن مؤرخين أوروبيين ، يتحدثون عن الحضارة الرومانية في شمال أفريقيا أو في منطقة الشرق الأوسط .

السبب في ذلك هو أنهم نقلة ينقلون ما يوضع بين أيديهم من كتب ألّفها غربيون موعز إليهم أن يتحدثوا عن الحضارة الرومانية التي نشرها الرومان في شمال أفريقيا أو في منطقة الشرق الأوسط .

فهل كان ثمّة حضارة للرومان ؟

الجواب : الرومان نقلوا الحضارة إلى بلادهم من البلاد التي استعمروها أو حكموها . . ووصلوا إلى درجة من الغطرسة والكبرياء والتبجح إلى حد تسمية جميع شعوب آسيا وأفريقيا بالبرابرة .

وهذه تسمية ناشئة عن جهل مظلم والجاهل يدّعي عادة ما ليس فيه . . فعندما كانت الشعوب الكنعانية والسامية تنشر أضواء حضارتها في الكون وعندما كانت آسيا تتألق بحضارتها ، كانت أوروبا تغط في ظلام دامس وتكتنفها الغابات الموحشة .

كانت موريتانيا في شمال المغرب إبان الحكم الروماني أقل خضوعاً من نوميديا في « الجزائر » وأقل تعاوناً مع الحكام الرومانيين .

وكان حكم ملوك موريتانيا مقتصراً على المقاطعات الشاطئية كذلك ملوك النوميديين إذ كانت سلطتهم مقتصرة على المناطق القريبة من الشاطىء أما داخلية البلاد وسكانها أيضاً من الكنعانيين الأشداء سواء كانوا من سكّان الجبال أو من سكان الصحاري فظلت بعيدة عن حكمهم وسكانها هم الذين

أطلق عليهم القرطاجيون اسم « مور » ومعنى «مور » سكان الواحات والمستنقعات ، ثم أطلقه الأوروبيون على سكان شمال أفريقيا ، ثم صارت علماً على سكان الأندلس المسلمين قبل سقوط الأندلس وبعدها . كما أطلق مؤرخو الحروب الصليبية على العرب في منطقة الشرق الأدنى اسم « سراسين » وهي كلمة محرفة عن « السرّاقين » بمعنى اللصوص .

وأطلق الإسبان وسكان أوروبا على المجاهدين في شمال أفريقيا اسم « القراصنة » لموقفهم المشرف في الدفاع عن العرب المطرودين والهاربين من الأندلس ، عن طريق البحر حيث كان يتصدى لهم البحارة الصليبيون الهاربون من الشرق الأدنى ، مثل فرسان الهيكل الذين كانوا يحتلون قبرص ومالطا ، ويتصدون للأندلسيين الهاربين في البحر فيصادرون مراكبهم المحمّلة بالنساء والأطفال والرجال فيأسرون ويسبون ثم ينقلونهم إلى أسواق جنوا والبندقية لبيعهم بيع العبيد .

فإذا تصدّى المجاهدون العرب للجنويين والفينيسيين لإنقاذ وحماية الأندلسيين الهاربين من بلادهم وصفهم مؤرخو الحروب الصليبية بالقراصنة كما وصفوا المجاهدين الذين طردوا الصليبيين من فلسطين ولبنان وسوريا بـ « سراسين » .

وبعد هذا يتحدث المستكتبون والنقلة عن الحضارات الرومانية والإغريقية والصليبية يتحدّثون ويذيعون ويترجمون ويوقعون أسماءهم والألقاب العلمية المزيّفة التي حصلوا عليها من الجامعات الغربية ، مفاخرين بعمالتهم للمستعمرين .

المغرب يجدد الثورات في وجه الاحتلال الروماني

في عام ١٨٠ بعد الميلاد تفاقمت الثورات ضد امحتلين وتفاقمت

معها الهجرات إلى الصحراء المغربية والمناطق الجبلية لا هرباً من الاحتلال الروماني والقمع ولكن للتربص والاستعداد لما سيكون . . وهكذا اقتصر الاحتلال الروماني على المناطق الشمالية ولم يجاوز مدينة سلا وهي « سلاكلونيا » بأكثر من ٢٣ كيلومتراً حيث كان هناك برج روماني يدعى « أرميز كليوس » .

واستمرت الثورات متأججة حتى عام « ٢٣٥ ب.م » حيث أصبح شمال المغرب قواعد وقلاعاً للجيوش الرومانية .

وحاول فيرموس إثارة موريتانيا عام ٣٧٢ وكانت قد انحسرت عن الشمال الغربي بسبب ثورته العارمة ، وصارت في الجزء الشرقي من الجزائر . ولكنه سرعان ما استبدل بأخيه جيلدون الذي أصبح قائداً يتعاون مع الرومان من عام ٣٨٥ إلى ٣٩٣ بعد أن عُيّن قائداً للجيش الأفريقي الذي يحارب من أجل الرومان .

ولكنه ما عتم أن ثار بدوره ضد الرومان مصادراً أراضيهم الواسعة في عام ٣٩٦ب .م ، لتوزيعها على المغاربة أبناء البلاد ، ولم تقتصر هذه المصادرة على الملاكين الرومانيين بل تعدّت إلى الملاّكين الكبار الذين كانوا يتعاونون مع المستعمرين .

والسياسة الاستعمارية قديماً وحديثاً لها مبدأ واحد لا يتغيّر وهو أن تأخذ ولا تعطي . . وما عدا ذلك فليس ثمة إلا الاستعباد . . وكل ما تركه الرومان في المغرب فهو محصور في قلاعهم وحصونهم التي بناها أبناء البلاد بحجارة من مقالع البلاد ، أمّا البلاط المرصع بالرسوم والأشكال فكان أيضاً من صنع أهل البلاد سوى الرسوم والرموز التي كانت رومانية الطابع أو تقليداً من تقاليد البلاد . كما تركوا مسارحهم وملاعبهم وهذه كانت

للمبارزات والتلهي بالقتل .

بعد مصرع القيصرين يوليوس قيصر وأنطونيوس . . استيقظت أقطار شمال أفريقيا على واقعها المؤلم . فجنود موريتانيا ونوميديا يساقون للذبح في الحروب الرومانية في آسيا أو في الحروب المتواصلة التي يشنّها القادة الرومان المتنافسون على الحكم ضد بعضهم بعضاً .

وكلما أفلست روما من جراء تلك الحروب التي لا تنقطع ، كانوا يصادرون المدن والقرى في آسيا الشرقية وشمال أفريقيا لملء خزائن روما الخالية .

مظاهر الحضارة الكنعانية في المغرب

كانت اللغة الكنعانية منتشرة في أفريقيا الشمالية ، ولكن الاكتشافات الأثرية لا تساعد كثيراً على معرفة ما إذا كان كنعانيو موريتانيا ونوميديا يعرفون الكتابة والقراءة أو أنهم أخذوا هذه الفنون عن إخوانهم القرطاجيين . ولكن الأعمال الصناعية كانت منتشرة لأننا نعلم بأن ثمّة حركة دائبة كانت في يوتيكا من قبل قرطاجة لتصنيع صبغ الأرجوان من صدف « الموريكس » لصباغة الأثواب الثمينة التي كان يلبسها ملوك الكنعانيين في المغرب على امتداد شواطئه إلى الحدود الليبية والتي كان يتاجر بها .

أما الزراعة فقد نقلها المهاجرون الأوائل من الكنعانيين معهم إلى شمال أفريقيا قبل قرطاجة ، خصوصاً الزيتون والكرمة والقمح وغيرها . ولكن القرطاجيين ما لبثوا أن طوّروا الأساليب الزراعية كما طوّروا أساليب التعدين .

وبدأت الثورة في المغرب بعد أن حدّد يوليوس قيصر حدود الاحتلال

الروماني في موريتانيا على الشاطىء المغربي والتي جعل عاصمتها « طنجة » وكانت تشكّل حلقة جديدة من ثورات المغرب المتعاقبة ضد الاحتلال الروماني .

ويبدو أن هذه الثورات المتواصلة نمت وترعرعت في عهود الأباطرة الذين ألهتهم الحروب في أوروبا وآسيا عن قمع ثورة المغرب . فالرومان ظلوا يحاربون الغاليين في المانيا وأجزاء أخرى زهاء مئتي عام ، والامبراطور تراجان « ٥٣ ـ ١١٧ب .م » أفنى حياته في حروبه المتلاحقة مع الجرمانيين والغاليين ثم في « داشيا » وهي رومانيا حالياً ، وجاءت الضربة التي قضت على كل طموحاته عندما هزمه البارثيون « الفرس » على حدود بلادهم . . ولم يعش بعد ذلك طويلاً .

وقبل أن يموت تراجان أوصى بالعرش الأمبراطوري من بعده إلى هادريانوس[1] فتولاه من سنة ١١٧ إلى سنة ١٣٨م وهو الآخر قضى حياته متجوّلاً في آسيا في محاولة لإعادة السلام إلى الأمبراطورية بعد أن مزّقها تراجان بحروبه الدموية . ولكنه اضطر في أواخر حياته إلى محاربة اليهود في القدس وطردهم ليس من القدس فحسب بل من فلسطين كلها وحرم سكنى فلسطين على اليهود وهو أول من سماها « فلسطين » على اسم البلاسجيين وهم محاربون كانت دولتهم تمتد من غزّة إلى يافا .

أما أنطونيوس الورع الذي أوصى له هادريان بالحكم من بعده فقد

---

(١) هادريانوس: (٧٦ ـ ١٣٨م) امبراطور روماني (١١٧ ـ ١٣٨) ولد في إسبانيا توفي أبوه في حداثته فرعاه تراجان وربّاه في القصر بروما. أثبت قيادة ممتازة في قيادة الجيوش وفي الإدارة فاختاره تراجان ليخلفه. دعم الحكم بالقوة وحسن السياسة. جمل المدن بالمنشآن حاربه اليهود (١٣٢ ـ ١٣٥) فأخضعهم بشدة. شيد أسوار ضخمة في المانيا وبريطانيا ورعى الفنون. اختار أنطونيوس بيوس خلفاً له. (المرجع السابق).

حكم من سنة ١٣٨ إلى سنة ١٦١ م . اضطر إلى أن يخمد ثورة نشبت في بريطانيا ضد الحكم الروماني .

هؤلاء الأباطرة الثلاثة من أسره واحده عاشت في إيبيريه ـ ظلوا بعيدين عن شمالي أفريقيا ، مما ساعد المغاربة على استمرارهم في ثورتهم التحررية ، فالشعب الكنعاني كان يعتبر نفسه عدواً للرومان ، وعندما يرى حكّامه يتواطأون مع الحكام الرومانيين تتأجج عداوتهم ضد حكامهم .

ثورة الأحرار « المستعبدين » ضد روما

ثورة ضد الاستعمار الروماني وهي ليست ضد التعالي والغطرسة بقدر ما هي ضد الفقر وانتزاع الأراضي واستخدام الملوك الموريتانيين والنوميديين كواسطة لإخضاع الشعب المغربي فالرومان اقتبسوا علم الاستعمار من الاسكندر المقدوني وخلفائه ، فصار كل أمبراطور روماني يريد أن يقلّد الاسكندر ، والاسكندر اتخذ أخيل أحد المحاربين الأغارقة في حرب طروادة مثالاً وقدوة وأخيل هذا لم يكن من الأصل الكنعاني لأنه من البلاسجيين من أحفاد « بلاسج » بن عابر بن أرفخشاد بن سام بن نوح . ولكن الحرب الإغريقية الطروادية جعلته بطلاً إغريقياً . . مع أنه غير ذلك فهو مدمّر الحضارات وهادم للمدن . وكلمة هادم للمدن كانت من ألقابه التي كان يتغنّى بها الشاعر هوميروس وكان والده بيلوس قاطع طريق أيضاً[1] .

وقد بدأ مسلسل الثورات المعروفة بثورة تكفاريناس في نوميديا عام ١٧ بعد الميلاد ، إلا أن هناك ثورات كثيرة في المغرب سبقت تكفاريناس ولكن المؤرخين لم يشيروا إليها . . لماذا ؟ إنهم يفضلون

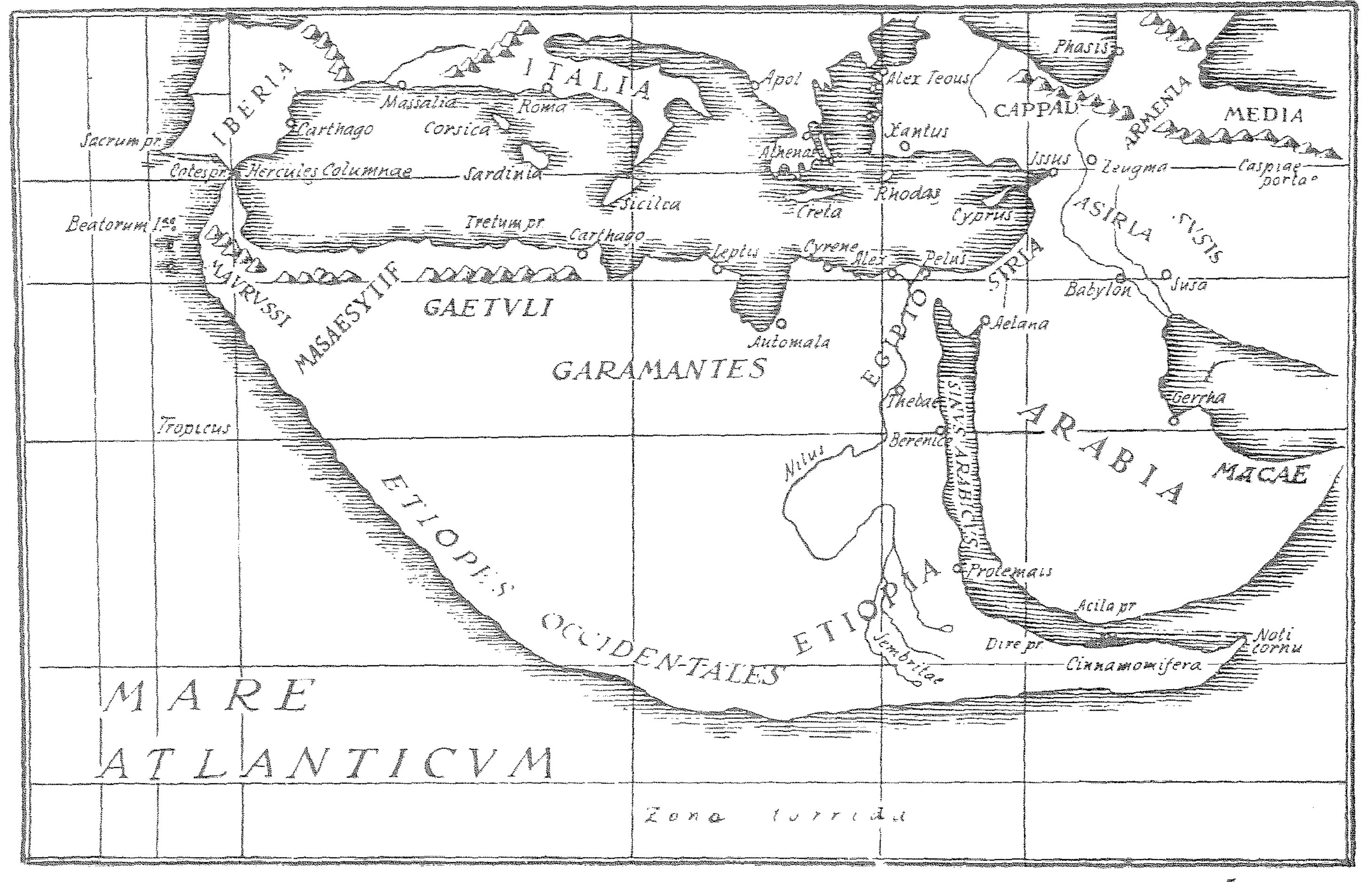
---

(١) مذكرات بلوتارخ : ص ٢٤١ ـ ٢٥٧.

الحديث عن ثورة واحدة وهذا يكفي بنظرهم حتى لا تصبح كلمة « ثورة » تقليداً متبعاً لدى الشعوب المغلوبة .



أسواق تراجان في روما

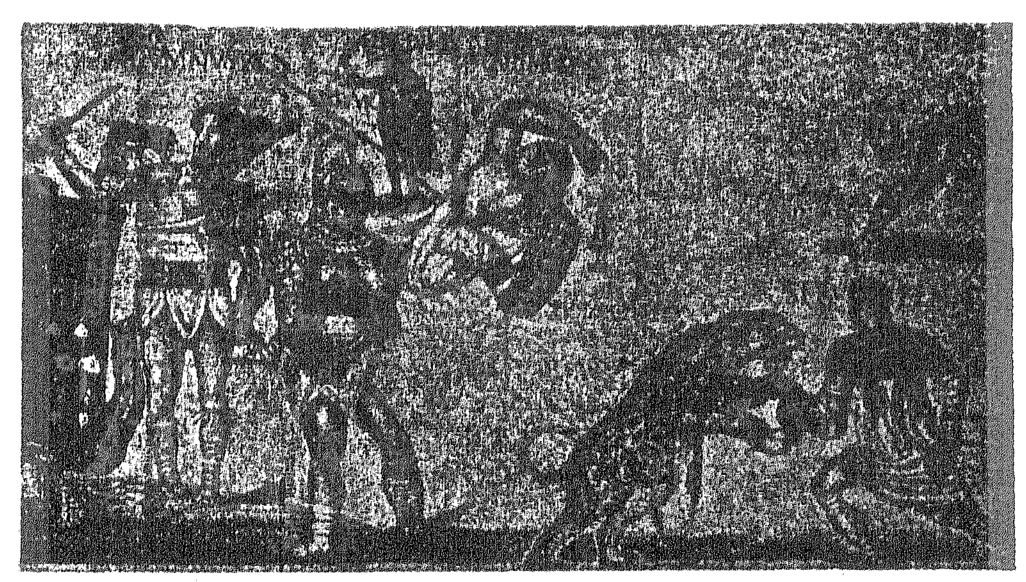


العالم كما رآه سترابون في القرن الأول قبل المسيح والقرن الأول بعده

الملاعب الرومانية ، ساحات قتل

وكان الرومانيون يهتمون بصورة خاصة ببناء ملاعب المصارعة والقتال[1] حيث يتبارز الأسرى واحداً واحداً أو اثنين في الحفلات العامة ، أو يقذف بالأسرى إلى الأسود والنمور أو يدفعون دفعاً لذلك وملعب بلدة « الجم » في تونس كان مخصصاً لمصارعة الأسود والنمور .

(١) إن أعظم ملعب من هذا النوع موجود بمدينة فلافيان طوله ١٩٠ متراً وعرضه ١٨٥ متراً وارتفاعه ٤٩,٥ متراً يتسع لحوالي ٨٥ ألفاً وهو مؤلف من ثلاث طبقات. أما الملعب فطوله حوالي ٩١ متراً وعرضه ٥٨,٥ متراً يحيط به جدار يبلغ ارتفاعه ٦ أمتار. وفي أعلا هذا الجدار أبواب عديدة تخرج منها الوحوش عند المصارعة. وقد باشر بناءه فاسباسيان عام ٧٥م واشتغل ببنائه ١٢ ألفاً من يهود القدس الأسارى مدة عامين وتسعة أشهر أي حوالي ألف يوم كاملة. (مدنيّة المغرب، ص ١٠٣).



الأسرى يصارعون الأسود والنمور في الملاعب الرومانية

في هذه الملاعب كان الأسرى والمستعبدون والمحكوم عليهم بالأشغال الشاقّة يساقون إلى هذه الملاعب لكي يقترف المخلوق بحق أخيه المخلوق أبشع جرائم القتل العلني على مشهد من الحكام الرومان وحاشيتهم الرومانية ونسائهم وحكام البلاد المتعاونين مع الرومان .

وعندما يساق الأسرى والعبيد إلى هذه الملاعب يتجرد الحكّام من الصفة الإنسانية ، هذا مع العلم أن كلمة الإنسانية لم يكن لها وجود في شريعة الأباطرة الرومان وقوادهم في كثير من الأحيان[1] .

فالرومان كانوا يبيعون سكان المدن التي يدخلونها عنوة بقوة السلاح في أسواق العبيد كباراً وصغاراً .

وكان المستعبدون في إيطاليا وحدها يشكلون ٤٠ بالمئة من سكان المدن وأحياناً ٥٠ بالمئة .

القائد بومبي أرسل إلى إيطاليا وعلى دفعات أكثر من ٢٠٠ ألف أسير من الجنود والقادة والشرفاء والنبلاء والأمراء والقادة غير الذين افتدوا أنفسهم ، أو الذين باعهم بومبي في آسيا وفعل مثل ذلك يوليوس قيصر . وسائر القناصل والأباطرة من قبلهم ومن بعدهم .

---

(١) تأكيداً لهذا فقد جاء في قصة الحضارة ص ٩/ ٢٨٣ ما يلي: حدث في عام ٩٨ق.م أن أعاد القائد الروماني ديديوس ما فعله من قبله سابسيوس جلياً فقد خدع قبيلة كاملة من الإسبان واستدرجهم إلى معسكر روماني في إسبانيا مدعياً أنه يريد أن يسجل أسماءهم ليوزع الأراضي الزراعية عليهم. فلما دخلوا المعسكر هم وأزواجهم وأبناؤهم أمر بهم فذبحوا عن آخرهم ولما عاد إلى روما احتفل بعودته احتفال الظافرين.

الفصل الثالث

روما تستعبد الشعوب المغلوبة

ولنضرب مثلاً بثورة العبيد التي اندلعت نيرانها عام ٨٣ق .م ، في مدينة كابويا الواقعة في جنوب العاصمة روما .

لم تكن من المدن الكبرى ولكنها كانت مصيفاً هادئاً ، تضم بين جوانبها مصنعاً لتحويل النحاس والزنك إلى برونز ، ومن النحاس والبرونز كانت تصنع القدور والجرار والأجص والمقلايات والدلاء ودنان الخمور وأوعية أخرى للزيت والخل والماء .

وكان العمال وكلهم من الأسرى المستعبدين وعددهم يزيد على الخمسين عاملاً تختلف درجات عبوديتهم باختلاف درجات مواهبهم فمنهم الصناع المهرة والمعدّنون والفنّانون خصوصاً المختصون بصنع الأدوات المزخرفة ـ هذه المهارات كانوا قد اكتسبوها وهم أحرار في بلادهم ولكنهم

الآن يمارسونها وهم مستعبدون بدون أجر لذلك كان المصنع يبدو وكأنه معرض لصناعات برونزية ونحاسية مختلفة ، وكان الأسرى يتفنّون بصنع أوعية شبيهة بالأوعية التي تصنع في بلادهم ، ولما كان المصنع يضم عمالاً من جنسيات متعددة فإن الأوعية المصنوعة كانت متعددة الأشكال والأنواع فهناك أوعية على الطراز الفينيقي صنعها الأسرى الفينيقيون وأوعية على الطراز القرطاجي أو على الطرازات السورية والمصرية والتراقية والغولية والموريتانية والنوميدية وهكذا .

وكان الإقبال شديداً على شراء تلك الأوعية الفنية الجميلة ومعظمها كان يوضع على الرفوف في المنازل على اعتبار أنها تحف فنية ، ومن هنا نستطيع أن ندرك أن الصناعة المعدنية في إيطاليا الرومانية كانت مكتسبة وليست صناعة أهلية وطنية صحيحة كما توهّم ذلك عدد كبير من المؤرخين الغربيين من قبيل التفاخر والتعالي .

وموقع مدينة « كابويا »[1] على البحر الأبيض المتوسط ، قريباً من العاصمة روما جعلها مصيفاً مشهوراً بداراته الأنيقة القائمة في الهواء الطلق ، كما اشتهرت منذ مئات السنين بمدرجها الكبير الذي تقام ألعاب المبارزة والمصارعة في ساحته .

وكانت « كابويا » أول مدينة في إيطاليا ، تورّد هذه الألعاب ، إلى المدن الإيطالية ومستعمراتها وراء البحار . وقد اشتهر الأترسكيون بهذه الألعاب ، والأترسكيون عرفوا باسم

---

(١) كابويا هي في الحقيقة كابوا وهي مدينة قديمة في كامبانيا بجنوب إيطاليا ذات موقع استراتيجي مهم على طريق أبيا فتحت أبوابها لهانيبال عام ٢١٦ق.م واستعادها الرومان وأصبحت أهم مراكزهم بجنوب إيطاليا. خربها العرب سنة ٨٤١ فانتقل سكانها إلى كازيلثم حيث أسسوا مدينة كابوا الحديثة. (الموسوعة العربية الميسرة).

الترجانيين[1] وهم شعب سامي رحل من ليديا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد واستوطنوا شواطىء إيطاليا الغربية ، ومن أشهر مدنهم فلورنسا المشهورة بآثارها وأيقوناتها وكنائسها ، ومدينة « بيزا » التي يوجد فيها برج بيزا المائل .

وكان جميع عمال المناجم وخدم البيوت والمنازل والزرّاع من المستعبدين وهم يمثلون ٥٠ بالمئة من سكان المدينة .

وكان الرومان قد اشتهروا باستعبادهم للشعوب الحرّة ويستطيع المؤرخ أن يصنف مجلدات عن سوء معاملة العبيد والمسترقّين ، وكونهم مستعبدين بنظر مجلس الشيوخ الروماني فإنهم حرموا من حماية القانون الذي لا يحمي سوى الأحرار ، وكانت شهادة الأسير المستعبد لا قيمة لها ، مع أنها تؤخذ منه بالتعذيب ، وكانت الشرائع تحتّم عليهم أن يكرّسوا جهودهم لإنجاح أعمال أسيادهم ، ولم يكن ثمة حدود للعقاب ، ومع ذلك فإن المعاملة بالنسبة إليهم كانت تختلف ، فالمستعبدون الأمّيون أو الذين هم من غير الفنيين أصحاب الحرف اليدوية أو الصناعية كانوا ينامون في زرائب المواشي ، أمّا المتعلمون منهم فكانوا ينامون في غرف لائقة ، وبعضهم ولد في العبودية ، والبعض الآخر حكم عليهم بالاستعباد إمّا من قِبَل المحكمة أو من قِبَل قادة الجيوش . وكان بعضهم يخطف من بلاده ويباع وآخرون يؤسرون في الحرب كالغاليين والسيمريين والكلت ، والشعوب الآسيوية أو الشعوب التي تقطن شمالي أفريقيا والمصريين والإنكليز وغيرهم وهناك أيضاً الهاربون من الخدمة العسكرية .

وكان من المعترف به أنه كان بين المستعبدين عباقرة وعلماء والنسبة

---

(١) راجع هيرودوت في كتابه التواريخ ـ الليديون.

الكبيرة من هؤلاء كانت من بلاد الإغريق أو من الشرق الأوسط ، وكان معظمهم من العائلات المثقفة المتميّزة بالذكاء وبعضهم أيضاً من أسر ملكية من ذوي الحسب والنسب . وكانت إيطاليا بحاجة إلى المتعلمين والمثقفين لأن الحروب الرومانية المتواصلة على مدار ٧٠٠ عام كانت تستأصل من كل جيل خيرة الشبّان من المتعلمين وغير المتعلمين .

كراسوس : القائد التاجر

فلما احتاجت روما إلى المتعلمين راحت تبحث عنهم في معتقلات الأسرى . وكان ماركوس كراسوس[1] من رجال المال والأعمال يملك عقارات واسعة ، ومعظم أمواله موظفة في شراء الأسرى المستعبدين ، إذ كان يصنفهم بعد شرائهم ، ويفرز منهم المتعلمين كالمترجمين من حَفَظة اللغات والمحاسبين ، والمعلمين والمعدّنين والصناعيين والصاغة والنحّاتين والفنّيين ممن يحسنون العزف على الآلات الموسيقية أو الغناء . وكل هؤلاء كان يتاجر بهم ويتقاضى ثمناً عالياً للواحد منهم . . هذا إلى جانب المصارعين والمبارزين الذين كان يشرف على تدريباتهم اليومية بنفسه ويراقب أوضاعهم الجسمانية والخلقية والأدبية أيضاً . وكلما برز المصارع على أقرانه بقوته الجسدية أو بحسن استعماله للسلاح زاد ثمنه لا بل أصبح بنظر كراسوس « تحفة » لا تباع إلا بأغلى ثمن . وموضع الإثارة في كل ذلك

(١) كراسوس : أسرة رومانية قديمة أبرز أفرادها ماركوس ليكينيوس كراسوس (ت ٥٢ق.م) وكان رقيق الشمائل شديد الجشع والطموح فأصبح أغنى رجل في روما. وقد اشترى ضياعاً من الممتلكات التي صودرت أو التي هجرها أصحابها في فترة المصادرات الرهيبة في عهد صلا. وأنه أعد فرقة خاصة لإطفاء الحرائق وكان لا يأذن لها بمباشرة عملها إلا بعد أن يشتري بثمن زهيد كل البيوت التي تحرق أو التي يهددها الحريق. اكتسب مكانة كبيرة بإخماد ثورة سبارتاكوس. كان منافساً لبومبي لكنهما تحالفا وتوليا سوياً قنصلية عام (٧٠ق.م) تولى كراسوس حكم سوريا وسارع إلى قيادة حملة ضد البارثيين لكنه هزم وقتل. (المرجع السابق).

هو أن جميع أولئك المستعبدين كانوا مصدر ثروته ونجاحه في مشاريعه .

وكان المستعبدون يعيشون في العبودية وفيها يموتون ، وكان الأمل بالتحرر يراود نفوسهم وفي بعض الأحيان كان كراسوس ـ تاجر العبيد ـ وأسيادهم الجدد الذين يشترونهم يحثّونهم على اتقان ما يصنعون ويعملون بإخلاص لقاء منحهم حرياتهم في المستقبل . وما أبعد كلمة المستقبل عند التأمل وما أقربها في أحلام الحالمين .

صعوبة الحياة في ظل الحكم الروماني

وبما أن روما كانت غاصّة بالمحررين الذين استعبدوا لزمن طويل ، وكان معظمهم من الشيوخ المتقدمين في السن فإنهم نالوا حريتهم جزاء لهم على طول خدمتهم وإخلاصهم في أعمالهم . لهذا كان الأمل في التحرر نصب أعينهم دائماً .

وكانت حياة الرجل المعتوق من الاسترقاق تبدو صعبة للغاية عند ممارسته لحياته الجديدة . فالمستعبد معيشته وطعامه مؤمّنان على عكس الرجل المعتوق من الأسر الذي كان كثيراً ما يجد الناس يتجنّبون تشغيله وتوظيفه ، حتى ولو كان من المحترفين ، فالمجتمع الروماني كان يرفضه فيحيا بدون عمل وربما لمدة طويلة . وقد يضطر إلى السرقة أو إلى القيام بعمل غير لائق . . عندئذ عليه أن يواجه المحكمة التي كانت سرعان ما تعيده إلى العبودية من جديد .

وكانت المحاكم تحكم على الشبّان المذنبين بالسجن في « حلبة المصارعة » ليقضي ثلاث سنوات يتدرب على المصارعة ، ومع أن الحظ بالبقاء على قيد الحياة خلال هذه السنوات الثلاث كان غير مضمون . . لما كان يتخلل تدريبات المصارعة بالسلاح من طعن وضرب ، ولكن العقوبات

كانت أقلّ قسوة على الذين يحكم عليهم في العمل في المناجم . والعمل في المناجم الرومانية مثل أمثاله في كل العصور فهو يتسم بالقسوة الضارية والعنف والتعب . . فشروط الحياة حقيرة والعمال المستعبدون يعملون في أوضاع مجرّدة من الإنسانية .

أمّا المصارعون فقد كانوا في كثير من الأحيان يعاملون معاملة حسنة وعلى قدر اجتهادهم وكانت ظروف حياتهم تختلف باختلاف مؤهلاتهم ، ولم يكن يسمح لهم بأن يعيشوا في غرف مفردة بل في غرف جماعية ، وكان على المدرب في أحسن الحالات أن يقدم لهم طعاماً كافياً ومع ذلك فقد كان يطلق عليهم اسم « الأذلاء » وكان معظمهم من المحكوم عليهم بالإعدام . وعند اكتمال مدة تدريبهم يباعون في حلبة المصارعة . وعندما يباعون أفراداً أو بالجملة يتعهّد المشتري بإعدامهم وقتلهم عند انتهاء مدة تسخيرهم . وهذا يعني أنه عندما يصلون إلى سن الشيخوخة أو يعجزون عن المصارعة بسبب الجروح الثخينة التي يصابون بها عندئذ ، يجب قتلهم أفراداً أو جماعات .

وكان أولئك التعساء يرغمون على منازلة الأسود والنمور والدببة . أو يبارز أحدهم الآخر ، أو ينازلون مصارعين أحراراً مدججين بالسلاح وهم عزّل ، لأنه لا يجوز حسب الشريعة الرومانية أن يقتل المستعبد رجلاً حرّاً . وكانت هذه الطريقة تعتبر أرحم من الطرق الأخرى الأشد تعذيباً وتنكيلاً .

وكثيراً ما كان المصارع المستعبد تمارس عليه صنوف وألوان من العذاب والتعذيب أثناء المصارعة لحساب لذّة المشاهدين . وكانت الطبقة الرومانية العليا والأباطرة من تلك الطبقة السادية التي كانت تستعذب بلذّة بالغة مشاهدة المصارعين عندما يتعرضون لأقسى أنواع التعذيب والتنكيل . وهذا النوع من المصارعين الأذلّاء « هيوميليورز » كان لا يسمح لهم

بالتدريب على استعمال الأسلحة ، وإنما ينزلون إلى حلبة المصارعة عزلاً من السلاح أمام خصومهم المدججين بالسيوف والحراب .

سبارتاكوس يتمرّد ويثور

وكان سبارتاكوس[1] في سنة ٧٣ قبل الميلاد وهو من تراقيا واحداً من أولئك المصارعين ينحدر من الأسرة الملكية التراقية . لذلك كان مثقفاً ثقافة عالية ، وكانت تراقيا ما تزال بلداً حرّاً عندما كان سبارتاكوس في مدينة « كابويا » الإيطالية ، أما كيف وصل إلى هذه الدرجة من العبودية والاسترقاق فالمسألة محاطة بالغموض ، ولكن من المفترض أنه كان يحارب في جبهة ما في شمال تراقيا وربما في أرمينيا أو آسيا الصغرى فوقع أسيراً فجيىء به مع الأسرى إلى كابويا .

وأول من اشترى سبارتاكوس رجل يدعى لنتولس باتياتوس ، يملك ما يسمى (مدرسة للمصارعة) وكانت له وجهة نظر سيّئة جداً في الغوليين[2]

---

(١) سبارتاكوس: زعيم الثورة التي قام بها العبيد في إيطاليا، جمع حوله كثيرين من العبيد الهاربين وسيطر في سنة (٧٢ق.م) على جانب كبير من جنوب إيطاليا. أخضع الثورة كراسوس وبومبي وصلبا ٦٠٠٠ من أسرى العبيد. وقتل سبارتاكوس في معركة مع كراسوس سنة (٧١ق.م) قال أفلوطرخس أن سبارتاكوس لم يكن شهماً شجاعاً وحسب بل كان فيه ذكاء في العقل ودماثة الأخلاق. وكان قبل إخفاقه قد أصدر نداء إلى الأرقاء في إيطاليا يدعوهم فيه إلى الثورة وسرعان ما التف حوله سبعون ألفاً منهم وكلهم متعطشون للحرية والانتقام غير أنهم لم يكونوا كلهم مثله متشبعين بالعواطف الرقيقة السلمية فتمرّدوا على قائدهم وأخذوا ينهبون البلاد ويعيثون فيها فساداً. لهذا استنفرت روما لذلك وجد نفسه في موقف حرج وعلم أنه يقاتل امبراطورية بأكملها وأن لا أمل له بالنصر على هذه الجيوش فألقى بنفسه في وسط المعركة مرحباً بالموت فقتل العديد وأصيب بطعنة مميتة ظل بعدها يقاتل وهو راكع على ركبتيه إلى أن مات وتمزق جسمه وهلك معظم أتباعه.

(٢) الغوليون: أو الغاليون هم الفرنسيون اليوم.

والتراقيين[1] . ولسوء حظ المنتسبين لهذين الشعبين كان باتياتوس يمارس عليهم أغلظ أنواع العذاب . وأولئك الذين حللوا شخصية باتياتوس وصفوه بالقسوة التي لا حدود لها وكانت معاملته السّادية لمستعبديه لا تطاق ، فقد كان يزربهم كالحيوانات في محابسهم المحرومة من شروط الحياة .

أما ماضي سبارتاكوس فقد كان حافلاً بالعزم والعزيمة وهو مؤهّل بطبيعة متميزة وبشمم وأنفة ، ولم يكن من السهل ترويضه وإذلاله لأن الثورة متأصلة في دمه ولكن سوء الحظ قذف به إلى مدرسة باتياتوس .

ولم يمضِ عليه وقت طويل في مدرسة باتياتوس الجهنمية حتى شرع يحرّض زملاءه على التمرّد والعصيان مبيناً لهم « أن الحرية هي أثمن جوهرة يملكها الإنسان » ، ثم راح يبث رسالته عن الحرية كرجل مثقّف مستهلاً إياها بقوله : « أولى لنا أن نقاتل من أجل حريتنا من أن يقتل بعضنا بعضاً لتسلية الآخرين » .

ووجدت كلمته هذه في صدور زملائه الذين أضناهم الحبس ، واسترقّهم سوء المعيشة ، صدى مقبولاً ، لذلك انتشرت كالنار بسرعة وتشرّبتها أرواح رفقائه فانضم إليه مئتان من المصارعين المستعبدين والمعتوقين المتقاعدين ، وسرعان ما وضعوا خطة للهرب . ولكن أحدهم وشى بهم لصاحب المدرسة ، فلما حاول أن يحول دون هروبهم ، استيأسوا واقتحموا محبسهم بالعصي والهراوات إلى أن نجح سبعون منهم[2] وتمكّنوا من الهرب وساعدهم الحظ في الطريق فصادفوا عربة ملأى بالأسلحة فانقضّوا عليها واستولوا على محتوياتها واستمروا في هربهم إلى

---

(١) التراقيون: هم البلغار اليوم.

(٢) وقيل ثمانية وسبعون كما جاء في قصة الحضارة ص ٩/ ٢٨٤ تسلحوا واحتلّوا أحد سفوح بركان فيزوف وأخذوا يغيرون على المدن المجاورة طلباً للطعام.

أن وصلوا جبل بركاني فاتخذوه ملجأ لهم . وكان ذلك الجبل هو بركان فيزوف المشهور ، الذي ظل هادئاً حتى عام ٧٩ بعد الميلاد ، ثم انفجر فجأة فدمر مدينتي بومبي وهركولايوم حتى أن سكانهما تحجّروا تحجيراً .

وعلى الأثر قرر سكان منطقة « كامبانيا » والعائلات التي كانت تستخدم العبيد وتضطهدهم مطاردة الهاربين . بينما عقد الفارّون اجتماعاً نظموا فيه مقاومتهم ، وقسموا أنفسهم إلى ثلاث وحدات : التراقيون بقيادة سبارتاكوس ، والجرمانيون بقيادة أميناموس والغوليون بقيادة كريكسوس . ولكن الهجوم الأول الذي قام به السكان المحلّيون فشل فارتدوا على أعقابهم منهزمين .

وسرعان ما ألف الشعراء من المستعبدين قصة شعرية معبّرة ، شاعت وانتشرت وحفظها المستعبدون عن ظهر قلب في طول البلاد وعرضها .

وازدادت صفوف المستعبدين المتمردين وتضخّمت بالهاربين من أمثالهم الذين تدفّقوا على جبل فيزوف من جميع المدن والقرى والمزارع الرومانية . . فالمستعبدون كانوا يُسخّرون بزراعة الأراضي والقيام بكل الأعمال والخدمات المدنية والمنزلية حتى أصبح جبل فيزوف معسكراً يعجّ بالفارّين وقد وصل عددهم إلى حوالي سبعين ألفاً .

وانهمك سبارتاكوس بتدريب عساكره للدفاع عن أنفسهم ضد القوات الرومانية النظامية التي كانت تستعد للهجوم على معاقلهم في جبل فيزوف ، وفي أثناء هذه التدريبات حاز سبارتاكوس شهرة لدى أتباعه كقائد يتميز بمواهب تخطيطية ومثالية فائقة[١] .

---

(١) لقد درب سبارتاكوس جنوده أحسن تدريب وعلمهم فنون المصارعة ودرّبهم على صراع الحيوانات وصراع بعضهم بعضاً وعلّمهم أن يصنعوا أسلحتهم بأنفسهم وأن يقاتلوا في نظام أمكنهم به أن يتغلبوا على كل قوة سيّرت عليهم لإخضاعهم حتى

فشل الحملات الرومانية لإخضاع المتمرّدين

وكان أول قائد روماني أرسل لإخضاع ثورة المستعبدين كلاديوس كليبر على رأس قوّة قوامها ثلاثة آلاف جندي نظامي فاحتلوا الطرق المؤدية إلى الجبل وحاصروهم لمنع تسرّب المؤن والأقوات إلى جموعهم .

وبدا للقائد كليبر أن سيطرته على الطريق الأخير المؤدي إلى قمّة الجبل سيُفضي بالثوار حتماً إلى التسليم .

ولم يكن حول جبل فيزوف سوى مرتفعات من الصخور العمودية المتآكلة الشديدة الوعورة . وكان الجبل مغطّى بالكروم البرية ، فراح سبارتاكوس يجدل منها حبالاً للصعود والنزول . وصار المتمردون يهبطون إلى السهل بأمان بواسطة تلك الحبال ، دون علم الرومان بهم .

واطمأن كليبر إلى أن المتمردين في أعلى الجبل لا بد وأنهم يتضوّرون جوعاً وعطشاً ، فاسترخى مع قوّاته واثقاً من نفسه ومن الاحتياطات التي اتّخذها .

ولكن معسكر الرومان في أسفل الجبل ما لبث أن تعرض لغارة ليلية شعواء من قِبَل المتمرّدين الذين تدرّعوا بالظلام وهبطوا من معاقلهم بواسطة الحبال وانقضّوا في الليل على المعسكر الروماني كالصواعق المفاجئة فيما كان الجنود يغطّون في النوم اللذيذ .

وكان الهجوم مفاجئاً لم يتح للجنود الرومانيين أية فرصة للقتال فولوا منهزمين بعد أن تركوا وراءهم عشرات القتلى من إخوانهم الجنود ، كما تركوا معسكرهم غنيمة للمتمردين .

قذفت انتصاراته الرعب في قلوب أثرياء الرومان وملأت قلوب الأرقّاء أملاً .

وقاد الحملة الثانية القائد القاضي بابليوس مارينوس بعد أن جمع جنوده على عجل ، إتّقاء للفضيحة والعار ، فوجد المتمردين في أحسن صحة وعافية وقد حفروا خنادق ، وأقاموا المتاريس في هذه المرة في السهل وليس في الجبل .

وكان الوقت خريفاً والأرض رطبة لذلك تفشّت الأمراض في معسكر القائد مارينوس كما تفشّى الذعر بين جنوده الذين أضعفت نفوسهم الإشاعات والقصص التي جعلت من المتمرّدين أبطالاً لا يقهرون .

وفي المناوشة الأولى التي وقعت بين الطرفين المتحاربين تضعضع الصف الروماني الأول وانهار على الأثر ، فاقتحمه المتمرّدون الثوّار وعندئذ قاد الهجوم الثاني مارينوس شخصياً ، وترك بعض وحداته تقاتل أبطال سبارتاكوس في السهل بينما شرع هو يتوغل في الجبل بمن تبقّى من شجعانه المختارين على أمل أن يدمر معاقلهم المنيعة . ولكنه عندما وصل إلى قمّة فيزوف لم يجد أحداً . .

كان سبارتاكوس قد هبط مع رجاله بواسطة الحبال من خلف الجبل إلى السهل فجمع جموعه وانطلق جنوباً باتجاه بلدة بيسنتيا « أمالفي » وهكذا فشلت الحملة الرومانية الثانية .

وأرسلت روما حملة ثالثة بقيادة كوسينيوس لمساعدة قائد الحملة الثانية مارينوس فوحّدا قواتهما وزحفا معاً إلى « بيسنتيا » وكان سبارتاكوس يراقب القوات القادمة عن كثب .

وفيما كان كوسينيوس يستحم في سالينا هاجمته جموع سبارتاكوس فانطلق هارباً وانطلق سبارتاكوس في أثره فاستولى على حقائبه ووقع العديد من جنوده أسرى ، وفي المجزرة التي أعقبت ذلك الهجوم قُتِل كوسينيوس

وتمزّقت قوّاته .

وبقي القائد مارينوس يتعقّب آثار سبارتاكوس وقوّاته واشتبك مع المتمردين في عدد من المواقع ولكن الفشل ظلّ ملازماً له . وفي هذه الأثناء وصلت قوات سبارتاكوس إلى إقليم « لوكانيا »[1] بؤرة الرعاع واللصوص .

وبعد جهد جهيد تمكّن مارينوس من العثور على جيش المتمرّدين في مكان لا يساعد الجنود الرومان النظاميين على القتال . فتطرق الوهن والذعر إلى قلوب الرومان ، الأمر الذي ساعد سبارتاكوس على سحقهم فهرب القائد الروماني مارينوس وفقد شرفه وكرامته العسكرية إلى الأبد ، وأسر سبارتاكوس حرسه الخاص لا بل واستولى على جواده المطهم .

المستعبدون ينضمّون إلى سبارتاكوس

بعد هذه الهزيمة المنكرة تقاطر المستعبدون من جميع أقاليم إيطاليا الجنوبية وانضموا إلى سبارتاكوس كما انضم إليه الرعاة الإيطاليون المشهورون بالشراسة والوحشية وراح المستعبدون في كل مكان يشيرون إلى سبارتاكوس على أنه « المنقذ » وارتفع تعداد جيشه إلى ٧٠ ألف مقاتل من المستعبدين والأرقّاء .

فاحتل إقليم كامبانيا وذبح جميع الفيالق الرومانية الموجودة في تلك المقاطعة ، وأصبحت لوكانيا تحت رحمته .

بعد هذا الانتصار الكبير وجد سبارتاكوس نفسه عاجزاً عن كبح جماح

---

(١) لوكانيا: هو إقليم قديم جنوبي إيطاليا يقع بين خليج تارنتو والبحر التيراني. كانت تقطنه قبائل إيطالية ومستعمرون إغريق قبل أن يسيطر عليه الرومان في القرن (٣ق.م) كانت هرقليا وبايستوم أهم مدنه (المرجع السابق).

جنوده الذين سكروا بنشوة الانتصار فانطلقوا على أهوائهم يعتدون على المدنيين بحق وبدون حق .

وبعد مقتل زميله أميناموس قائد الجرمانيين حاول أن يشدد قبضته على أزمّة سائر الفرق والكتائب ولكن زميله الثالث كريكسوس قائد الغوليين طمحت نفسه إلى المعالي وشعر بأنه قادر على احتلال روما . . ولكن سبارتاكوس حاول أن يثنيه عن عزمه ويمنعه من القيام بتلك المحاولة الخطرة التي لن تؤدي إلى أي نجاح خصوصاً بعد أن شرعت روما باستدعاء قوادها المشهورين وجيوشها المدرَّبة من أوروبا وآسيا . وهكذا اختلف القائدان فطلب كريكسوس الانفصال فقسم جيش المتمردين بينهما وكان نصيب كل واحد منهما أكثر من ٣٠ ألف متمرّد .

روما تحاول القضاء على المتمردين

وأرسلت روما قنصلين رومانيين كل واحد منهما يقود جيشاً للقضاء على المتمردين في الوقت الذي أعدّ فيه كريكسوس خطّته لاحتلال إيطاليا .

أمّا سبارتاكوس فقد عزم على اختراق جبال الألب على أمل أن يعبر منها بسلام ثم يسرح جيشه ليذهب كل امرىء حراً في طريقه . فاحتل مدينة « ثوري »[١] ليقضي فيها فصل الشتاء .

وفي هذه الأثناء عثر الجيش الروماني على كريكسوس الزعيم الغولي المتمرد المنشق فسحقه سحقاً وقتل كريكسوس وثلاثة أرباع جيشه .

---

(١) مدينة ثوري أو ثورية وهي مدينة قديمة على خليج ثارنتم كانت إحدى مدن بلاد الإغريق الكبرى في جنوب إيطاليا. أنشئت عام (٤٥٢ق.م) لتخلف سيباريس بعد هدمها. وفد عليها مستعمرون إغريق جدد كان من أشهرهم هيبوداموس (مخطط المدن) وهيرودوث وليسياس أصبحت حليفة روما فخربها هانيبال سنة (٢٠٤ق.م) جددتها روما لكنها لم تزدهر ثانية (المرجع السابق).

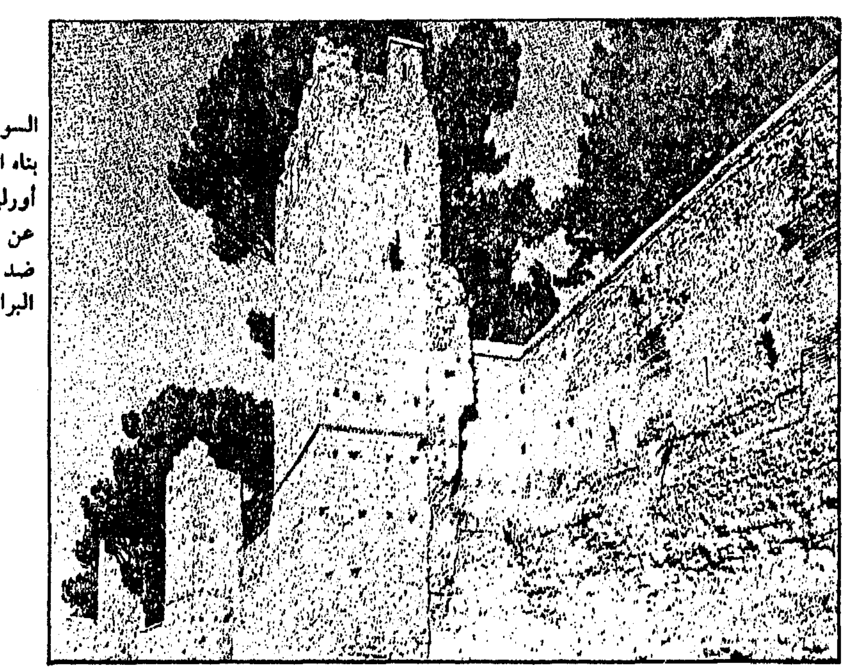
ولما علم سبارتاكوس بما حلّ بزملائه المسحوقين حزن حزناً شديداً ، ولكنه ازداد اقتناعاً بحصافة رأيه وبالخطة التي اعتزم على تنفيذها وفيما كان يحاول عبور جبال الألب أدركه الجيش الروماني . . فانبرى إليه سبارتاكوس وهزمه هزيمة منكرة .

وانقضّ نبأ هزيمة الجيش الروماني على روما انقضاض الصاعقة ، ولكن جنود سبارتاكوس بعد أن تذوّقوا حلاوة النصر والانتقام اشرأبّوا بأعينهم إلى روما وصاروا يحثّون سبارتاكوس على العودة لاحتلالها .

وبذل سبارتاكوس كل ما لديه من وسائل الإقناع لحملهم على تغيير وجهة نظرهم ، وراح يرجوهم ألا يتمادوا بأحلامهم وأوهامهم حتى لا يكون مصيرهم كمصير كريكسوس المنشق وجنوده الغوليين ولكنهم أبوا إلا ركوب المخاطر لاحتلال روما .

ويبدو أنه هو الآخر بدأ يميل إلى خطتهم بعد أن عجز عن كبحهم فراح يدرّبهم من جديد على الحرب النظامية ، فأنشأ فيلقاً للفرسان على غرار الفيالق الرومانية .

وازداد مجلس الشيوخ الروماني انزعاجاً عندما تلقى أبناء تصميم سبارتاكوس على مهاجمة روما . . فاشتد قلق الرومان واختلط القلق بالشعور بعار الهزائم فكان الحاصل أن انتاب سكان روما ذعر شديد .



السور الذي
بناه الامبراطور
أورليان للدفاع
عن روما
ضد غزوات
البرابرة

وهنا اختار مجلس الشيوخ قائداً رومانيا من الدرجة الثالثة هو ماركوس كراسوس ، ومع أنه لم يكن يتمتع بشهرة واسعة في الحرب ولكنه سبق له أن حارب ببسالة تحت إمرة القائد سولا . ولم يكن يتمتع كراسوس أيضاً بفضائل مميزة بسبب بخله وحبّه لجمع المال عن طريق الإقراض للنبلاء وأمثالهم ، لذلك اغتنى وتكدّست أمواله وكثرت مزارعه وممتلكاته .

وزحفت الفيالق الرومانية بقيادة كراسوس إلى إقليم « بيسفوم » حيث كان سبارتاكوس معسكراً .

سبارتاكوس يحطم الجيوش الرومانية

وفي الحال أنفذ كراسوس أوامره لقائدين من قوّاده بالزحف لتطويق سبارتاكوس وقوّاته وألحّ عليهما بعدم محاربته حتى ولا بالمناوشة ، ولكن أحد القائدين لم يتقيد بأوامر القائد الأعلى ، فجعل مسألة القتال رهناً بطموحه وأوامره الشخصية ، ولما خيّل إليه أنه يحتل مركزاً حصيناً أصدر أوامره لجنوده بالهجوم . فاستقبله سبارتاكوس أعنف استقبال حيث استدرج قواته إلى فخ نصبه له ثم ما لبث أن وقع فيه ، ولم يكتف بسحق تلك القوات الرومانية ، بل جرّد الجنود من أسلحتهم وردّهم إلى قائدهم كراسوس عزلاً من السلاح .

فغضب كراسوس من تلك الإهانة ، فعاد وسلّح المنهزمين وطلب منهم ألاّ ينهزموا في المرة القادمة بل أن عليهم أن يستردوا أسلحتهم التي تنازلوا عنها للعدو .

ولكي يؤكد لهم صواب رأيه اختار منهم ٥٠٠ جندي ممن كانوا في عداد المنهزمين وقسمهم إلى خمسين مجموعة كل مجموعة تضم عشرة

رجال. وأمر بأن تجري «القرعة»[1] على كل عشرة من الجنود ، والجندي العاشر الذي تقع عليه القرعة يأمر بقتله ، وهكذا قتل خمسين جندياً بعد أن وصمهم بالعار. وكانت هذه العملية تسمى «القرعة العشرية» تمارس في الجيش الروماني منذ القدم ثم توقفت إلى أن عاد كراسوس وأحياها من جديد .

وفي الهجوم الثاني الذي شنّه كراسوس وباء بالفشل استطاع سبارتاكوس أن يتسلل بقواته إلى شاطىء البحر على أمل أن يعثر على مراكب تقل قواته إلى صقلية - التي كانت غاصةً بالمتمردين الهاربين من المستعبدين .

وبالرغم من أنه عثر على المراكب إلا أن وسطاء مجلس الشيوخ استطاعوا أن يرشوا قباطنتها حتى لا ينقلوا الجنود المتمردين إلى إيطاليا .

حرب الخنادق

فاضطر سبارتاكوس إلى التحصن فوق رمال الشاطىء ، ولكن كراسوس أمر جنوده بأن يحفروا خندقاً حول قوات سبارتاكوس ونشبت المعارك بين الطرفين في أعماق ذلك الخندق . ثم تمكّن كراسوس من قتل ٢٣٠٠ جندي من المتمردين كانوا منعزلين عن قوة سبارتاكوس ولو لم يقم سبارتاكوس بنجدة البقية لكانت أبيدت .

عندئذ ، أمر سبارتاكوس قوّاته بالصعود إلى الجبال العالية فأرسل كراسوس وراءه قوة يقودها ضابط . . وفي اللحظة المناسبة انقض سبارتاكوس على تلك القوة وسحقها .

(١) القرعة: هي من أقدم الوسائل التي تتبع في إجراء الاختيار أو فض المنازعات أو تحديد تصرف معين لاتباعه. كانت أداة القرعة حجراً أو زهراً أو أية مادة أخرى تلقى على الأرض، وتفصل طريقة سقوطها في موضوع القرعة ولعل زهر النرد لم يستحدث أصلاً للعب بل لأجراء القرعة (المرجع السابق).

وهنا استنجد كراسوس بالقائد بومبي بعد عودته من إسبانيا .

ولكن الانتصار الصغير الذي أحرزه سبارتاكوس جعل جنوده ـ وهم أكثر تصميماً ـ يلحّون عليه بأن يقودهم لاحتلال روما . وأسقط في يد سبارتاكوس لأن قوّاته لم تعد تتقيّد بأوامره ولا بأوامر ضباطه وكانت قواته موزّعة على جبهتين متباعدتين ، لهذا كله اغتنم كراسوس فرصة العصيان والتمرّد في صفوف سبارتاكوس وأمر بحفر خندق حول قوات سبارتاكوس .

وما أن رأى المتمردون الجنود الرومان يحفرون حولهم خندقاً حتى انقضت بعض الفصائل على الجنود الرومانيين ونشبت المعركة في قلب الخنادق ، وكان كلما أرسل كراسوس نجدة لقوّاته في الخندق انطلقت نجدة أخرى من معسكر سبارتاكوس حتى امتلأ الخندق بالمتقاتلين .

ولما لم يعد لسبارتاكوس أي خيار أمر سائر قواته بأن يشنّوا هجوماً عاماً وكان ذلك الخيار انتحاراً ، مقصوداً أو غير مقصود على حد سواء ، فالقتال استحرّ والمقاتلون من الطرفين اندفعوا للتطاعن والتضارب بحيث لم يعد لهم أي خيار غير الصمود في القتال . فالجنود الرومان كانوا يخشون الهزيمة وعاقبتها وجنود سبارتاكوس كانوا يحسبون حساب نهايتهم المفجعة إذا ما وقعوا في أيدي الرومان .

نهاية سبارتاكوس

ورأى سبارتاكوس بأن المعركة ميؤوس منها ، فقام عن طاولته التي تكدست فوقها الخرائط والمخططات وأمر بإحضار جواده أمام خيمته وقال : إذا انتصرنا أخذنا خيول الرومان لأنها أحسن من خيولنا ، ورفع سيفه عالياً ثم أتبع قائلاً : وإذا انهزمنا فإنني لن أكون بحاجة إلى جواد وأهوى بسيفه على الجواد المسكين فسقط ميتاً ثم استدار بهدوء وألقى روحه في

أتّون المعركة الدائرة . .

فهاجمه الجنود الرومانيون وتمكّنوا من إصابته بجرح ثخين ، ولكنه استمر في القتال ببطولة خارقة حتى أصيب بساقيه فصار يقاتل وهو راكع على ركبتيه ، وتكدسْت من حوله الجثث . . إلى أن سقط ميتاً .

وهكذا انتصر الطغاة ، على المتمردين الذين حرروا أنفسهم بالسيف ، واحتفل كراسوس بانتصاره فأمر بصلب ستة آلاف أسير ، وارتفعت الأعمدة بالمصلوبين على امتداد المسافة بين « كابويا » وروف . . وكان صفاً عجيباً من الأعمدة التي سُمّر فيها الأبطال الذين دافعوا عن حريتهم حتى الرمق الأخير .

ومع أن الحروب الأهلية والخارجية أنست روما قصة كفاح سبارتاكوس ولكن المستعبدين في جميع أنحاء روما ظلّوا في الليالي المقمرة ينشدون بأصواتهم المتهدجة وبمصاحبة الناي التقليدي قصة سبارتاكوس الشعرية الأسطورية . . وتوارثها الرعاة الإيطاليون والتراقيون من جيل إلى جيل وظلوا ينشدونها كلما شعروا بثقل نير الطغاة حول أعناقهم .

أما نهاية كراسوس فكانت على أيدي البارثيين الفرس الذين أجهزوا على حملته التي شنّها على بلادهم وبذلك يكون قد نال جزاءه العادل[1] .

اندلاع الثورات ضد الرومان

هذه الثورة بأحداثها وقصّتها الكاملة حدثت في قلب إيطاليا وامتدت من جنوبها إلى شمالها . . وقد نشرناها بتفاصيلها لتكون أنموذجاً للثورات العديدة التي تأججت في سائر أنحاء ما يسمى بالامبراطورية الرومانية . فثورة المغاربة التي طالت زهاء ٧٠٠ سنة لم يصلنا من تفاصيلها إلا القليل ،

(١) راجع بلوتارخ من ص ٤٣٨ إلى ص ٤٥٥ .

وكذلك الثورات الأخرى في شبه جزيرة إيبيريه .

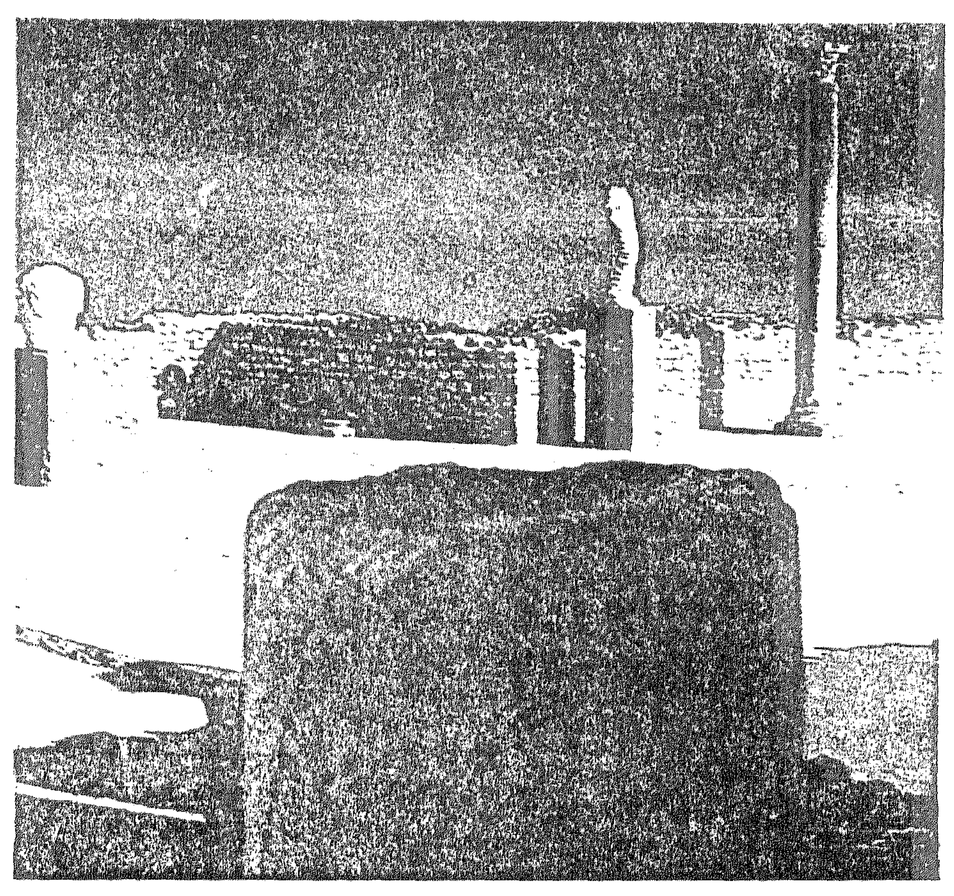
ونحن نعلم أن ثورة الكلت السيميريين في اسكتدلاندا في شمال بريطانيا كلّفت الرومان جيشاً كاملاً سحقه الاسكتلانديون في أحد أوديتهم سحقاً كاملاً فأصدرت عندها روما أمراً إلى أحد قوّادها ببناء سور كبير فصل شمالي بريطانيا عن جنوبها .

ولكننا نعلم الكثير عن الثورات التي أشعل نيرانها الغاليون والجرمانيون في غاليا « فرنسا » وجرمانيا «المانيا » وثورات الأرمن والتراقيين والبونتيين والعديد من شعوب آسيا وشعوب شرقي أوروبا .

وكان من سوء حظ الرومان ، أن البلاد الواقعة في البلقان وهي أماكن مغطّاة سهولها وجبالها بالغابات الكثيفة لدرجة كان يصعب فيها على الجيش الروماني التوغل في مجاهلها ، خصوصاً البلاد أو القبائل المحيطة بالبحر الأسود التي كانت تتمخض بين عقدٍ وآخر عن هجرات جديدة لشعوب كانت تعيش في القرون الماضية في العراق وسوريا وفينيقيا وأرض كنعان ، ثم اضطرت إلى الهجرة بسبب غزوات الفراعنة ، واليهود والمكدونيين بقيادة الاسكندر المقدني . . هذه الشعوب حملت معها حضاراتها وعلومها وسكنت في أحضان تلك الغابات حتى اكتظّت بها على رحبها . وكانت كلما ضاقت بها أماكنها تمخّضت عن هجرات متتابعة إلى قلب أوروبا وكان من الطبيعي أن تصطدم كل هجرة من تلك الهجرات بالجيوش الرومانية . التي كانت تخرج لتطردها من مناطق نفوذها فتنشب الحروب الضارية التي استغرقت عمر الامبراطورية الرومانية كله في شمال أوروبا وفي شرقها وغربها على السواء .

إذن ، فثورة سبارتاكوس أعطتنا فكرة واضحة ونموذجاً كاملاً عن الثورة المغربية التي لم يصلنا من تفاصيلها شيء بالرغم من أنها عاشت وامتدت إلى الفتوحات الإسلامية ، وكان الرومان يسمون الحكام المغاربة المحليين « بالملوك الأرقّاء » والشعب المغربي « بالعبيد » ولم يعترفوا بمقاطعة موريتانيا تانجيتانا في نظامهم وإنما أخضعوها لحكم والٍ روماني يعينه الامبراطور أو القنصل الروماني .

هذه الثورات المغربية العارمة التي استمرت مئات السنين ـ والتي حاول المؤرخون الغربيون طمس أحداثها وإخفاء معالمها وعدم التنويه بها في كتبهم لأغراض استعمارية حتى لا تتجدد خلال مدة احتلالهم للمغرب والشمال الأفريقي ـ هذه الثورات أرغمت الرومان على إقامة سلسلة من الأبراج المحصنة في المغرب امتدت من سلا إلى جبل زهرون وكان لا بد من أن يكون ثمة حامية من عشرة آلاف جندي روماني غير المجندين من المغاربة لتثبيت النظام والاحتلال .



من التحصينات الرومانية في وجه البرابرة.

آثار رومانية في تونس.

وهذه الحصون والأبراج يتسارع المنقبون عن الآثار للكشف عن معالمها بخبث ودهاء ولسان حالهم يشير إليها قائلاً : هيا انظروا أيها المغاربة إلى تاريخكم القديم تحت الاحتلال الروماني . . وهناك من ينخدع بمشاهد تلك الآثار بحجارتها الضخمة وتماثيل الأباطرة والولاة والرومان والنّصب والأوثان فتشغلهم روعة المنظر عن استجلاء الحقيقة واستقرائها ، الحقيقة التي تتحدث عن الاغتصاب والاستعباد لأمة مغربية كانت دائماً تحارب المستعمرين والمحتلين وتقاومهم بضراوة وبسالة ، وذلك ما ينبغي البحث عنه والكشف عن آثار المدن المغربية الصحيحة المختفية تحت أطباق الرمال .

إن تاريخ الأمة العريقة يتجلّى بآثارها وحضارتها المنبثقة من أصالتها ووجودها وليس من الحجارة الرومانية التي هي وصمة عار في تاريخ كل أمة سواء كانت عربية أو غير عربية ذات ماضٍ مجيد حافل بالثورات وجلائل الأعمال .

وأن ما يثير العجب العجاب بالشعب المغربي الثائر دائماً على المحتلين والمستعمرين أنه رفض في العهد الروماني اعتناق المسيحية بعدما شاهد بعينيه جيلاً بعد جيل كيف اعتنقها قسم من الرومان ثم ألغاها الامبراطور فاليريان (٢٥٣ ـ ٢٦٠ب .م) واضطهد النصارى فكان الاضطهاد سبباً في زيادة انتشارها فتصدى للمسيحيين الامبراطور ديوكليتان ٢٤٥ ـ ٣١٦ب .م ، عندما أمعن في قتل المسيحيين واضطهادهم ليس في روما فحسب بل وفي جميع أنحاء الأمبراطورية إلى أن جاء الامبراطور ثيودوسيوس ٣٤٧ ـ ٣٩٥ الذي قسّم الامبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية .

وعندما تنصرت روما بعد كل تلك المذابح والمجازر حاول الولاة الرومانيون نشر الدين المسيحي في المغرب ، فاعتنقه بعض المغاربة من الموالين للمحتلين ، أما الشعب المغربي فقد رفض اعتناق الدين الجديد الذي جاء به الغزاة المحتلون لبلاده وآثروا الوثنية كعقيدة وطنية على الدين المستحدث المستجلب .

ثم وقعت الواقعة عندما راح القادة الرومانيون يقتتلون في حروبهم الداخلية المستجدة ، بسبب اختلافهم على الدين المسيحي فاستعان بعض القادة الرومان بقوّات مغربية ألحقوها بجيوشهم ، فأتاحت تلك الحرب الأهلية للفرسان المغاربة أن يفتكوا فتكاً ذريعاً بمستعمريهم ، وقد خلد المثّالون الرومان تلك الحروب والفرسان المغاربة في بعض تماثيلهم .

قتل اليهود وترحيلهم

وهناك حقيقة يتجاهلها العديدون من علماء الأديان حول الدين المسيحي الذي أوحى الله إلى السيد المسيح لينسخ به الدين اليهودي القديم ويستأصله بعد أن فسد اليهود أنفسهم ، وزوّروا حقيقة عقيدتهم فأرسل الله عليهم قوماً جبّارين بدءاً من الملوك الآشوريين الذين دمّروا مملكة « إسرائيل » المؤلّفة من عشرة أسباط من ذرّية يعقوب وكانت قائمة في السامرة أو « سبسطيه » القريبة من نابلس ، وقد اقتيدوا أسرى إلى مملكة ميديا في فارس حيث ضاعوا وتبددوا إلى الأبد[1] .

أما الدولة الأخرى في اليهودية أو القدس فقد قضى عليها نبوخذ نصر ملك بابل واستأصلها استئصالاً . وكانت مؤلّفة من سبط واحد ، وهم اللاويون الكهنة ، فرحّلهم نبوخذ نصّر إلى

(١) راجع تاريخ اليهود (لفلافيوس جوزيفوس).

بابل[1] .

ولمّا سمح لهم قورش مؤسس الامبراطورية الفارسية في العودة إلى القدس عاد منهم أربعون ألفاً فقط . . ثم جاء القائد تبطس الروماني فأبادهم ورحّل معظمهم ولكن الترحيل النهائي جرى فلي عهد الامبراطور هادريانوس (٧٦ ـ ١٣٨) الذي أخلى فلسطين من اليهود وحرّم سكناها وسكنى القدس عليهم إلى الأبد . .

اليهود قتلة الأنبياء

لقد أراد الله تعالى أن يستبدل الدين اليهودي بالدين المسيحي فأرسل من صلب إبراهيم وموسى وداود نبياً هو المسيح عليه السلام ، ليستأصل العقيدة اليهودية كما جاء في إنجيل متى[2] .

وفي تلك الأيام جاء يوحنّا المعمدان يُكرز[3] في برّية اليهودية «٢»

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) متى اسم علم عبري معناه عطاء الله ولمتى اسم آخر هو لاوي. كان متى عشاراً يجبي ضريبة العشر في كفرناحوم حين دعاه يسوع فقام وترك عمله وتبعه ولزمه ورأى معجزاته وكتب ما قال غيرهم ولا نعرف السنة التي توفي فيها. وهو أول من كتب الإنجيل. كتبه بالآرامية وهي اللغة الدارجة عند اليهود في ذلك العصر والسريانية كثيرة الشبه بها. ذكر المؤرخون أن متّى كتب الإنجيل في السنة العاشرة لارتفاع المسيح أي سنة ٤٤ ميلادية. وعني متّى في روايته ولذلك يكرر هذه العبارات: جاء المسيح ليعلن ملكوت الله، ويتم الشريعة، ويهدي الناس سبيل البر الكامل، وجعل العمي يبصرون والكسحان يمشون والبرص يبرأون والصم يسمعون والموتى يقومون.

(٣) ولد يوحنا في مدينة على شاطىء بحيرة طبرية وكان أبوه صياداً وكانت أمّه سالومة من النساء اللواتي تبعن يسوع واقترن ذكر يوحنا بذكر بطرس في عدة أحداث رواها الإنجيل وكتاب أعمال الرسل أنكر بعض المؤرخين نسبة الإنجيل الرابع إلى يوحنا ونعت الأقدمون يوحنا بالحبيب وسموه يوحنا اللاهوتي كما شبّهوه بالنسر المحلق. ذكر بولس في رسالته إلى أهل غلاطية أن يوحنا كان في مدينة القدس الشريف حين قدمها ليحضر المجمع الكنسي الذي انعقد سنة (٥٠) ولا ندري متى ترك يوحنا بلاد

فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصّدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم : يا أولاد الأفاعي ما لي أراكم تتهربون من الغضب الآتي «٨» فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة «٩» ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً لأني أقول لكم أن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم «١٠» والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجرة فكل شجرة لا تضع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار «١١» أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذي يجيء من بعدي هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه هو سيعمدكم بالروح القدس والنار «١٢» .

وهذا ما عنيت ومن أراد أن يتعمق في التفاصيل فعليه أن يراجع إنجيل متى ليزداد فهماً وتعمّقاً لهذا الموضوع .

وقد كان المسيح عليه السلام يخاطب رجال الدين من اليهود بنعوت أُوحي إليه بها كقوله في متى ٢٣ ـ ٢٤ : « أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم » ، وكقوله : « فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء فاملأوا مكيال آبائكم » . وقوله : « هوذا بيتكم يترك لكم خراباً » .

وقوله : « أما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قِبَل الله القائل : أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب فلمّا سمع الجموع بهتوا من تعليمه » متى : ٢٢ ـ ٢٣ .

وقوله : « ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام وقال لهم مكتوب بيتي بيت الصلوات يُدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص »

فلسطين ويقال أنه أقام في أفس بالقرب من أزمير ثم نفي منها في عهد الامبراطور الروماني دوميسيانوس ثم عاد إلى إنسس فمات فيها وقد بلغ التسعين ونيفاً حوالي سنة ١٠٠ ميلادية .

(متى : ٢١) .

الأسفار

الأسفار التي كتبت في حياة النبي موسى خمسة وهي : سفر التكوين وسفر الخروج « من مصر » وسفر اللاويين وسفر العدد ، وسفر التثنية ، ثم مات موسى وبعد موته أضاف الكهنة اليهود ٣٤ « فصلاً » جديداً ، أضافوها إلى أسفار موسى وأطلقوا عليها اسم أسفار .

ثم بعث الله عيسى نبيّاً بدين جديد ليحل محل العقيدة اليهودية وذلك من مضمون رسالته . وهو كما أشرنا من أحفاد موسى وإبراهيم عليهما السلام ، وذلك هو الدليل الأعظم على أن الدين المسيحي جاء من عند الله لينسخ العقيدة اليهودية التي أفسدها اليهود بعد موت نبي اللّه موسى .

كانت الامبراطورية الرومانية قد وصلت إلى نهايتها بعد أن دب فيها الفساد وانتشر الظلم في جميع أرجائها ، وبعد أن كرهت أنظمتها الجائرة جميع الشعوب المغلوبة على أمرها الخاضعة لتلك الأنظمة والمفاسد . ففي عام ٤١٠ ميلادية احتل « الاريك » ملك القوط الغربيين روما وقضى على الأمبراطورية الرومانية[١] .

(١) ألريك أو ألريك الأول (٣٧٠ ـ ٤١٠) ملك قوطي غربي ثار بقواته بعد وفاة تيودوسيوس الأول واجتاح جنوبي البلقان وتفصيل ذلك ان آلافاً عديدة من (البرابرة الأرقاء) كما يسميهم الرومان فروا من أسيادهم وانضموا تحت لواء ألريك فحاصر رومة وفتح أحد الأرقاء أبواب المدينة وتدفق منها القوط واستولوا على المدينة عام ٤١٠ ولبثت ثلاثة أيام مسرحاً للسلب والنهب بلا تمييز بين أماكنها وذبح مئات من أغنياء المدينة واغتصب النساء ثم قتلن وامتلأت الشوارع بالجثث ووقع في أيدي المهاجمين آلاف من الأسرىٰ وأخذوا كل ما وقع في أيديهم من الذهب والفضة (قصة الحضارة)

الفصل الرابع

القوط في شبه جزيرة إيبيريه

من المعروف أن القوط يقسمون إلى قسمين : القوط الشرقيون وكانوا يقيمون في بانونيا الواقعة شمالي بحر الأدرياتيك وموسيا الواقعة في شمال مكدونيا وتراقيا . والقوط الغربيون الذين اجتاحوا الامبراطورية الرومانية بقيادة زعيمهم « ألاريك » .

ثم زحف من بعده ثيودوريك الملقب بالكبير ملك القوط الشرقيين عام ٤٧١م ، على إيطاليا واحتلها كلها .

ولكن قبل هذا التاريخ كان ألاريك ملك القوط الغربيين قد زحف على ايبيريه وأنشأ فيها دولة قوطية واتخذ طليطلة عاصمة لها .

وكانت إيبيريه يوم أن اقتحمها القوط الغربيون على مذهب الرومان لأن طبقة الأعيان وأصحاب الأملاك الكبيرة وهم الأقلية كانوا رومانيين

يدينون بالكثلكة على عكس الذين كانوا آريوسيين ، ومن المعروف أن بين الكاثوليك والآريوسيين عداءً مذهبياً قديماً استحكمت بغضاؤه يوم أن شن القواد الرومان حملة شديدة على أتباع أريوس وشرّدوهم ، فتفرّق أولئك وتوزّعوا في المملكة الرومانية شمالها وجنوبها وراحوا يبثون عقيدتهم الآريوسية بين القبائل الجرمانية الضاربة في شمال أوروبا ومنها قبائل القوط . أما أكثرية السكّان فكانت من الكنعانيين « البربر » .

وكان الفاندال أو الوندال[1] من جملة الشعوب الجرمانية التي احتلت إيبيرية وأطلقوا على المقاطعات التي سكنوها اسم فاندالوسيا أو واندلوسيا .

وفي عام ٤٢٩م اجتاز الفاندال بقيادة جيزيرك جبل أعمدة هرقل « أي جبل طارق » واستقرّوا في أول الأمر في نوميديا القديمة ثم حول قرطاجة التي ما لبثوا أن احتلّوها عام ٤٣٩م .

---

(١) كان الوندال أمة قوية كثيرة العدد تمتلك الأجزاء الوسطىٰ والشرقية من روسيا الحالية. وكانوا قد زحفوا جنوباً إلى بلاد المجر وأقاموا في بانونيا زهاء سبعين عاماً وأثارت انتصارات ألريك حميتهم. وفي عام ٤٠٦ زحفت جموع كبيرة من الوندال والألاني والسويقي وعبرت نهر الرين وعاثت فساداً في بلاد غالة ثم تحركوا شمالاً إلى بلجيكا وواصلوا الزحف حتى كادوا يبلغون بحر المانش. ثم اتجهوا نحو الجنوب وعبروا نهر السين واللوار ودخلوا أكوتانيا. ثم ولوا وجههم نحو الشرق ونهبوا نربونة وفي عام ٤٠٩ دخلوا أسبانيا وكان عددهم وقتئذٍ نحو ١٠٠ ألف وكان الحكم الروماني في تلك البلاد قد أثقل كاهل أهلها بالضرائب وجعل الكثرة الغالبة من سكانها عبيداً يعانون ويلات الفقر المدقع. وكانت مريدة وقرطاجة وقرطبة واشبيلية من أغنىٰ البلاد. فانقض الوندال والسويقي والآلاني على هذه الشبه جزيرة وأعملوا فيها السلب والنهب عامين كاملين حتى لم ينج فيها مكان من جبال البرانس إلى مضيق جبل طارق. بل ان فتوحهم امتدت إلى سواحل أفريقية الشمالية وأدرك هونوريوس انه عاجز عن حماية الأراضي الرومانية بالجيوش الرومانية فأغرىٰ القوط الغربيين بالمال الوفير ليردوا إليه أسبانيا. وقام ملكهم «واليا». بهذا العمل بعد عدة وقائع حربية أحكم خططها سنة ٤٢٠م فارتد السويقي إلى شمال أسبانيا وارتد الوندال إلى الجنوب، إلى أقليم الأندلس الذي لا يزال يسمىٰ باسمهم حتى اليوم. (قصة الحضارة ١٢/ ٧٨).

مملكة جيزيريك

ولما كان جيزيريك زعيماً طموحاً فقد كوّن لنفسه مملكة بحرية ضم إليها جزر البليار وكورسيكا وجزيرة سردينية وصقلية . فاعترفت بمملكته الامبراطورية البيزنطية على أنها مملكة الأمر الواقع بالرغم من أن الفندال كانوا يدينون بالآريوسية ثم عقدت بين المملكة الفاندالية الآريوسية والامبراطورية الرومانية الكاثوليكية معاهدة اتفاق وتراضٍ عام ٤٧٤ وفي هذا العام مات جيزيريك .

ولكنه كان قد انتزع قبل موته أملاك الرومان الكاثوليك ومنحها لرجاله الفاندال الآريوسيين . فأدى ذلك إلى نشوب النزاعات بين الفاندال من جهة وأعيان الرومان والنوميديين سكان البلاد من جهة أخرى . ثم موّهت تلك المنازعات بالصبغة الدينية فتفاقم الخلاف بين المحتلين الآريوسيين والكاثوليك . والجدير ذكره أن الزعيم جيزيريك لم يعبر جبل هرقل إلا بدعوة من الوالي الروماني الذي فضل التعاون مع الفاندال ضد خصومه في روما فكانت النتيجة أنه فقد منصبه ، كما فقدت روما مستعمراتها في شمال أفريقيا .

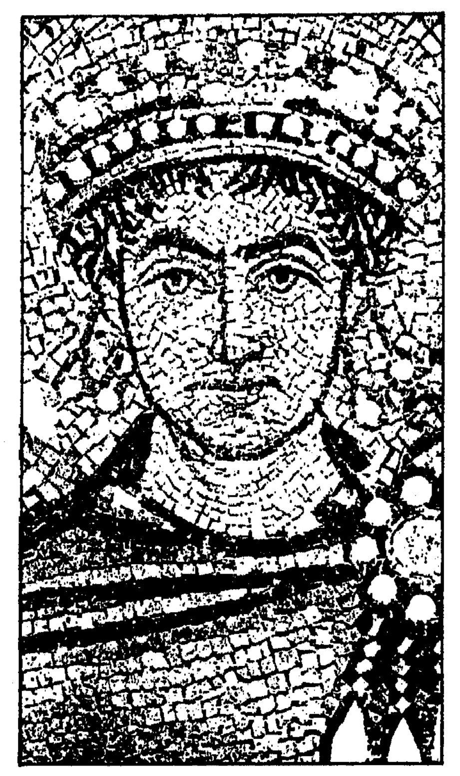
وهكذا استقبل الرومان الغُزاة الفاندال كحلفاء لهم أمّا كنعانيو المغرب فقد بدأت لعبتهم السياسية على حساب غلطة الوالي الروماني فلم يقاوموا المحتل الفندالي الجديد على اعتبار أن الأمر سيؤول إليه وبذلك يتخلصون من الرومان ويتحررون من استعمارهم الذي طال عليه الأمد .

ولكن الفندال الذين احتلوا نوميديا اشرأبّت أعناقهم إلى المغرب فلما اجتازوا بعض مقاطعاته نشبت بينهم وبين سكان البلاد معارك دموية عنيفة واجهها الفندال بالقسوة وبالقتل والتخريب في البلاد . مما حدا بالأعيان

الرومان وسكان الشواطىء المغربية لأن يطلبوا نجدة سريعة من الامبراطور البيزنطي جوستينيان[1] ، وضمت الكنيسة الكاثوليكية صوتها إلى أصوات المستنجدين وراحت تضغط على القسطنطينية من أجل تجريد حملة عسكرية لطرد الفندال من شمال أفريقيا .

---

(١) جوستينيان: أو يوستينيان الأول (٤٨٣ ـ ٥٦٥) امبرطور بيزنطي (٥٢٧ ـ ٥٦٥) ابن أخت يوستين الأول وخليفته شن حربين كبيرتين استعاد بهما أفريقيا من الوندال (٥٢٣ ـ ٥٤٨) وايطاليا من القوط الشرقيين (٥٣٥ ـ ٥٥٤) ولكنه كان أقل نجاحاً في محاربة الفرس ولم يستطع ان يمنع غارات السلاف والبلغار السنوية. وعندما قامت فتنة نيفا سنة ٥٣٢ كادت تكلفه عرشه لولا ثبات الامبراطوره تيودورا. وقد أصر على سيادة الامبراطور على الكنيسة في أمور العقيدة والتنظيم شيَّد بنايات كثيرة أهمها كنيسة أيا صوفيا. خلفه ابن أخيه يوستين الثاني (المرجع السابق).



الامبراطور البيزنطي جوستنيان .

وقبل وصول الحملة العسكرية اعتنق الفندال المذهب الكاثوليكي لمجابهة اللعبة السياسية ـ الدينية على أمل استرضاء أعيان البلاد وكبار الملاكين ، ولكن القائد البيزنطي بيليزير هزم الفندال عام ٥٣٣م ، وبذلك تكون الامبراطورية الرومانية البيزنطية الشرقية قد احتلت البلاد . . لتحل محل مملكة الفندال ومن قبلها الأمبراطورية الرومانية الغربية .

واستولى البيزنطيون بحملتهم البحرية على طنجة وسبته في شمال المغرب . وراح البيزنطيون الذين واجهوا مقاومة مغربية عنيفة من الداخل وأخذوا يبنون التحصينات والأبراج لحماية أرواحهم . . من هجمات المغاربة .

وبقي المغرب الداخلي سليماً

يستخلص من هذا الاستعراض التاريخي السريع أن الصحراء المغربية والمغرب الأوسط وجبال الريف لم يتمكن المحتلّون الرومان والفندال والبيزنطيون على التوالي من احتلالها لصعوبة اجتيازها . وبسبب المقاومة الضارية التي كانت تجابههم لذلك فإن الغزاة كانوا يكتفون باحتلال المدن الشاطئية في المغرب ، ولكن نوميديا أي تونس والمقاطعات الداخلية كانت محتلة على الدوام بالرغم من وجود الملكية النوميدية . وذلك لسهوله اجتياز أراضي تونس وللتعاون الوثيق بين الأسرة النوميدية المالكة والغزاة المحتلين .

فالصحراء المغربية ظلّت حصينة منيعة بوجه الغزاة وأكثر من ذلك فإن العديد من القبائل الشمالية كانت تضطر أحياناً إلى النزوح إلى الصحراء المغربية والسكنى فيها حتى يعيشوا مستقلين بعيداً عن متناول أيدي الغزاة الظالمين .

فسكان المغرب منذ العصر الحجري المصقول كانوا يشكّلون وحدة متناسقة غير منقسمة على نفسها فالتجار والملاّكون من سكان المدن كانوا يطأطؤون رؤوسهم للغزاة مثل سنابل القمح التي تحني رؤوسها عند هبوب العاصفة ، ثم تعود وتشمخ برؤوسها من جديد والحقيقة أن سكان الصحراء كانوا أشد ضراوة ومراساً في مقاومة الغزاة لأن طبيعة الصحراء كانت تساعدهم على أن يظلوا أباة أحراراً لا يخضعون للغزاة ولا يهادنونهم .

ويقال مثل ذلك عن المغرب الأوسط الذي قامت فيه إمارتان قويتان هما إمارة فولوبيليس وإمارة أورانيا . وكانتا مستقلتين وعلاقاتهما مع الرومان وغيرهم قليلة ومحدودة . وإلى جانبهما تقع إمارتا الأوراس والأنطالاس اللتان كانتا تتبعان سياسة مستقلة .

وقد حاول جيزيريك[(١)] الفاندالي إخضاع إمارة الأوراس ففشل بسبب قوّة شكيمتها وعنادها وتمرّدها ، ولمّا أصر على الحرب مات فحاول خلفاؤه إخضاع إمارة الأوراس بين سنة ٤٧٧ و ٤٨٤ فَمُنُوا بالهزيمة .

ولمّا حل البيزنطيون محل الفندال قاموا بمحاولة أخرى لتجديد وبعث الحكم الروماني السابق فجوبهوا بمملكة الأوراس بقيادة زعيمها يابداس ، وعلى مدى أربع سنوات من الحرب اضطر بعدها إلى الهرب نحو الغرب

---

(١) جيزيريك Gaiseric أو جيسرك وربما جنسرك (٣٩٠ ـ ٤٧٧) ملك الوندال (٤٢٨ ـ ٤٧٧) غزا افريقيا الرومانية من أسبانيا عام (٤٢٩) استولىٰ على قرطاجة عام (٤٣٩) مكنته اساطيله التي كانت تقوم بأعمال القرصنة في السيطرة على البحر المتوسط من نهب روما عام (٤٥٥). وعندما عقد صلحاً مع زينون (٤٧٦) كانت في حوزته بلاد شمال افريقيا وكورسيكا وجزر الباليار.

وكان جيزيرك مع هذا ادارياً قديراً أعاد تنظيم افريقيا وجعل منها دولة ذات ثراء تدر عليه المال الوفير. وقد أنشأ اسطولاً ضخماً نهب به سواحل اسبانيا وايطاليا وبلاد اليونان.

للاستعداد من جديد فلما تمّت استعداداته كر على أعدائه عام ٥٤٦ وهكذا دواليك . .

فوضى الحكم الروماني

من هنا ندرك أن الحكم الروماني كان في حالة فوضى مستمرة لا في المغرب وشمال أفريقيا وحسب وإنما في جميع أطراف الامبراطورية الرومانية ففساد الحكم الروماني بدأ من القمة ثم راح يهبط وينتشر بصورة متواصلة حتى عمّ القاعدة . ويقال مثل ذلك عن الحكم الفاندالي الذي قضت عليه الفوضى والعداء المستحكمان بين عنصرين عدوين لدودين العنصر الروماني المستبد والعنصر الفاندالي المنتقم ـ بالإضافة إلى الخلافات المذهبية والعنصرية ـ ولم يكن الحكم البيزنطي منزّهاً أو مجرّداً من الفوضى لأن الخلافات الطبقية ما لبثت أن لعبت دورها في تحطيم كبار الملاكين الذين كانوا السند الوحيد للحكم البيزنطي[(١)] لأنهم كانوا من الكاثوليك أي من الذين أرادوا أن تكون لهم السيادة المطلقة سواء كان ذلك في الحكم أو في الكنيسة فاصطدموا بسكان البلاد وظلت الفوضى والحروب

(١) كانت جمهرة السكان لا حول لها ولا طول من الناحيتين المعيشية والسياسية. فدستور قسطنطين كان دستور دولة ملكية مطلقة سافرة. وكانت ارادته هي القانون الأعلىٰ لأنه كان يستمتع بالسلطة. كاملة وتحيط به هالة رهيبة من المهابة والتقديس والترفع والعزلة عن الشعب وما تخلعه عليه الكنيسة من مراسم التتويج والتأييد وإذا كان هذا النظام قد أوجد أداة إدارية قوية وأطال حياة الامبراطورية البيزنطية نحو ألف عام إلا أنه اشترىٰ هذه الحياة بالركود السياسي وبالجمود في كل مناحي الحياة العامة وبمؤتمرات الحاشية ودسائس الخصيان وحروب الوراثة وبعشرات الثورات التي شبت نارها في القصر والتي رفعت إلى العرش أباطرة أكُفّاء في بعض الأحيان ولكنها قلّما رفعت إليه أباطرة ذوي استقامة خلقية وما أكثر من رفعت إليه من المغامرين الذين لا ضمير لهم أمن العصابات الألجركية أو من الحمقى البلهاء. (قصة الحضارة ١٢/١٨).

مستمرة حتى نهاية القرن السابع الميلادي عندما جاء العرب فاتحين ومحررين لأقطار المغرب فرحّب المغاربة بهم وأعزوهم ونصروهم لأنهم لم يأتوا مستعمرين كغيرهم وإنما جاؤوا من الشرق من البلاد التي جاء منها آباؤهم الكنعانيون من قبل وأصبحوا سكان هذه البلاد .

ليبيا تحت وطأة التسلط الروماني

بعد مقتل الأمبراطور اسكندر سفيروس ـ وقعت الأمبراطورية الرومانية فريسة للحروب الداخلية . وفي عهد الأمبراطور ديوكليشيان ٢٨٤ ـ ٣٠٥ حصلت طرابلس وأقليمها على الاستقلال الذاتي مرة أخرى ، ولكن الضرائب التي فرضها الرومان على الليبيين سحقت الفلاحين سحقاً وحولتهم إلى العبيد في مزارع الرومان المستملكين لأجود الأراضي الزراعية وأخصبها .

وقد وصف أحد رجال الدين المسيحي وهو من أصل ليبي ويدعى سبريان الحالة العامة بقوله : « أن العالم يقترب من نهايته لأن الظلم عمَّ الأرض كلها ، فلم تعد الأمطار تسقط في ليبيا لإنبات البذور ، وحتى الصيف لم تعد له الحرارة الكافية لإنضاجها ، وقلّت كميات الرخام المستخرجة من الجبال ونفذت معادن الذهب والفضة من مناجمها ، الفلاح المستعبد يهرب من الحقول ، والملاّح يولي الأدبار من البحر ، والجندي من المعسكر ، وانهارت العدالة في المحاكم ، ووئدت روح الصداقة بين الناس ، وتقلّص عدد المهرة من الصنّاع والفنانين » .

ثم يقول : إنّا لا نستطيع أن نجد بين البرابرة مثل ما نجده بين الرومان من ظلم الأغنياء للفقراء لأن قلوب البرابرة أرق من قلوب الرومان . ولو أن الفقراء وجدوا وسيلة للانتقال لهاجروا بقضّهم وقضيضهم ليعيشوا تحت

حكم البرابرة . الكل داخل الأمبراطورية غارقون في حمأة من الفساد لا يكاد التاريخ يعرف لها مثيلاً فالزنى وشرب الخمر قد أصبحا من الرذائل المألوفة في هذه الأيام كما أضحت الفضيلة والاعتدال مثاراً للسخرية . وجملة القول أن العالم الروماني سائر إلى الانحطاط ، وأن الامبراطورية « إما أن تكون قد ماتت وإما أنها تلفظ آخر أنفاسها » وإذا كنّا نراها في ذروة ترفها وألعابها ، فإنها تضحك حين تموت .

وجاءت قبائل من الجنوب فهاجمت طرابلس ولبدة فنهبوهما وقتلوا العديد من السكّان وأخذوا العديد منهم أسرى .

وقامت في ليبيا ثورات داخلية متتابعة شنّها الفلاّحون ضد الملاكين وكان أشهرها ثورة عام ٣٦٣ ميلادية .

ولمّا هاجمت القبائل الجنوبية المدن الليبية لم يحرك القائد الروماني ساكناً ولا الأمبراطور فالنتيان الأول « ٣٢١ ـ ٣٧٥ » .

وأرسلت المدن الليبية وفداً إلى روما ليطلب النجدة والحماية فوعدوا ولكن وعودهم لم تتحقق .

ثم عادت قبائل الجنوب « الاستوريين» وهاجمت عام ٣٦٥ لبدة مرة أخرى ثم أويا وسبراته ونهبت المدن الثلاث .

ولمّا اعترفت روما بالدين المسيحي قاومه السكان المحليون ليس في ليبيا فحسب بل وفي كل أنحاء شمال أفريقيا . ثم ما لبث الدين المسيحي أن تسرّب إلى مدن شمال أفريقيا الشاطئية ، وعلى الأثر نشبت المنازعات الدينية بين السكان أنفسهم ، فهاجم المسيحيون الملقّبون بالمطهرين « Circumcelliones » بلدان شمال أفريقيا وأعملت في مدنها القتل والسلب والنهب والحرق ، تحت ستار الدفاع عن الدين الجديد ، وكانت هذه الفرق

أثناء هجومها على المدن تردد شعارها المأثور « المجد لله » وهكذا نشروا الذعر في جميع المدن ومنها مدينة طرابلس التي تلقّت نصيباً وافياً من أعمال القتل والحريق .

الفصل الخامس

البيزنطيون يتغلبون على الفاندال

وجاء البرابرة الفاندال فازدادت المآسي ، وكانوا إذا سكروا عربدوا واعتدوا على النساء وأرغموهنّ على حضور حفلاتهم الصاخبة .

وقد تمكّنت القسطنطينية البيزنطية من إخضاع الفاندال في شمال أفريقيا عام ٤٦٨ ميلادية بقيادة هرقل وبعد هزيمة أسطول البيزنطيين في البحر انسحبوا من ليبيا بعد ثلاث سنوات . ثم عادوا بعد ستين سنة وفي مدة غيابهم وقعت ليبيا فريسة للقبائل الجنوبية فهاجمت المدن الساحلية وفي غضون هذا الهجوم دمرت مدينة ليبتيس « لبدة » تدميراً كاملاً وفي عام ٥٣٣ جرّد جوستنيان امبراطور القسطنطينية حملة جديدة على شمال أفريقيا لإخضاعها وضمّها إلى الأمبراطورية ، فجمع خمسمائة سفينة نقالة وتسع وتسعين بارجة حربية . وما أن تلقّت أوامر الأمبراطور حتى أبحرت إلى قرطاجنة بقيادة بليساريوس وكان بركيبوس قد صحبه فكتب وصفاً رائعاً لحرب الوندال : ونزل بليساريوس في أفريقيا بما لا يزيد على خمسمائة من الفرسان واكتسح وسائل الدفاع الواهية عن قرطاجنة ولم يمض أكثر من

بضعة أشهر حتى قضى على قوّة الوندال ، وعجّل جستنيان فدعاه إلى احتفال بالنصر يقام بالقسطنطينية فانقضّ المغاربة من التلال على الحاميات الرومانية وأسرع بليساريوس بالعودة في الوقت المناسب للقضاء على فتنة قامت بين جنوده وقادهم بعدها للنصر[1] . ونجحت الحملة بالقضاء على الفاندال ، واعتنق بعض السكان المذهب الكاثوليكي ، ولكن الفساد الروماني عاد من جديد وهو يتدثر في هذه المرة بالمسوح والدين .

وقد حاول البيزنطيون نشر الدين المسيحي بالقوّة بين السكان ، وفي الوقت نفسه أخذ المهاجرون البيزنطيون يستملكون نفس الأراضي التي كان يستملكها الرومانيون والوثنيون من قبل وعاد كل شيء إلى ما كان عليه سابقاً ، الظلم والاستبداد والنعرات العنصرية ، والفقر واستعباد العمال والمزارعين وتسخيرهم للعمل في المناجم والمزارع التي اغتصبها البيزنطيون ، في حين كانت الفوضى تضرب أطنابها فوق الأمبراطورية وتعمل فيها هدماً وتفكيكاً فعمّت الشكوى ليس في ليبيا فحسب بل وفي جميع أرجاء أفريقيا الشمالية .

دين الهدى والسلام

وراح سكان شمال أفريقيا يتطلعون نحو الشرق ويستمعون بشغف إلى الأخبار المتسرّبة إليهم عن طريق برقة والتي تنبىء وتبشر بظهور أمّة جديدة تتحلى بالعدالة والمساواة ودين جديد هو الإسلام الذي يحض على التمسّك بالفضائل والأخلاق والمساواة بين جميع الأفراد وبين جميع الشعوب وكأنهم يقولون في أنفسهم : الغزاة يرحلون وتبقى البلاد لأبنائها .

لقد رحل الرومان الغربيون من شبه جزيرة إيبيريا ـ أتيكا سابقاً .

---

(١) راجع قصة الحضارة ص١٢/٢١٩ .

وشمالي أفريقيا . فحل القوط والفندال مكانهم ثم رحل الفندال فبقي الغزاة القوط في إيبيريا ـ أتيكا الكنعانية سابقاً ، والرومان الشرقيون « البيزنطيون » في شمالي أفريقيا وسيرحل هؤلاء بقوة الفاتحين الجدد أعني بهم العرب المسلمين الذين سينشرون دين الهدى والسلام في هذه الربوع الطيبة .

انتهى الجزء الاول من الموسوعة
ويليه الجزء الثاني

الفهارس العامة

١ ـ فهرس الأعلام

ـ أ ـ

ـ ت ـ

-ر-

-س-

ـ ق ـ

ـ ك ـ

- ي -

٢ ـ فهرس المدن والأماكن

ـ أ ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

٣ ـ فهرس البلاد والقبائل والأمم

ـ أ ـ

- ث -

- ج -

ـ ق ـ

ـ ك ـ

- م -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

٤ ـ المصادر

القرآن الكريم.

التوارة ـ سفر حزقيال.

الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل.

المعجم الوسيط

ارنولد توينبي: دراسة في التاريخ طبعة اوكسفورد ١٩٣٤ المجلد الثاني.

أ ـ ف ـ غوتية: الصحراء: منشورات بايو ١٩٢٨.

أحمد صفر: مدنية المغرب العربي في التاريخ دار النشر بوسلامة ـ تونس.

أحمد المكناسي: خريطة المغرب الأركيولوجيَّة ـ تطوان ١٩٦١

أحمد توفيق المدني: قرطاجة في أربعة عصور ـ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.

ابن حزم الأندلس: جمهرة أنساب العرب.

ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ـ دار الثقافة ـ بيروت.

ابن عذاري: البيان المغرب في تاريخ المغرب ـ دار الثقافة بيروت.

ألان لويد: دمروا قرطاجة ـ Souvenir 1977 .

أسد رستم: تاريخ اليونان من فيلبوس المقدوني إلى الفتح الروماني ـ الجامعة اللبنانية ـ قسم الدراسات التاريخية ١٩٦٩ .

البكري: المسالك والممالك ـ معجم ما استعجم .

بلوتارخ: مذاكرات بوتارخ .

حيوان متوازية .

حياة نبلاء الاغريق .

كاتو ـ فلامنيوس ـ مرسيلوس ـ بوربوز ـ رومولوس .

تاريخ اليهود .

جيمس ـ هـ ـ برستد: تقارير قديمة عن مصر . المجلد الأول والثاني شيكاغو ١٩٠٦ ـ العصور القديمة ـ نقله إلى العربية داوُد قربان ـ مؤسسة عز الدين/ بيروت .

روم لاندو: تاريخ المغرب في القرن العشرين ـ تعريب نقولا زيادة ـ بيروت ١٩٨٠ .

سترابو: الكتاب الثالث الفصل والقسم ٤ ـ ٤ .

شارل جوليان: تاريخ افريقية الشمالية تعريب محمد مزالي ـ البشير بن سلامة ـ الدار التونسية ١٩٦٩ .

عبد الله العروي: تاريخ المغرب ـ محاولة في التركيب ـ ترجمة ذوقان قرقوط ـ المؤسسة العربية للدراسات ١٩٧٧ .

عوفيد ـ الروماني: كتاب التحويل .

فلافيوس جوزيفوس:

تاريخ اليهود ـ الكتاب الثامن ـ الفصل الثالث .

فيليب حتي: تاريخ العرب المطوَّل دار الكشاف بيروت ١٩٦١ .

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين دار الثقافة بيروت .
تاريخ لبنان دار الثقافة بيروت .
مجلة العربي: عدد أكتوبر ١٩٧٨ .
محمد علي دبُّوز: تاريخ المغرب الكبير دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٣ .
الموسوعة العربية الميسَّرة: دار نهضة لبنان ـ بيروت .
مركز البحوث: الكتاب الوطني الجزء الثاني ـ بيروت .
المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر دار المعرفة بيروت .
نجيب زبيب: دولة التشيع في بلاد المغرب منشورات دار الأمير بيروت .
المحيط الكوني وأسراره ـ دار الأمير بيروت .
هيرودوتس: التواريخ ـ الكتاب الثالث ـ الليديّون .
تاريخ هيرودوتس الشهير: ترجمة حبيب بسترس ـ بيروت ـ مطبعة القديس جاروجيوس ١٩٨٦ ـ ٨٧ .
هيرودوتس في مصر القرن الخامس قبل الميلاد ، نقله عن اليونانية وهيب كامل ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٤٦ .
وليام أولبرايت: حفريات فلسطين (اركيولوجي أوف بالستين) .
وول ديوارنت: قصة الحضارة

المصادر الأجنبية

- E - F - Gautier les siècles obscures de l'Afrique du Nord.
- André julien: histoire de l'Afrique du Nord. paris 1921.
- G. Sell: Histire ancienne de l' Afrique du Nord.
Louis Brèhier: Les origines du crucifix dans l'art réligeux paris 1908.
- Carl sagan - cosmos
- H. D. Holl - New York 1936
- Mowers. v. 2.

٥ ـ فهرس المحتويات

الفصل الرابع

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الأول

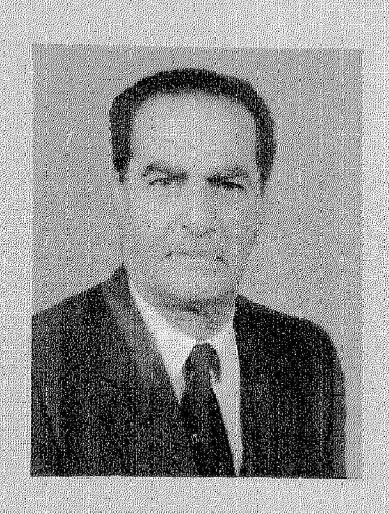
الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس


الدولية للثقافة والنشر
بيروت - لبنان ص. ب ٥١٩٦/١١٣ - الحمراء



نجيب زبيب

ربما تكون هذه الموسوعة أول عمل ضخم يتناول تاريخ المغرب والأندلس منذ أن وطئت أقدام الكنعانيين أرض الشمال الافريقي وشبه جزيرة إيبيرية في الألف الثالث قبل الميلاد إلى يومنا هذا، يقدمها الاستاذ نجيب زبيب بسرده العلمي والموضوعي للأحداث وبأسلوبه الأدبي المشوق ومن هنا يكون هذا التزاوج المتين بين دقة المعنى وأناقة العبارة. وهي وإن كان موضوعها تاريخ المغرب والأندلس إلاّ أنها حافلة بجلائل الأحداث التاريخية الكبرى التي كانت البلاد العربية والاسلامية في مختلف عصورها التاريخية مسرحاً لها

هذا الكتاب

تعتبر هذه الموسوعة من أجلّ الأعمال التي كتبها الاستاذ نجيب زبيب وأضخمها. إنها بحق كما وصفها المؤلف بنفسه وصف الواثق المطمئن «عقد فريد لم يسبقني إليه الأوائل وسيكون نبراساً للأواخر ومفتاحاً لكل أبواب تاريخ المغرب العريق بأمجاده والعريق بإيمانه بوطنيّته وبعقيدته الاسلامية والعريق أيضاً بعروبته وكنعانيّته»...

وإذا قيل عن العقد الفريد لابن عبد ربه أنه (خزانة حوت خلاصة علوم ذلك العصر) فإن عقد الاستاذ نجيب زبيب هذا هو سجلّ ضخم حافل للأحداث في مختلف العصور القديمة منها والحديثة وذاكرة حيّة شاهدة وعت التاريخ العربي والاسلامي بعمق في مشرق البلاد العربية ومغربها وغاصت في زواياه ومنعطفاته فسجّلت ودوّنت ونقلت تفاصيله بكثير من الصدق والأمانة والدقة والموضوعيّة.

في هذه الموسوعة يتكلم الاستاذ نجيب زبيب عن المغرب فيعرض لتاريخه النضالي الطويل منذ زمن الكنعانيين وحتى بدايات عهد صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني مبرزاً الدور الريادي الذي لعبه على مسرح الأحداث في إفريقيا والأندلس والمغرب العربي الكبير وحضوره الفاعل في الميادين السياسية المعاصرة؛ العربية منها والاسلامية والعالمية على حد سواء.



